MAYSALOON HADI

رواية
NOVEL

ميسلون هادي

زينب وماري وياسمين

زينب وماري وياسمين / رواية عربيّة
ميسلون هادي/ مؤلّفة من العراق
الطبعة الأولى، 2012
حقوق الطبع محفوظة ®

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :11-5460 ، هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب: 9157، عمّان 11191 ـ الأردنّ،
هاتف 5605431 6 00962 / 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
® **عمّان** 00962 7 95297109
لوحة الغلاف: **نالان آيج / تركيا**
التنضيدّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذالطباعيّ : **دينمو برس / بيروت ، لبنان**

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أونقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر.

ISBN 978-614-419-149-1

رواية
NOVEL

ميسلون هادي

زينب وماري وياسمين

مرآة الجن

توقف المطر فجأة كما بدأ فجأة ، فتغير المكان من ربعة الحوش في منزل زينب إلى صالون كبير وأنيق يغني فيه هيثم يوسف أغنية حزينة . . . الجدران تغطيها لوحات وتحفيات . . . والسقفُ تتدلى منه ثريا كبيرة جعلتني أشعر بالحرارة من شدة الوهج الذي تبعثه مصابيحها الصفراء . . أحسست أن الدفء قد قهر وجهي وجعله ذهبياً وربما أحمر اللون . . وأن الساعة التي تتكتك بانتظام تراقبني من مكانها على الجدار ، وشجرة الصبار كذلك تراقبني . . لكن المرأة التي ترتدي تنورة قصيرة ولا تضع حجاباً على شعرها دخلت وقالت لي :

– أين كنت يا ابنتي؟ ما أحلاك . . تعالي تعالي .

– دقيقة .

– ماذا تفعلين؟ لا تعدّلي حجابك . . هذا أبوك وأنا أمك .

– دقيقة .

– اخلعيه يا ابنتي . . جميعنا أهلك . . هذا أبوك وأنا أمك وهذا أخوك أدور؟

– لا تخلعيه يا ابنتي . . دعيه . . كما تشائين . .

لم أشعر بأنني في المكان الصحيح . . . كلامها كان بعيداً ، والصالون أكبر مما ينبغي . . . والسقف أعلى كذلك . . وأنا أشعر بخوف لم أجربه في حياتي من قبل . . ماذا يجري؟ أخي اسمه أدور وأمي

اسمها ماري . . وما اسم أبي؟ . . الحمد لله ، أن اسمه عبد الأحد . . وكان يشبهني إلى حد كبير . . ويتكلم بهدوء شديد لكي لا أفزع ولا أخاف . . وهو الذي قال لي عن الحجاب لا تخلعيه يا ابنتي . . دعيه كما تشائين . كوني على راحتك ولا تخافي من شيء . . كأنني عبرت نهراً عريضاً بلا قارب ، وبصعوبة بالغة وجدت نفسي على اليابسة . . أريد أن أعرف ماذا يحصل؟ وما الذي أتى بي إلى هذا الجانب من النهر ، لكي أجد أهلي الحقيقيين هنا في مكان آخر من العالم ، وأجد نفسي أتحرك بصعوبة فوق سجادة بيضاء اللونِ ؟ . . ميتة من الخجل والخوف . تركت خلفي أخي مصطفى وأبي محمد وأمي زينب التي ماتت بعد عجز الكليتين ، فكانت الوحيدة التي سكنت في المكان الصحيح . . . بدت خفيفة كريش الحمام في أيامها الأخيرة ، ولا يوجد في إصبعها كشتبان ولا خاتم زواج . . وحتى ابنتها ياسمين ، أعز ما تملك ، أخذوها منها ودسوها تحت السلة قبل أن تموت .

كنت أسأل أمي وأنا صغيرة : ماذا لو ضعتُ بعيداً عن البيت ولم يعثر علي أحد؟ فتقول أمي لي : كيف تضيعين وأنا موجودة في هذه الدنيا؟ . . سأبحث عنك في كل مكان حتى أعثر عليك . . أقول لها : ماذا لو سقطت في حفرة عميقة لا يعرف بها أحد؟ . . فتقول : لا تخافي . . سأتشمم رائحتك وأجدك حتى وإن لم أرك . . أقول لها ماذا لو سقطتُ في بئر بعيدة فوقها غطاء سميك لا يمكن لأحد أن يسمع صوتي فيه ، أو يعرف ما موجود تحته؟ . . فتقول لي : قلبي سينبؤني بمكان وجودك وأراك حتى لو كنت في سابع ظلمات الأرض . لا يزول عني القلق ، ولا أشعر بالأمان لكلامها ، وأشعر بأني ضائعة تحت الأرض لا محالة . . . . . أرض غريبة لا أتعود عليها ولا أحبها ،

فأخاف وأفزع منها أشد الفزع ثم أتمنى لو أظل عالقة في الحبل السري ، لكي أبقى جنيناً في بطنها ، والحبل الغليظ ملتف حولي لا يقطعه أحد . . . . . يمتد من سرتي إلى المشيمة . . . . . مشيمة زينب .

في خريف الدنيا ، وأنا أنشر الملابس على الحبل ، تساقط المطر بعد الصيف ، فانفجرتُ بالبكاء ، لأن أمي زينب سوف تتشبع بالماء المتجمع فوقها . . أصبحت أستيقظ وأنا أبكي من القلق كل يوم ، وأشعر بروحها وقد انقطع عنها الهواء وأصبح حالها كحال الضفادع في البساتين التي انحسر عنها الماء . سوف تتبلل وينتفخ عنقها وتغرق بالطين ويمتلئ فمها بالمطر . . ستختنق بسبب الماء والطين فيرقص الدود في بطنها ويمتص ما تبقى من كليتها الضامرة . . وحيدة في وادي التراب السكران . . مقابل بوب الشام . . في نهاية الطريق المار من جزيرة بغداد إلى معامل الثعالبة للبلاستك والمواد الإنشائية ، والتي كانت تنتشر في دروبها الضيقة بيوت العوائل التي تعمل فيها . ولكنها الآن متوقفة عن العمل بسبب عصابات الخطف والقتل التي حولتها إلى أبنية مهجورة تحيط بها بيوت خاوية من أهلها . الحمد لله أن بعض الدرابين لا زالت غير مستباحة من العصابات ، مما كان يجعل بيبي(*) صبيحة تستعمل طريقاً آخر إلى المقبرة يمر ببساتين الراشدية وصولاً إلى تانكي الماء العالي ، الذي يعني أن الحظ قد حالفنا في تلافي السيطرات الوهمية التي تنصبها تلك العصابات على الطريق العام قبل الوصول إلى المقبرة بسلام . .

(*) بيبي : عامية عراقية تعني الجدة وهي تلفظ بطريقة مختلفة عن كلمة بيبي الانكليزية .

لا أريد عد الأيام الأربعين ولا أن أعرف أولها من آخرها مادامت زينب ليست هنا . . لا تدخل ولا تخرج . . لا تضحك ولا تبكي . . ولا تضع الكشتبان في بنصرها . . ولا خاتم الزواج . . أظلمت الدنيا بعيني عندما قالوا إنها سارت إلى السماء ونامت مع الملائكة ، ولولا أن الشمس أشرقت هذا اليوم وملأت الدنيا بالدفء واللعب ، لما اشتقت إلى الخروج من البيت ، أو المشي ثلاثين خطوة إلى بيبي صبيحة النائمة على فراشها تحت المروحة . . إذا كنت يا بيبي صبيحة قد نسيتِ ، بعد أربعين يوماً ، أن تُطفئي المروحة ، فماذا سيحدث لك يازينب بعد أربعين عاماً؟ . . ومن سيتحقق من نظافة القبر ، أو يقرأ لك القرآن قرب رأسك يوم العيد؟ . . . . . أحتاج أن أفهم لماذا كل شيء ليس على مايرام . . . . . أحتاج أن أعرف ماذا يجري يابيبي صبيحة؟ أحتاج أن أتكلم ولا أستطيع . روحي راح تطلع . . روحي توجعني .

بين البيوت سرنا لأول مرة باتجاه المقبرة وأنا لا أجد سبباً لماذا لا تستطيع أمي زينب النهوض من مكانها والمشي على قدميها كما نفعل نحن؟ . . أو على الأقل أن تعدل نومتها وتنقلب من جنب لآخر لتسحب ضفيرتها التي أصبحت خلف ظهرها بالغلط؟ . . صحيح أنها لم تَعُد تتنفس أو تتحرك بعد اليوم السابع للعملية ، ولا أن تضحك أو تبكي . . أو تجلس في الشمس . . ولكنها تملك رِجْلين وقدمين وأصابع . . وتستطيع أن تخرج من هذا الطين مثلما تخرج الدودة من الثمرة الميتة وهي ترقص . . وبعد أن تتمكن من الخروج لا تقرر العودة ثانية إلى قشرة معتمة بل تحلم بالنجاة . . وتزحف ببطء إلى ضوء النهار .

رأيتها تفعل ذلك قبل أيام ، وكانت بيضاء كالثلج ولها عينان

سوداوان تقعان على الجانب الآخر من جسمها ، وترقص فعلاً كلما أرادت المرور من مكان إلى آخر ، تدخل وتخرج من الظلمة إلى الضوء . . تتحرك بهدوء شديد ومن الممكن أنها تحلم مثلنا . . كل شيء ممكن يازينب . . ولا أستبعد أن النحل يحلم بنا . . والصراصر تكرهنا . . والبعوض يتسلى بنا وينتظرنا لكي ننام فيحوم حولنا ويبدأ بالقرص . . ألا يعني ذلك أن الأفكار تخطر على باله مثلنا تماماً؟ . . فإذن كل شيء ممكن يابيبي صبيحة . وأشكرك لأنك حاولت إنقاذي . . ألم تقولي لي قبل عشرين عاماً إن الأظافر والشعر يستمران في النمو بعد الموت ، يبدوان أطول قليلاً بعدما ينتهي كل شيء . . كان هذا قبل موت زينب . . وفي مرة أخرى بعد موتها قلت لي يجب أن نطفئ مروحة الهول لكي لا تعترض روح زينب التي تمكث أربعين يوماً في البيت . . من أين أحضرت كل هذه الخردة؟ انتظري . . أريد التحدث معك بعد زينب . . أيامك سعيدة بيبي صبيحة .

كان الرجل الجالس أعلى النخلة يرمي إلى الأرض أشياء صغيرة . . يرفع دشداشته البيضاء إلى أعلى وهو يعمل . . . .كأنه يرمي روحي بالحجارة والحديد والنار والماء والهواء . فماذا يفعل هناك؟ ولماذا يتكور أعلى النخلة التي تتساقط منها الشظايا إلى التراب فتتقافز حولها البلابل والعصافير ، ولا تقترب منها النسوة الواجمات حول القبور بلا دمعة ولا ضحكة ولا كتاب . . سمينات ونحيفات وحوامل وصغيرات وعجائز يجلسن بعيداً ؛ وهن يلمسن التراب بأظافرهن أو يعدلن الحجاب فوق رؤسهن . . أولاء يزرن المقبرة بانتظام ويعلمن مالا يعلمه غيرهن من الزائرين ، ولكن عندما يتعلق الأمر بزيارة الموتى أحمد عبد الوهاب أو ذنون يونس أو ليلوة عبد العظيم فإني لم أر أحداً يزورهم إلا

امرأة واحدة . . كانت موجودة في عيد الفطر ، وحالما اكتشفت وجودي قرب زينب ، أدركت أنها قد وصلت إلى المكان الصحيح فتذكرت دموعها الشحيحة ثم نسيتها بعد قليل . . الوحيدة التي انكتب عليها أن تبكي باستمرار هي بيبي صبيحة ، التي كانت تلفّ سكائرها الرفيعة من الصباح وحتى الغروب . تندب أولادها الصغار الذين أصبحوا مع الملائكة وتنوح على أمي زينب التي ماتت قبلها :

«راسي وجعني كومي شدّيه
وشَدّ الغريبة ما نفع بيه
يمه الولد يا محبس يميني والله يمه
هزيت مهدك ما لكَيتك
وبين النجم ما دوريتك
غريبات ميحنن علي والله يمه»

كلما فعلت بيبي صبيحة ذلك ، أخاف منها . . تخيفني أحشاؤها التي تتحرك تحت بطنها أثناء البكاء . . ويعصر قلبي دخان سيكارتها التي لا تفارقها . . رمادها على وشك السقوط فوق ظفيرتيها اللتين تتلويان فوق النافذة . . النافذة توجد قربها شجرة نارنج وحيدة . . شجرة النارنج فوقها بلبلان . . . البلبلان يطيران من شجرة النارنج إلى الدبابة . . . . الدبابة تتحرك فيغطي هديرها على تكتكات الساعة الرتيبة . . أصمت ولا أريد أن أتكلم مع أحد . . في الصباح أعتقد أن الحياة جميلة ، وفي منتصف النهار أعتقد أنها مملة . . وفي الليل تصبح فظيعة في ضوضائها قبل أن أنام . . .

المساء كان غير شكل المساء ، وأنا نعسانة يكاد يغلبني النوم ، ودفتر الإملاء مضموم في الحقيبة لأنه كان يوم الحساب . . وفي

امتحان الحساب تساعدني أمي في جدول الضرب ولا تكلّ من سماع الأرقام التي لا تحفظ منها شيئاً سوى جدول الرقم خمسة . أبي كان ينظر إليّ ملياً بتلك الطريقة التي أخاف منها . . وهذا يعني أنه سيقول شيئاً يخصني . . لا علاقة له بشطارتي في جدول الضرب أو بتلاوة درس النشيد ، ولكن له علاقة بشيء يلفّه في رأسه مثل سيكارة بيبي صبيحة . . . . . انتظرت أن يكف عن اللف لكي يتكلم ويتساقط فوقي الرماد . قال لي : إنْ لم تلبسي الحجاب لن أحبك كما أحب أخاك مصطفى . حالما جاء الظلام أسرعت بالوقوف قرب باب الغرفة قبل أن أنام ، فسمعته يقول لأمي أولاً بأني بيضاء وثانياً لأن عيوني خضر ولا يجوز أن أمشي في الشارع بدون حجاب . أمي لم تقل له :

– إنها صغيرة .

بل قالت له :

– أي نعم . . لم تعد صغيرة .

المرآة أخذت مني وردتي الوحيدة في الصباح وأعطتني ربطة بيضاء اللون تشبه فوطة بيبي صبيحة ، التي تتدلى من تحتها ضفيرتان رفيعتان . . . الوردة كانت برتقالية ، وتقف عليها فراشة فيها نقاط فضية اللون تلمع عندما ألتفت فجأة وأنظر إليها . أمي تسميها القراصة البرتقالية ، وبصعوبة كنت أفهم وقتئذ لماذا هي برتقالية وما علاقتها بالبرتقال ، مثلما كنت لا أفهم لماذا تسمي المنضدة ذات المرآة في غرفتها بميز التواليت . . . طلبتْ مني ذات يوم أن أجيء لها بفرشاة الشعر من هناك ، فذهبت إلى الحمام وبقيت أبحث هناك عن الفرشاة . . أليس التواليت في بيت صديقتي تبارك هو الحمام؟ فكيف تكون منضدة الزينة هي ميز التواليت كما أخبرتني أمي بعد ذلك؟ . .

جاء الآن دوري لكي تبحث لي هي عن ميز تواليت جديد اشتروه لي بمناسبة ارتداء الحجاب . أول ما رأيته في مرآة ذلك الميز ، هو القراصة البرتقالية التي اشترتها لي أمي من مكتبة الحصن لبيع القرطاسية واللوازم المدرسية . لم تعد موجودة في شعري وبدت من مكانها على ميز التواليت متكررة على شكل خط مستقيم من الفراشات ينعكس في عمق المرآة ذات الجناحين وإذا ما تحركَ جناح المرآة الأيمن فإنه يجعلني أبدو أنا أيضاً كصف طويل من البنات . . حاولتُ عد البنات ، فلم استطع لأن الصف كان يمتد إلى ما لانهاية .

مِيز العروس . . ذلك هو ما نظرتُ اليه قبل أن أخرج من الغرفة . . وعلى رحلتي في المدرسة نمت ذلك اليوم للمرة الأولى في حياتي . . نمت طوال درس الحساب . وعندما استيقظت كانت الربطة قد انزلقت من رأسي وتكومت على الأرض . استغربت كيف لم يوقظني أحد . . وأين كانت المعلمة تقف؟ ألم تلاحظ نومي على الرحلة؟ فكيف لم تنبهني وتوبخني على النوم داخل الصف؟ . . ولماذا نمت أصلاً وأنا التي تَبقى يدي مرفوعة طوال الدرس ، ويكاد إصبعي يفقأ عين المعلمة ليسبق باقي أصابع البنات الشاطرات؟ . . . شيء غريب حدث ذلك اليوم الذي نعست فيه ثم نمت ، لربما لم تتعرف عليّ المعلمة وأنا منكفئة على وجهي والربطة تغطي رأسي . . ربما ظنتني غائبة ذلك اليوم وظنت تلك الطالبة المنكفئة على الرحلة طالبة كسولة لا تستحق أن توقظها من النوم . بائع الفلافل أيضاً تصرف بشكل غريب وظل يتلفت وينظر إليها . . الجميع كان ينظر إلى تلك البنت النائمة . . خفت من سائق سيارة الشرطة ومن صاحب الدبابة وأبو الرشاشة ورجل البيكب الذي ينادي ويقول : غراض عتيقة للبيع . . كنتور عتيق للبيع . . صوبة عتيقة

للبيع . داهمني إحساس بالنعاس منذ الصباح حتى عودتي إلى البيت ، وعندما راح بائع الغاز يزمر بصوت عال للإعلان عن دخوله إلى الشارع خفت منه هو الآخر وأسرعت أمشي قرب الحائط . ظننت أنني أعترض طريقه أو أنّ ذلك الصوت العالي لبوق السيارة كان من أجل تنبيهي للخروج من الزقاق . صعدت على الرصيف فظل الصوت يعلو . . مشيت لصق الحائط وظل الصوت يعلو . . ولم أصدق نفسي عندما رأيت نفسي أخيراً قرب باب البيت .

تذكرت الحلم الأخير الذي حلمته قبل أن يقرع الجرس . . كم كان غريباً ذلك الحلم! . . الدنيا فيها تشبه ناصية الطريق ، والدخول إلى تلك الدنيا يكون عن طريق المفتاح الذي استدار في القفل قبل أن تفتح الباب . . كنت أنا أقف قريبة من الباب المقفلة . . خلع الرجل الربطة عن رأسي ، وراح يفك أزرار قميصي الأبيض ، ولكن الأزرار كانت كثيرة العدد ولم تكن لتنتهي كما تنتهي عادة ازرار أي قميص . . . رميت حقيبة المدرسة على الفراش وجلست أمام مرآة الميز الجديد فلم أعد أرى منذ ذلك اليوم سوى أزرار قميص لا تنتهي . . . . . .

الرجل الجالس في أعلى النخلة لا زال يرمي الكثير من الأشياء إلى الأرض ، والمطر لا زال يتساقط بنثيث خفيف يبلل أغصان الكالبتوس ، ولكنه يسكن في مكانه هناك ولا تسقط منه سوى قطرات ماء قليلة على الأرض . مر صبيان ينظفان القبور من الغبار والأشواك مذكرين الزوار بدفع العيديات . . أحدهما أبيض والآخر أقل بياضاً . بيد الصبي الأبيض معزقة وبيد الأسمر قنينة ماء . راح الأبيض يقطع شجرة صغيرة ربانية طلعت من تلقاء نفسها قرب أحد القبور ، وراح الأسمر يقرأ اسم خالي سليم الذي كان قد استشهد وعمره ثلاثة

وعشرين عاماً . . ينظر له ويقرأ عمره ورتبته مع القاطع والكتيبة ، حتى إذا وصل إلى خاتمة الشاهدة التي تقول إنه استشهد دفاعاً عن الوطن ، انفعل وأطلق صيحة كصيحة الديك وقت الفجر . . عيعيعوووووووو .

ماذا تفعلان؟ أنتما . . اذهبا من هنا . . ابتعدا عني . . هيا . . ضحك الاثنان وفرّا من أمام القبر ، ثم ركضا بأثر امرأة هبطت من سيارة بيضاء وعرضا عليها كنس القبر الذي تتوجه إليه وتنظيفه من الأوراق المتساقطة والغبار . . وماذا؟ قالت المرأة الطويلة جداً فأجابها أحدهم : ومن الطرطيع . .

مرت سيارة الأزبال . تركتني أمي وهبطت على عجل . . أبكي عندما تمر سيارة الأزبال وأنظر إليها . . لقد أخذت مني قراصتي البرتقالية في كيس أسود . لا أعرف بعد ذلك ماذا حل بها . تكسرت وشحب لونها ثم اختفت من ميز التواليت . . أصبح لها صوت أجش يشبه صوت ورقة نارنج يابسة وملمس خشن وجاف من تراكم الطوز القديم والجديد عليها . أبي كان قد جلب لي في يوم الحجاب كيساً مليئاً بالربطات الملونة ، وأمي جاءت لي بعلبة فيها قراصات أضعها بشعري تحت الحجاب أو بدونه عندما أكون داخل البيت فقط ، ولكن القراصة البرتقالية التي أحببتها هي الوحيدة التي جفت وأصبحت تئز مثل ورقة يابسة .

وجب عليّ منذ ذلك اليوم أن أكون نائمة أنتظر الرجل الذي سيقبلني ويوقظني من النوم . لم أكن أعرف ماهي القبلة وكيف تكون . . وكيف أميزها عن قبلة أمي أو أبي . في الليل جاءت الغزلان تتقافز حولي وهبط الرجل من فوق حصانه وفك أزرار قميصي ، وعرفت كيف تكون القبلة . إنها بلا صوت ، وأطول مما يجب ، وتترك دبيباً في

الجسم . . . . . لم لا تأتين معي أيتها النائمة . . سنتحرك بهدوء فلا يسمعنا أحد . .كم تبقى من الوقت . . انتظرني . . تعال . . ضحك الرجل قبل أن يقفل عائداً إلى قريته وقت الغروب آخذاً قميصي معه ، وبعد شروق الشمس جاءت أمي وسرّحت لي شعري دون أن تقول كلمة واحدة . . . لونها الأبيض قد تحول إلى الأصفر الشمعي ، وفي عينيها غواش خابط . . فهل هي أمي نفسها التي قالت عنها بيبي صبيحة إنها كانت جميلة ونحيلة القوام كالغزال ، وإن بياضها كان كعظم العاج ، وجمالها يفك المصلوب من حبل المشنقة . . أمي لم تشمخ ببياضها على سمراء واحدة ، وراحت تشحب وتطيل النوم في الفراش . . ثم تقول لي أشياء غريبة لا أدري من أين تأتي بها . . وكانت بيبي صبيحة تندبها قبل أن تنشف وتموت وبالمرة تندب حظها العاثر ، وتقول إن القدر قد ظلمها قبل ثلاثين عاماً على ذنب لم ترتكبه هي بل ارتكبه أخوها جبار . دخنت ثلاث سكائر دفعة واحدة وهي تقول إن جدي عبد السلام أحسن معاملتها ، بالرغم من أنها كانت فصلية ، ولكنه بعد أن مات مدهوساً بقلابية طابوق ، طلعت أمه وأخته قهر الله بنا . . كانت لهن قلوب أقسى من صخر الجلمود . . وجعلوا من أمك (زينب) وخالتك (زمان) تعملان في حظائر الأبقار . . الكبيرة كانت ذليلة فقيرة ، والصغيرة راحت تتمرد وتتعاند . . فأخذتهما مع أخوالك سعيد وسليم ورشيد وهربت عائدة إلى بغداد . .

بيبي صبيحة دائماً تنوح وقت الغروب لترثي ابنتها الراقدة في المستشفى التي تسميها بالخستخانة ، وأيضاً تندب أبناءها الصغار الذين جاؤوا إلى الدنيا قبل (زمان) و(زينب) ثم ماتوا بسبب الجوع والمرض وطاروا مع الملائكة . . في كل غروب تجهش في البكاء وهي

تعدد خصالهم الجميلة ، مرددةً الكثير من قصائد الشعر التي لا تنسى منها شيئاً أبداً . . . ولو أمتحنت بتلك القصائد ذات يوم لأخذت عشرة في الامتحان . . وفي الليل تجلس على سرير معدني في السطح وتسأل الدنيا . . ما هذه الدنيا؟ أنعل أبو هذه الدنيا . . ولكني لا أردد سؤالها هذا أمام أحد . . لأني عندما أتكلم مثل أي أي أحد آخر لساني لا يطاوعني ، وأكاد أن أبكي بعد كل مرة أتكلم فيها من شدة الندم . . ولكن فعلاً ما هذه الدنيا؟ أنعل أبو هذه الدنيا عندما يكون البيت خالياً من زينب . .

لم يسبق لي أن رأيت أمي على هذا الشكل من الاصفرار . . كانت مرتخية في فراشها ويدُها على الفراش تشبه يد دمية من المطاط . فمها ناشف ومجرور إلى أسفل ، وشعرها الرمادي الناعم أصبح دهني الملمس ، لأنه لم يُغسل منذ وقت طويل . لم نأخذ لها طعاماً ولا شراباً ، لأنها كانت تمتص طعامها من المغذي ، وكذلك لم نقم عندها طويلاً لأنها كانت تحتاج إلى النوم . . وعندما انقضت تلك الليلة وأطلق الديك أول صيحة له في الصباح كانت بيبي صبيحة قد عادت إلى البيت وهي تبكي . . قبل ذهابها للمستشفى ، جعلتني أداوم في المدرسة في صباح ذلك اليوم من أجل استلام الشهادة . وعندما عدت إلى البيت ، التمّ الجيران على بيتنا ، وسمعت أصواتاً غريبة تنطلق من أماكن مختلفة تحت الأرض ، ولم يسعني الوقت للتفكير أكثر من ذلك ، فقد جرفتني الدموع بعيداً عن الشارع الطويل الذي يربط مدرستي بالبيت ، واختفت رؤوس النساء تحت سيل الدموع . . وبعد لحظات اختفت الأيادي الممدودة أيضاً . . ارتفع رأسي من الكهف ، فتمسّكتْ بيَ بيبي صبيحة ووضعتني تحت ذقنها الموشوم بدقة زرقاء تلمع في الشمس .

القرط الذي صاغته لي من الذهب عندما نجحت من السادس في البكالوريا ، تقول لي اليوم انزعيه اليوم والبسي الأسود لأننا لن نذهب للخستخانة بعد اليوم . . . أمك قد ماتت . زينب المظلومة ماتت . . الطيور هبطت فوراً لتأكل من جلدة رأسها . . وبعد الطيور جاءت الديدان لتسبح في ماء بطنها . . وكان الرجل الجالس فوق النخلة لا زال يغني . . . . . إنه في الأعلى . . هناك . . يغني وأنا أتذكر .

تساقط بعض ماء المطر الذي كان قد تجمع فوق السعفة . . وبعد القطرة العشرين عاد الولدان الأبيض والأسمر للمكان وقال أحدهما للآخر أنا أقوى منك . . ولست حافياً مثلك . . ثم جاءت الكلبة المتسخة فلاحقاها بالحجارة وهي تركض . . هاربةً من الاثنين دون أن تستطيع الفرار بعيداً . . أولاً لأنها عرجاء . . وثانياً لأن الحافي كان سريعاً في الوصول إليها والتمكن من بطنها بحجارة أخطأت رأسها . . ماذا تفعل؟ أمجنون أنت؟ اتركها وشأنها . . ألا ترى أنها مرضعٌ . . قهقهات . . بدون توقف . . وضرب بالأيادي على القبور من شدة الضحك . هيا اذهبا من هنا وابتعدا عن المكان . . في قديم قديم الزمان . . ماتت كلبة الشارع في الشارع متكومة على نفسها . هامدة تتنفس ببطء وقد التمّ النمل على عينيها المغمضتين . . حدث ذلك عندما كان الجني يدخل بيتنا ويحملني من الأرض ويضعني في حضنه ثم يرميني إلى الهواء . . . خالي سليم هو ذلك الجندي الذي كنت أسميه بالجني ، وكان يذهب إلى الحرب مرة كل شهر ، وفي نهاية الحرب ذهب ولم يعد . قالت لي ماما إنك كنت في الصف الأول عندما دخلت القذيفة إلى بطنه فأكلت ساقه الأسماك ، وأكلت معه صديقه غالب الذي غرق في النهر وكان فيه الكثير من السمك أيضاً .

أيامك سعيدة خالي سليم . . هل قلت ماما؟ أمي كانت حية عندما حدث ذلك وسمعتها تقول وهي جالسة في العزاء إنك ستتزوج حورية في الجنة ، ثم جاء الليل فحلمت بأن ساقك أصبحت طويلة جداً وبأنها تخرج من كل شيء . . تخرج من النهر ومن القبر ومن سطح البيت أيضاً . وعندما وقفت فجأة قرب باب البيت ، أردنا أن نسلم عليك ، ولكننا لم نعرف كيف نصل إليك وأنت بهذا الطول ، فقال أبي هاتوا سلماً حتى نصل إليه ، وقالت أمي اجلس على الأرض حتى نراك ، وأنا قلت لك خذني معك إلى فوق . . أريد أن تحملني إلى أعلى . . وحملتني إلى أعلى وهناك صفقت وضحكت ولكني لم أر حورية الجنة ياخالي .

ينتهي الحلم بجوراب أسود . عليه نقش مطرز يغطي الشامة السوداء قرب الإصبع الصغير الذي لدغته العقرب ذات يوم . . والقدم البيضاء هي السبب . كل ذلك يجب أن يغطى عندما تذهب أمي إلى الضريح . . . لا تمحو رائحتها من أنفي سوى رائحة الضريح التي تشبه رائحة القبر الآن . . . قبل الذهاب إلى هناك كنت أنتظرها على حافة الطرمة التي تفصل صبة الباب عن أرض صغيرة فيها شجرة نارنج وحيدة تجاور سياج البيت . . ولم تكن قدماي تستطيعان ملامسة الأرض البعيدة ، حتى وإن ارتديت الحذاء الأبيض ذا النعل السميك أو مططت رجلي إلى أقصى المسافة الواقعة بين الأرض والصبة . . لا أتذكر أول مرة لامست فيها قدمي الأرض ، ولكني أتذكر أول مرة دخل الخروف إلى بيتنا الملئ بالذباب . . علي أن أعرف ماهذا الحيوان . . إنه يبكي . . تعال . . تعال . . تعال . . هششششششش . . لا تخف تعال . تعال . . فنظر إلي لزمن طويل وأنا في جلوس مستمر . .

من الثالث الابتدائي حتى السادس الابتدائي . . . كتابي في يدي ورجلي تزداد طولاً . . . أراقبه مربوطاً بالحبل إلى جذع النخلة ويأكل باستمرار . . أحياناً يبرك على الأرض ويضع رأسه بين قائمتيه وهو يبكي ، ولكنه كان يقفز ويفز فور أن يراني . . تتعثر رجله بالحبل المرتخي قبل أن يستوي واقفاً . . هل يرحب بي أم يريد ماء؟ . . هل يفكر ويحلم ويحزن مثلما يأكل ويشرب وينام؟ . . أجرب أن أختبره حول ذلك ، فأقف فجأة . . يكش صوفه قليلاً كما لو أن جسمه يقشعر . . أرجع فأجلس على الطرمة فيخفض رأسه المرفوع ويعود الذباب إلى مكانه حول عينيه الدامعتين . . أصرخ في وجهه فينظر إلي ببرود وكأنه لا يأبه بي ولا يهابني ولا يعرف ماذا أريد . . وبدون أن أفك حبله أركض فيتبعني قليلاً ولا يصل إلى المكان الصحيح أبداً ، لأنه يتوقف فجأة عندما يصبح الحبل مشدوداً ، حتى وإن كان ينوي الابتعاد . . إذن الحبل هو السبب . . يجب أن أفك حبل هذا المسكين لكي أعرف هل تتصرف الماشية مثل البشر؟ . . أو هل تشاور عقلها أحياناً؟ أو تحب أحداً ما . . وما كنت أتوقع مثل هذه النتيجة عندما اقتربت منه واكتشفت أن الانشوطة واسعة ويمكنه إخراج رأسه منها لو أراد ، ولكن كيف يفعل ذلك وهو من ذوات الأربع . . رجلاه ويداه في الأرض؟ يحتاج إلى مساعدة أحد بالتأكيد . . غرزت أصابعي في الصوف وأمسكت به من الذؤابات البنية الموجودة حول عنقه ورفعت الحبل عن رأسه ووقفت أنظر إليه . . ابتسمت له للتعبير عن الصنيع الذي فعلته للتو . . ولكنه لم يبتسم ، بل نظر إلي للحظة واحدة فقط ثم انطلق بعدها يركض خلفي إلى داخل البيت حتى وصلت السلم وأنا أصرخ . حاول صعوده فتزحلقت حوافره عليه بصوت مسموع ، وظل

يتزحلق على الدرجة الأولى مرات عدة قبل أن يستوي واقفاً وهو يصيح خلفي في الطابق السفلي . . لم أتوقعه سريعاً إلى هذا الحد . . وواصلت صراخي خوفاً من صعوده خلفي على الدرج ، وبعد قليل رميت الحبل من يدي وجاءت أمي لتعيده إلى مكانه . . بعد أيام كنت واقفة أصلي فرأيت من الشباك رأسه محزوزاً من العنق ودمه مختلط بذؤابات الصوف البنية ومرمي فوق مكان جلوسي في الطرمة . بقيت أبكي طوال العيد ، ولم أستطع أن أجلس في ذلك المكان بعد ذلك أبداً ، ولا أن آكل اللحم إلا بعد فترة طويلة . كان فخذه يواجهني كلما فتحت باب المجمدة . . عرقوبه إلى أعلى خارجاً من كيس أصفر مكتوب عليه (أهلاً وسهلاً) . . فأين هو الآن؟

كنا نعبر الحي مشياً من أجل الوصول إلى الشط . . وكان علينا عبور النهر أيضاً من أجل الوصول إلى الضريح ، وعندما نصل بابه تنصحني أمي بالسلام عليه ثم خلع حذائي عند رجل يلتقطها بعصا طويلة جداً ويضعها على الرف . خمسة وعشرون على الأرض . . وبابوج أمي مقلوب في كل المرات قبل أن يرفعه الكشوان بعصاه . . فهيا تحركي . . لماذا توقفت؟ ما أصعب تعديل الأحذية التي فوق الرفوف ثم عدها . . تسحبني أمي كل مرة ونروح نمشي على الأرض الباردة اللزجة للحضرة باتجاه القفص الذي تنبعث منه رائحة ماء قديم . . هناك شممت بخار الموت لأول مرة ، وهناك جربت شعور الخوف الكبير لأول مرة . كنت نحيفة كالعصفور وحولي رجال أقوياء قد يقتلونني في أي لحظة . . بعضهم يقف أمام قدور ضخمة يغلي فيها الحساء ، وأخشى الاقتراب كثيراً منها لئلا أسقط فيها كما سقط الخروف في قدر خالتي زمان . (زمان) كانت تتذوق حساءه بين الحين والآخر وهي تخوط القدر

بمغرفة كبيرة تشبه الرفش . هل يعقل أن هذه هي نفسها المرأة التي تقول بيبي صبيحة إنها تمردت عند المراهقة وذهبت للرقص في فرقة قمر خانم؟ حدث ذلك بعدما جاءت إلى بغداد ومعها أخوالي الصغار وأمي زينب وخالتي زمان ، فلم تجد قوتاً لهم لأيام طويلة بحثت فيها بين المزابل حتى وصلت إلى بيت اليهودية راشيل . .

حكاية من زمن السبعينيات روتها لي بيبي صبيحة وكادت أن تنتهي نهاية سعيدة ، لولا أن اعترضت أمك زينب ، كما تقول ، على عمل زمان في فرقة للرقص الشعبي ، وثارت على تلك الفكرة المخزية التي قالت إنها تحط من قدرنا ، فلم يغادرنا الجوع إلا بعد أن هدنا النحول . يا ابنتي . . فيها صالح كما تقول أمك زينب . لأن مدير فرقة الرشيد للفنون الشعبية توسط لدى المدير العام لكي يعين خالك سعيد عاملاً من عمال الإضاءة . . معظم عمال الإضاءة كانوا من الواسطات . . وبعضهم كان أمياً ، لكن سعيد السبع سرعان ما أصبح لا غنى عنه وعن خدماته حتى في أيام العطل والاحتفالات الوطنية والجماهيرية . . فقد تعلّم العزف على آلة الناي في أوقات الفراغ ، وراح يدندن أيضاً على آلتي العود والكيتار ما بين البروفة والأخرى . . وكان يستطيع رفع الأذان في بعض المسرحيات التي تتطلب ذلك ، أو ينادي على ضيوف الملك بملء صوته الجهوري الذي يماثل صوت عز الدين طابو . . وبفضل جارنا الذي كان عضواً في الفرقة القومية ، واسمه صالح ، كان يساعد في بعض أعمال النجارة لديكورات الفرقة ، فكان ينقل لنا ما يحدث في قاعة الخلد أو المسرح الوطني .

قال لنا إن الفنانة أمل طه كانت لا تحضر البروفات إلا ومعها قدور الدولمة وسفطات الخبز ، وإن فيروز عندما غنت في قاعة الخلد ، طلبت

رفع صورة أحمد حسن البكر من خلفها . . تخيّلوا أن زوجها عاصي كان يصرخ بها ويعنّفها خلال البروفات . . هذا شيء لا يُصدّق . . وخالتك زمان كانت تريد الذهاب إلى الحفلة ، ولكن سعر البطاقة كان خمسة دنانير . . يعني مصروف شهر كامل . فلم تستطع المسكينة الذهاب . وبعد فوات الأوان ، حصلت على مثل هذا المبلغ هدية من خالك سعيد عندما سافرت فرقة (أبناء دجلة) للموشحات الأندلسية ؛ لتسجيل أغان لإذاعة دولة الكويت ، فأخذوا خالك معهم كواحد من الكورس المرافق لجعفر حسن ، أول مطرب عراقي يلحن ويغني للأطفال . ثم شارك في غناء أوبريت (عزيزة الكاع) لبرنامج (صوت الفلاح) ، وتمثيل أوبريت (بيادر خير) مع فؤاد سالم . وعندما خصصوا ميزانية فخمة لفيلم (المسألة الكبرى) ، الذي أخرجه محمد شكري جميل ، كان خالك سعيد يمثل ضمن المجاميع التي تقدمت المنازلة مع غازي التكريتي ضد الإنكليز ، كما رمى أكثر من رمانة يدوية في فلم (الحدود الملتهبة) . . إلى أن طال أمد الحرب فأوفدته الدائرة مع الفرقة إلى لبنان لحضور مهرجان الشباب العربي في بيروت ، فعبر الحدود من هناك مع أحد المهربين إلى اليونان ، ومن اليونان ذهب بالقارب إلى تركيا ، وانتظر هناك بضع سنوات لحين هجرته إلى كندا . . بينما خالك سليم سار في طريق الحرب ولم يعد . . .

نار لا تنطفئ ، وحولها الكثير من النسوة والأطفال . . والطيور أيضاً . . طريق طويلة لا يقطعها سوى النهر الوحيد الذي أنظر اليه من خلال شبكة إبريز سور الجسر ؛ فأرى القارب يمشي لأول مرة ، والصياد يصيد لأول مرة ، والأولاد يسبحون لأول مرة . . الجزرة الوسطية للنهر ذهبنا إليها في الربيع ، ولكن القارب لم يكفِ الجميع فأخذوا مصطفى

وتركوني أعود إلى البيت . . نظرت إلى القارب وما صعدت إليه . . قالوا لي عودي إلى بيت بيبي صبيحة وانتظرينا هناك . . وأخذوا معهم في القارب أخي مصطفى وقدر الدولمة وترمس الشاي . من القارب توجهت إلى الشاطئ ، وحالما لمسته قدمي تدفقت أمواجه وغمرت تنورتي الطويلة . أخذت تلك الأمواج ترتفع أكثر وأكثر حتى غمرت ركبتي . شعرت بالخوف من أن يبتلعني الماء . وقفت في مكاني لا أتحرك . . هكذا . . أنا تراودني الرغبة بالموت كلما شعرت بالانكسار . المرة الثانية التي حاولت فيها الانتحار كانت بعد سنوات من حادثة القارب ، وبعد ساعات من خطبة تارا أخت تبارك . وضعت تبارك الكحل في عيني وقالت إنها ستجرها للنجوم البعيدة ، وعندما عدت إلى البيت انتبهت أمي على هذه المصيبة وجاءت بفوطة بيضاء مسحت بها عيني ، ولما رأت الأثر الأسود عليها ضربتني ببابجوها ، فبلعت شريطاً من الحبوب فيه اثنتا عشرة حبة ، وغسلوا لي معدتي وظنوا أني حامل .

استمر النهر يغمرني حتى بلغ خصري . رفعت حقيبتي فوق صدري ، واستمر النهر يغمرني حتى وصل صدري . وضعت حقيبتي فوق رأسي . جاءت آلاء وصاحت بي : تعالي ياسمين . . تعالي تعالي . . عابت شكلك . . أين أنت؟ وماذا تفعلين؟ ثم جرتني إليها فأخذ الماء يدب على جسمي ويدغدغني وكدت أغرق ، لولا أن ساعدتني آلاء في الخروج إلى إليابسة ؛ لأنها كانت تجيد العوم . بيت بيبي صبيحة كان قريباً من النهر . . جففت ملابسي هناك وسألت بيبي صبيحة أن تعطيني دينارين فأعطتني ديناراً واحداً يكفي لشراء قنينة بيبسي كولا . جعل الدينار بكائي يزداد ، ووصفتُ لبيبي صبيحة ما حدث من أمي زينب في الزورق ؛ فواستني بالقول إنهم فعلوا ذلك

لأن مصطفى هو الرجل وليس أنت . . صحيح أنه صغير ولكنه هو الذي سيمنع أباك من اللغو والغضب بعد العودة من تلك الرحلة . قلت لها ولكنه أصغر مني وهو في العاشرة ، فكيف يكون رجلاً؟ فقالت لسنا نحن بأفضل من الملك غازي أيام الملوك . . فعندما علم الملك غازي بأن زوجته الملكة عالية حامل مازح الطبيب قائلاً إذا كان المولود الأول ولداً فسأكافئك بسيارة ، وإذا كان بنتاً فسوف أتخلص منك . . وبر الملك بوعده وأهدى الدكتور سندرسن سيارة في اليوم التالي لولادة الملك فيصل . . أما بيبي صبيحة فلم تعطني سوى دينار واحد يكفي لشراء قنينة بيبسي أو خمسة سمسميات وشريط قمر الدين . . معها دائماً الكثير من الخردة تحفظها في صرة بجيب دشداشتها ، وذلك لأنها تفعل أشياء مخجلة في بيتها . . تأتي النساء إليها فتحف لهن الشعر من كل مكان ، وأحياناً تتعرى العرائس أمامها لتقلع بالشيرة شعرهن الزائد من الظهر إلى البطن وحتى أعلى الأرجل . . كانت أيضاً تسحب الأطفال من بطونهن بعد أشهر عدة . . وتبيع الخبز الذي تخبزه للناس من الصبح وحتى الظهيرة . أنا لا أتذوقه إلا عندما أكون جوعانة جداً ؛ لأني وجدت صرصراً يابساً فوق صينية الخبز ذات يوم ، وعندما أخبرتها بذلك لم ترم قرص الخبز إلى الزبالة كما أخبرتني ، بل أعادته إلى مكانه وباعته مع سفطة الخبز لأحد المشترين . كان لديها تلال من الحطب موضوعة بمحاذاة جدار الحديقة الجرداء كنت أعتقد أنها لن تتمكن من حرقها كلها إلا في عدة أعوام ، ولكن بعد شهور يكون الحطب كله قد احترق في التنور ولا تتبقى منه سوى بضع كربات على زاوية بين الحائط والأرض ، مما يعني أنها ستشتري تلاً جديداً من الحطب تضعه بمحاذاة الجدار . . معجانة الخبز التي تنقعها بعد أن

يتيبس عليها العجين هي نفسها التي تغسل بها ملابسها الوسخة . . تقول إنها تغلَيها بعد كل استعمال . . وكلما تراني تبعثني إلى البقال لأجلب لها الملح أو السكر أو الخميرة . كنت أكرهه جداً لأنه يمسك يدي بقوة أثناء دفع النقود .

إنها غلطة أمي . . كرهتها لأول مرة . . ورجعت إلى البيت أبكي وأحمل ديناراً واحداً . ثم فرحت لأن الشمس اختفت وأخذت الدنيا تمطر عليها وعلى مصطفى في القارب . . صحيح أنها محترمة ولا تقوم بأعمال مخجلة مثل بيبي صبيحة وخالتي زمان ، ولكنها طردتني من قاربها الأبيض لأجد القمر الدين قد نفد ، واللقم الوردي كله مغطى بالذباب . . . لا يوجد سوى الذباب الملتصق باللقم ، فعافته نفسي . . ومن الأفضل ، كما تقول لنا معلمة الدين ، أن نلفه بورق سميك لكي لا يقف عليه الذباب . . مثلنا نحن البنات الحلوات . . يجب أيضاً ، كما تقول ، لفنا بالحجاب لكي لا يقف علينا الذباب . . اشتريت العلكة والجكليت بدلاً من اللقم ، ووقفت أسفل الدكة التي يوجد عليها المحل وأنا أقارب رجلي بقوة بسبب حسرة البول ، وظل شاكر البقال يريد الامساك بيدي بالرغم من أنني كنت قد وضعت الربطة على رأسي ، فجاءت صديقتي آلاء التي أنقذتني من الغرق واصطحبتني معها إلى البيت . . وقالت . . هيا بنا .

لا أتذكر آلاء إلا ومعها النار . . لا يوجد سوى صوت الصراخ في بيت آلاء . . لا يوجد سوى النار . . آلاء تدخل إلى النار وتحترق ثيابها . . بدون أن يطفئها أحد . . نار ونار ونار تضطرم حولها وحول أشجار الشبوي التي تتضوع بعطر طيب في المساء . فأشعر بخوف شديد من رائحة الشبوي ؛ لأنها تذكرني بالنار التي احترقت فيها آلاء . شب

الحـريق في البـيت ولم يحـتـرق أحـد سـوى آلاء . . . . . الليل هو السبب . . . . والوقت تأخر . . نهضت آلاء إلى النافذة لتفتحها ، ثم ذهبت إلى الحديقة وسارت عبر الممر الطويل المفضي إلى الفراغ . . كان يفضي إلى المطبخ المؤدي إلى الحديقة الخلفية التي ذهبت إليها آلاء ، لكنّ الوارثين قسموه إلى ثلاثة بيوت صغيرة ، كل واحد منها يفصله عن الآخر ممر كهذا الممر الذي يشبه الساقية . استيقظت من الحلم على صوت الماء يجري من حنفية عاطلة في غرفة الحمام فاستعصى عليّ النوم ، وبقيت أتجول في البيت إلى أن وصلت إلى نهاية الممر فوجدته مفتوحاً ، وعندما دخلت إليه نظرت من المنور فوجدت آلاء وقد احترقت بصوبة ملتهبة وحرقت ملابسها . لم تعد الحديقة الخلفية تبدو من نافذة مطبخنا الخلفي كما كانت عليه ، لأن أمها علّت جدار الحديقة منذ أعوام . . يبدو البيت مهجوراً بعد أن مات أبوها ولم تبق سوى صورة مشتعلة لجارتي آلاء ، التي كانت جميلة ونحيفة كالسنبلة . النار التهمت شعر السنبلة ، ورائحة الشبوي هي ما بقي منها . . خطية . . كانت تضحك علينا كلما لعبنا لعبة الخرز التي كنا نطمها في الحفرة ونتلفت خوفاً من الطنطل . صنع لنا الطنطل الذي يختبئ في الخرابة ظلالاً في كل مكان ، ووضع حجارة كبيرة أغلق بها مدخل البيت ، فكنا نخاف أن يجرنا من ظفائرنا . . وذات يوم ظهر مع زوجته وهما يكنسان الدرب في الليل بعد رعد وبرق . . كان شعر زوجته طويلاً ويصل إلى قدميها . . ركضنا بكل قوتنا لحين وصولنا باب البيت ، فكانت أمي بانتظاري وعنفتني كثيراً لتأخري في اللعب خارج البيت .

في قعر الحفرة تتجمع الخرزات . . أتذكر واحدة أكبر من ثلاثين خرزة . . وآلاء قالت إنها قد أخرجتها من قلادة عظم عاج وجدتها

مرمية قربَ سياج بيت أم نبيلة المخبلة التي ماتت قبل ذلك بأيام . خطية نبيلة أصبحت تسير في الشارع بلا أم ولا حذاء ، وتردد أغنية واحدة تشبه النشيد تقول : مروا علية الحلوين وعذبوني . . . بنظرة تهيم الروح بيها رموني . . أغنية لم أكن أسمعها من الراديو ولكني حفظتها من نبيلة المخبلة أم الخرق . . تقول عنها آلاء إنها مجنونة لأن أمها ولدتها في طائرة عندما ذهبت إلى مصر لزيارة أبيها الهارب من العراق . . انهزم راكضاً حتى وصل إلى مصر ؛ فذهب وجلس هناك في الصالون على طقم مذهب يشبه طقم الفلم العربي الذي تحبه بيبي صبيحة واسمه خان الخليلي . . في رمضان كانت نبيلة تمضغ العلكة في الشارع وأنا أيضاً كنت أفطر بدون حس أهلي . . . بدأت أمي تنصحني بأن أكون مضمومة . . لأني أصبحت حائضاً . . وبيبي صبيحة أعطتني خرقة كبيرة لكي أضعها داخل سروالي بعد أن تلوثت دشداشتي بالدم . . قالت لي إني قد بلغت وأصبحت امرأة مثل باقي النساء البالغات ، ومن الآن فصاعداً يجب أن آخذ حذري أكثر وأكثر من الكلاب التي ستحوم حولي . . وقالت : كوني قوية مثلي ياياسمين ولا تظهري بمظهر الضعيف أبداً لأن القوي لن يكون قوياً إلا بوجود من هو أضعف منه . فكرة جيدة يابيبي صبيحة ولكنها ليست لياسمين .

أصبحتُ عندما أمر من الشارع أنظر إليها . . يركل الأولاد بعضهم بعضاً ويتصايحون ويتضاحكون وهم يصرخون بأصوات غريبة تجعلني أهلع وأمشي لصق الحائط . . ضعيفة وخائفة ولا قدرة لي على أن أجعلهم يكفون عن الصراخ . فكيف أكون قوية ، يا بيبي صبيحة ، وقد ورثت كل هذا الخجل من أمي؟ . . أحيانا ينظرون إلي بغباء كما تفعل البهائم ، أو كما يفعل هذا الولد الأسمر الذي يدور في المقبرة منذ

الصباح الباكر ويصرخ بأقبح الأصوات . تقول لي أمي قولي باسم الله عند الخطر ، وأقول بسم الله دون أن أسمع نفسي أقولها بسبب الطنين الذي يتردد في أذني من شدة الخوف . . . اسم الله هو الله . . . أتخيله على شكل الاسم الموضوع فوق قبة الضريح . . وأخاف أن أفكر به قبل النوم لئلا أخطئ في فكرة من الأفكار ؛ فأراه معنا في مكان ما من المدرسة أو البيت . . وعندما أصلّي أيضاً لا أفكر فيه . . أفكر في كل شيء إلا به . . . أفكر في واجب الحساب وفي غسل الصحون وفي الأزرار التي لا تنتهي ، ولا أردد الآيات التي يجب قراءتها قبل النوم كما تطلب منا الست رفيعة معلمة الدين أن نفعل . . وكلما تأخرت في النوم زادت هذه الأفكار وتشعبت وأصبحت تقترب من العيب ولا أستطيع إخبار أحد بها . . إششششش . . أخاف أن ألمس يدي الساخنة التي تتورم من أثر الأبرة بالرغم من أنها تحكني بقوة . أما آلاء فلا تخاف من اللقاح الإجباري ولا تقول آخ أبداً . . إنها لا تصلي ولا تخاف من أي شيء ولا حتى من الطنطل أو من قلادة أم نبيلة الميتة . . وعندما كانت الممرضة تحدثنا عن لقاح السل الذي يعطي الجسم جراثيم ضعيفة أو ميتة ، لكي تحثَّ جهاز المناعة على مهاجمة الجراثيم لدى دخولها الجسم ، فإن آلاء كانت الوحيدة التي رفعت يدها وسألت الممرضة وهل يمكن زرق أبيها الذي عوقته الحرب بإبرة تعيد له قدرته على المشي؟ نظرت إلى يدها المرفوعة ثم نظرت إلى يدي .

أعطونا في المدرسة لقاح السل ، وبعد شهر واحد لقحونا بالحصبة والكوليرا والتيفوئيد ، وبعد عشر سنوات ، عندما زرقوني إبرة أخرى كذبوا علي وقالوا لي إنها من أجل لقاح آخر . . حدث ذلك بعد أن فحصوا دمنا أنا وأبي وأمي في المستشفى . . لأن دمها كان يتوسخ

بسبب ضمور كليتها الوحيدة ، فاحتاجوا لها بعض الدم النظيف وكلية جديدة أيضاً ، بواسطتها يتنظف الجسم من أوساخه . أخذونا إلى المستشفى وفحصونا نحن الثلاثة عدا أخي الصغير مصطفى . استغرق زرق الأبرة في يدي لحظة واحدة صعدت إلى رأسي كالدخان . . تذكرت عربة النفط ذات القرقعة الخشبية . . تمر قرب البيت يقودها الحصان . . الأطفال الذين يركل بعضهم بعضاً . . يقتربون منه ويقدمون له الحشيش اليابس المقتطع من الأرض . . يقربونه من فمه . أبو فالح ينهرهم . . يتضاحكون . . يهربون . . ثم يعودون مرة أخرى . . أبو فالح ركضت به العربة ورجلُه مليئة بالدم بسبب طلقة رصاص أصابته في فخذه ، فقالت أمي :

– مسكين . . هذا أشدخله لمنطقتنا .

مرآة الجندي

امتد وقوفي هناك سنوات طويلة ، بدأتْ بيوم الأربعين ولم تنتهِ لحد الآن . لم تكن المقبرة مأهولة إلى هذا الحد ، وليس فيها سوى أولئك الذين ماتوا بسبب الشيخوخة أو المقتولين في الحرب ، وبينهم اللواء مدحت شهاب الدين الذي استُشهد في حادث سقوط طيارته منذ العام ثلاثة وستين . . أي قبل ولادة أمي زينب بثلاثة أعوام . . ولذلك كان قبره قد تهدم ولم يتبقَّ منه سوى الشاهدة التي أقرأُ قربها الفاتحة كلما سنح لي الوقت بذلك . . لديه بعض البطولات في معارك عنيفة امَّحى تاريخها من الشاهدة ، ولكنها تتحدث عن يوم من أيام رمضان حدث في زمن بعيد . . وإذا كان ما تقوله بيبي صبيحة صحيحاً ، فإنه مدفون الآن بملابسه العسكرية لأن هذا ما حدث لخالي سليم الذي استشهد في الحرب . . وفي أحد الأيام عدت إلى المقبرة وحدي فانتبهت إلى وجود ثلاث نخلات باسقات تحولت بعض سعفاتها إلى حطب يابس يتدلى من طرفها الأعلى على شكل شناديخ طويلة . لحظتها لم أنتبه لوجود أي ثمر فيها ، ولكن اليوم ظهر الولدان الأبيض والأسمر وجلسا تحتها يلمّان التمر اليابس والكرب(*) بكيس

(*) الكرب : هو الجزء السفلي المتصل بالجذع من سعف النخلة الذي يبقى في الجذع بعد قطع السعف .

من الجنفاص ، وآخر من تلك الأكياس التي تستعمل لعبوات الرز الكبيرة . ولأن اليوم هو عيد الأضحى فسيظهر من بعيد مقرئ القرآن الأعمى يتجول بين القبور ، متمتماً بأن القرآن هو نور هذا الليل المظلم .

لا بد أنه يتجول الآن في مكان آخر ، وسيقترب مني بعد قليل ويقول لي عيد مبارك ، وربما يسألني أين أنتم من زمان؟ لماذا لم يعد أحد منكم يأتي إلى هنا؟ . . له في ذلك طريقة خاصة في السؤال . يحرك رأسه في الهواء ، ثم يخرج يده من جيب دشداشته ويمط فمه بحركة تشبه الابتسامة ، ثم يقول بعد قليل «مشكورة اختي وجزاك الله خيراً ووفقك الله دنيا وآخرة» . لم أكن أنوي الانقطاع عن قبر أمي زينب كل تلك المدة . . ولكن زياراتي تباعدت بعد أن أصبح الناس يتساقطون الواحد تلو الآخر على الطرقات ، وأصبحت المشاغل بعدد سنوات القصف التي بدأت ولم تنتهِ . . مرت السنة التي ركض فيها الحصان يجر صاحبه أبو فالح مجروحاً بإطلاقة نارية . . ومرت سنوات البيانو الذي تعلمت العزف عليه في بيت ماري . .

ماري تريدني أن أخلع الحجاب الذي لم أعتد خلعه قط أمام أحد قبل ذلك . . عدا أهلي . . ولكنننا أهلك ، تقول ماري ، ويجب أن تعتادي النظر إلينا ، لأنك ستعيشين بيننا كل يوم . ماهذا؟ هذا غير صحيح . . عليها أن تنتبه . . ولا يمكن لقليل من هذا الكلام إلا أن يجعلني أعيش الخوف والحيرة وسط حيرة وخوف أكبرين . طبعاً لم تكن هناك بعدها راحة شافية حتى عندما أجلس وحدي في غرفة مظلمة . . هنا . . هناك . . تعالي . . اجلسي . . أنا . . هنا . . أنا . . هناك . . أنت . .نحن . . هذه أمك . . هذا أبوك . . كلمات قلائل لا يمكنها أن تحولني من ياسمين محمد إلى ياسمين عبد الأحد . ماري

أفكارها واضحة عن كل شيء . . ترسم صورة للفكرة كما هي موجودة في رأسها لا كما يجب أن تكون . . وبينما تبحث هناك في الحديقة مع عبد الأحد كيف تنفذ تلك الفكرة وتجعلني أخلع الحجاب ، كنت في الغرفة المظلمة أتحدث إلى نفسي وأقول لها مهما كانت الصعاب جمة فقد انقضت تلك الصعاب وانتهى وقت السؤال ، وعليك التشبث بالحجاب هنا في بيت ماري الذي أصبح بيتي منذ سن الرشد . يشبه بيت صديقتي تبارك الهادئ الجميل الذي لا يتساقط قربه أحد من الجرحى ، ويسمعون فيه بكل شيء حزين من الأخبار فقط . . أسمت (أسامي) بيت ماري ببيت أوليفر ريد . ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى ذهبت إلى الكنيسة بالحجاب . . لا أمزح .

كان فيما مضى يتزحلق من رأسي فوق قميص المدرسة ثم صار ثقيلاً ونشازاً على رأسي ، وفي أي مكان أكون فيه مع صديقتي تبارك يسألونني لماذا ترتدين الحجاب وأنت صغيرة؟ . . وعندما أمرض يظل قربي على السرير لئلا يأتي واحد من أبناء عمومتي فجأةً وأنا لا ألبسه . لا بد أن أجده في كل مكان . . وأعثر عليه إذا ضاع . . أصبحت مختلفة عن غيري من البنات ، وكأني أضع علامة استفهام فوق رأسي أو أمتلك رائحة فظيعة خاصة بي . . ولكني منذ تلك اللحظة التي أصيبت فيها ببيبي صبيحة بالتهاب المفاصل وأضطررت إلى المبيت عندها من أجل قضاء مشاويرها وقت الحاجة ، وجدت نفسي ألبسه على الدوام بين ذهابي وأيابي بين بيتها والبقال ، بعد أن استمر مبيتي عندها طوال الأشهر الثلاثة لأول عطلة صيفية بعد الحجاب . . لم أداوم بعد تلك العطلة سوى يوم واحد بدون حجاب ؛ لأن بيبي صبيحة قالت لي إنها تجدني صغيرة على الحجاب . . يوم

واحد فقط من تسع سنوات لم أعرف أولها من آخرها . . يوم واحد فقط لامس الهواء الهاب وجهي وتغلغل بين خصلات شعري ، فخفتُ أن يراني أخي مصطفى ويميتني ركلاً وضرباً وضرباً . فهو ظل يتغيب عن المدرسة ويتجول في الطرقات لبيع أكياس الهيل الصغيرة إلى أن حدثت الحرب الثالثة بعد تلك السنوات التسع ، فانتهى زمان وبدأ زمان آخر زارنا فيه الجندي الأمريكي الذي حك مكان القرط في أذنه ، وأصر على التجول في المدرسة التي انقطعنا عنها فترةً طويلة بسبب الحرب ، فما لبثتُ أن وجدت علامة الاستفهام تختفي من فوق رأسي بعد أشهر . . ويوماً بعد آخر وجدت الراحة في انتشاره على رؤوس البنات في مدرستنا . . انتهى الوقت الذي أصبحتْ فيه علامات الاستفهام تنكتب فقط فوق رؤوس الفقراء والمساكين ، وبقليل من الحرية التي عن على بالنا أن تأتي بعد نهاية الخوف ، لم أخلعه أنا بل لبسَتْه حتى أم تبارك ، وابنة الدكتور جميل طبيب المفاصل ، وطيبة ابنة المديرة أيضاً . تمهلا . . توقفا . . أين عثرتما على هذه الربطة . . إنها لي وقد طيرها الهواء العالي قبل قليل .

لو كانت آلاء موجودة لرقصت وغنت لوجود كل تلك الألعاب الجديدة التي جاءنا بها الجندي الأمريكي ، والتي لا تعود للموتى كقلادة أم نبيلة ، ولكن كيف تكون موجودة وقد احترقت على السلم منذ سنين مشتعلة من القاع للأعلى ، وصديقتي الأخرى تبارك هي التي رفعت يدها إلى الأعلى وتحدثت مع الجندي الأمريكي وقالت له إنها تعرف أغاني فرقة أمريكية لفظت اسمها بالإنكليزي ، فامتلأ الأمريكي دهشة لهذا الخبر المثير ، وبدا بكل عدته وملابسه الثقيلة مستعداً للتخفي خلف ابتسامة عريضة من أجل التخفيف عن معاناتنا

كما قال . نظرت إلى يد تبارك طويلاً ثم إلى يدي . . . وعندما صفقنا له ونحن نضحك من شدة الانفعال ، جاءنا جندي أمريكي آخر بيده ألعاب كثيرة وهدايا أشكالاً وألواناً . . كانت الألعاب عبارة عن كرتونات مغلقة مرسوم عليها كومبيوترات صغيرة الحجم مهداة من الجيش إلى المدرسة . ظلت منطبقة على نفسها في غرفة المعاونة ثم اختفت في مسابقة أقامتها المدرسة عن أسماء الخلفاء الراشدين فازت فيها طيبة ابنة المديرة ومجموعة من بنات المدرسات . أعتقد بأني وجدت شيئاً هنا . . هناك عقرب قرب قنينة الماء .

طلبت منا المدرسة ، بعد أن خرج الجنود ، أن نروي قصة عن الأمريكان ، وأن لا نخاف ونقول ما نريد عن الأمريكان . . قصة عن الأمريكان؟ ماذا نكتب؟ وتضحك البنات . . واحدة قالت إن بيت خالها احترق ولما أطفؤوا النيران اكتشفوا أن الشيء الوحيد الذي لم يحترق هو ورقة مئة دولار أمريكي . . ازداد الضحك . . ولكني لم أضحك لأني كنت أفكر ماذا أكتب وكيف أبدأ الموضوع أو كيف أنهيه؟ الممحاة تصغر لحظة بعد أخرى والقلم يقصر . . انتظرت حتى آخر الدرس . . في النهاية كتبت لها إن الأمريكي جاء والثقوب في أذنيه ليفتش بيتنا فأكله الذباب . جاء في الطريق الطويلة التي انتهت إلى صحراء مخيفة ، فمات من الجوع والعطش وأكله الذباب . تبارك عرفت أحسن مني وكتبت أن أمها قد دعت طاقم الدبابة إلى الغداء ، وأن أحدهم قد لاعب قطتها زوزو وسأل عن اسمها . . . كما طلبوا من تارا ، التي كانت طالبة في الكلية الطبية ، أن تعمل معهم في الترجمة ، فقبلت وفرحت وظلت تعمل معهم عدة أشهر ثم تركت العمل بعد أن جاءها تهديد بالقتل . .

حدث ذلك كله قبل أيام قليلة جداً من فحص الدم ، حينما طأطأت يدي لصق الحائط بوضع مريح ، فربطّتْها الممرضة برباط مطاطي شدّته على زندي بقوة ثم عقدته على شكل أذنين جعلتاني أشعر بضغط شديد في ساعدي وفراغ ينتفخ في رأسي . . . . نظفت الممرضة مكان الزرق بقطنة باردة منقوعة بالكحول ثم فردت يدي اليمنى بحيث تكون راحتها مبسوطة للأعلى . . ضربت بتربيتات متلاحقة قرب الرباط وطلبت مني إغلاق قبضة يدي بقوة لكي تحدد مكان الوريد . . ودون أن أنظر إليها شعرت بأنها تدخل سن الإبرة برفق في الوريد المنتفخ وتسحب مقبض الحقنة فيجري دمي إليها . . بقيتُ مغمضةَ العينين أفكر بساق سائق العربة المدماة إلى أن فكت الرباط وفتحت قبضتي ، فوجدت الحقنة قد امتلأت بالدم . شعرت بأن وجهي قد أصبح أصفر مثل النومية(*) ورجلي مرتخية مثل الخيوط ، ولكني استطعت النظر إلى الممرضة خطفاً فرأيتها وهي تفرغ الدم في أنبوبة صغيرة كتبتْ عليها اسمي فوق لاصقة طبية ، ووضعتها على مكان سحب العينة . استغرقت عملية أمي الليل بأكمله . وفي صالة الانتظار جلس أبي وحده يدخن . . بينما خرجتُ أنا من هناك ابنةَ رجلٍ آخر وأمٍّ أخرى ، والفاصلة بين الاثنتين كانت لحظة واحدة وقطرة دم واحدة ونغزة إبرة واحدة جعلتنا نحن الثلاثة ، بعد يوم واحد ، غرباء عن بعضنا البعض . لم يتفوه أبي بكلمة بعد يوم من فحص الدم ، وأصبحتْ أمي تنظر في وجهي كثيراً ثم تكثر من التقاط كيس البول فيطفر صرصر فاتح اللون من خلف الكيس ويسير بسرعة على حافة

(*) النومية : ليمون .

النافذة ، قبل أن يستدير ويختفي بين الأدراج مرة أخرى .

– تعالي يا ابنتي . . أين ذهبتِ؟

شممت رائحة شعر يحترق أو شيئاً من هذا القبيل . . قلت لأمي في الوقت نفسه الذي فكرت فيه بالرائحة :

– ماما . . ما هذه الرائحة ؟

قالت ، وكأنها لم تسمع السؤال :

– تعالي يا ابنتي .

وضعت أمي زينب كيس البول خارج اللحاف ، ثم مدت يدها إلى الظلام وقالت بحزن :

– هنا يا ابنتي . . تعالي .

احتضنتها فأصبحت بمواجهة النافذة . فقط أخرجيني من هنا . . كما تريدين يا أمي . . خلفها كان العالم يضيق أمام أنظاري وروحي تنعصر بين شهيق أمي وزفيرها . . دموعها بللت كتفي وشعري فقبلتُها في خدها ومسحتُ دموعها التي توقفتْ بعد صوت إطلاق ناري في الجوار . . تردد طنينه المتصل لحين دخول الممرضة ذات الوجه المتجهم . دخل معها لفح الظهيرة فشعرت بالراحة لذلك اللفح الحار الذي تخلل برودة الصالة . راحة طوحت ، بهبوبها العابر والدافئ ، كل الخوف والألم . وبعد سبعة أيام من العملية كانت أمي زينب قد ماتت وهي تدري بأنني لم أكن ابنتها .

مرآة الجدة

عندما طال غياب أبي في بحثه عن أمي الأخرى وأبي الآخر ، جاء من مستشفى الولادة وقال إن هناك بنتاً واحدة وُلِدتْ في اليوم الذي وُلدتُ أنا فيه ، وكان اسمها أيضاً ياسمين ، وإن علينا البحث عنها في الأحياء المسيحية من بغداد ، لأن ياسمين الأخرى ولدت لأم اسمها ماري . . الاسم واحد ومسقط الرأس واحد . . ولكن ياسمين الأخرى . . يعني أنا . . يعني ابنة ماري تلك ، التي خلطت ساعةَ قصفٍ بينها وبين إبنة زينب . . . ساعة سوداء جعلتني أذهب إلى حضن زينب وجعلتها تذهب إلى حضن ماري . . والآن يجب أن يبحث أحدنا عن الآخر لكي يتصحح الحال الذي نحن فيه . . ستحل ياسمين محلي وأحل أنا محلها . . الآن يجب ان أذهب إلى مكان آخر غير مكاني أهلك فيه من الخوف . . أن أمشي وأمشي وأمشي في طريق طويل وكئيب كالكابوس . . وأنام فيه أيضاً . . لم أتوقع يوماً ثانياً بعد ذلك اليوم . . كأنه أول يوم وآخر يوم في حياتي . . فكرت في الخروج من البيت والهروب في تلك الساعة المتأخرة من الليل . . الضوء مشتعل . . والكلاب تنبح . . والجنادب تنق . . ونقاط ماء الحمام تقطر . . وأنا أنام بجسدٍ من الإسفنج . وعندما يُفتح باب . . . أي باب . . أفز منه حتى لو كان بلا أزيز على الإطلاق . . حافية بملابس الخروج أحمل نعالي بيدي ، والليلُ الشاسع يتضوع بعطر قديم يشتعل

من شبوي الحدائق ، والكلاب تنبح والجنادب تنق . . ونقاط ماء الحمام تقطر . . . . فجأة أقف في الشارع حافية منكوشة الشعر وبملابس النوم ، نباح الكلاب اشتد من كل الجهات ، وصياح الديوك تعالى من كل مكان ، ثم هبت فجأة صيحة مذعورة غطت على كل الأصوات وتركتني أتسمر في مكاني :

- إنها تحترق

- هل هي أنت؟ . . آلاء؟

- هناك آلاء واحدة في العالم .

آلاء التي أحلم بها دائماً تحترق ، هي صديقتي التي كنت أثرثر معها طوال الطريق بين البيت والمدرسة . . بيتها كان يجاور بستانا مخيفاً يُدعى بستان أبو غايب يقع خلف الوشاش المقابل لدور السود ، وكانت خطواتي تصير أسرع من نبضات قلبي كلما مررت بذلك البستان ورأيت شظايا الزجاج المزروعة على حافات سياجه الطيني الشاهق . تحدثني آلاء ، وهي تضحك ، عن الطنطل الذي يسكنه فيه ويشبخ رجليه فوق الشارع فيتبعنا ظله الأبيض من طرف البستان حتى طرفه الآخر ، وما إن نجتازه بأمان ونرتاح من ألم الخوف حتى نلتقط أنفاسنا بامتنان لتلك المعجزة . . ونتذكر ذلك الرجل الذي رأيناه ذات يوم يفعل شيئاً مخجلاً قرب سياج البستان المخيف . . نبيلة المنغولية أيضاً كانت تتبعنا إلى مسافة طويلة بين البيت والمدرسة ، فنزجرها لتعود خوفاً عليها من الضياع بين الأزقة المتشابكة ، ولكننا كنا نعود في اليوم التالي لنجدها جالسة في المكان نفسه تنتظرنا فاغرة الفم وتبتسم . كانت لا تكتفي بالمشي خلفنا حتى التقاطع ، ولكنها كانت تتبعنا حتى البستان . . بستان أبو غايب .

في الحلم كـانت النار تبـدأ من السطح ثم تنتـهي إلى الأرض . تهبط آلاء سلالم بيتها والنار تلتهم ملابسها ، ثم تدور حول نفسها من شـدة الألم والهلع . تتجه إلي حالما تراني وكأنها كانت تنتظرني منذ اللحظة التي تحولت فيها إلى كتلة ملتهبة . أقف واجمة أنتظرها وكأن ليس لها غيري يخلصها من ذلك الألم . أشعر بالانزعاج لنسياني اسمها أكثر من انزعاجي لذلك الاشتعال المفاجئ . . ولكنها هذه المرة استجابت للاسم الذي ناديتها به . . وراحت تسير بقربي سليمة لا تحترق . تذكرت بعد ذلك اسمها . . أنت آلاء؟ فقالت :

– هناك آلاء واحدة في العالم .

وكعادتها في تمني كل شيء مختلف تقول :

– هنيئا لك لأنك اثنتان . .

خطية آلاء . . كانوا يريدون تغطية جسمها العاري لكي لا يراه أحد . . شاهدوا جسمها ولم يشاهدوا النار . . وفي نهاية الحلم سقط ضوء النيران المشتعلة فوق حفرة الخرز . . فرحنا وجلسنا نلعب تحت شجرة النبق المليئة بأحزمة متدلية وفردات أحذية قديمة وثمرات صغيرة يبست وانكمشت منذ وقت طويل . عادت آلاء سليمة من كل حرق في نهاية الحلم . . كل حلم . . وكان الضوء لا يزال مشتعلاً في غرفة النوم وأنا أقـرأ ﴿قل أعـوذ برب الفلق﴾ لكي أتخلص من تلك الكوابيس . . أقول لآلاء عابت شكلك . . نيالك لأنك واحدة فتقول نيالك لأنك اثنتان .

الكابوس الأكبر كان لا يزال جاثماً . . . لقد أصبحتُ اثنتين ، ولم أعد أنا ابنة أحد في هذا البيت . زينب لم تعد أمي ولا محمد أبي ولا مصطفى أخي . . لسنوات وأنا أتمنى ذلك ، ولطالما تردد ذلك الصوت

في رأسي في كل يوم كنت أتوجه فيه إلى بيت تبارك . . فهل استجابت لي السماء وتحققت الأمنية بهذه الطريقة الغريبة لأستيقظ على هذا الكابوس الأكبر . . أمي تموت وأبي يتزوج من اختها وتظهر لي عائلة حقيقية لديها بيت أجمل من بيت تبارك ، وفيه الكثير من المجلات والصور والنافورات والثريات والغرف . . ولكن كيف حدث أن تكون الولادة في المستشفى نفسها . هذا السؤال لم يطرأ على بالي إلا بعد أيام من اليوم الذي أخبرني فيه أبي بالحكاية . . قال لي إنني وياسمين أخرى قد ولدنا في مسقط رأس واحد . . وبينما كانت ماري تلدني في المستشفى كانت زينب تلد ياسمين الأخرى في صالة الولادة نفسها . . «ولا أدري كيف حدث الخلط بعد ذلك ، فالتفكير به صعب جداً وربما الإطلاقات النارية الكثيفة في نهاية غارة جوية جعل الارتباك يعم المستشفى الذي وقع في الفوضى . . ولكن بيبيتك صبيحة ، لعنها الله ، تقول إنها قد تسلمتك من الممرضة فور الولادة وبقيتْ معها حتى الخروج من المستشفى . . أما كيف؟ وماذا حدث قبل ذلك؟ فأنا حقاً لا أعلم» .

بيبي صبيحة لم تعد موجودة لتخبرني بما حدث ؛ لأنها كانت قد ماتت بسبب برتقالة واحدة ، وأبي لم أعتد أن أتحدث معه في أي شيء . . كنت أخجل من الحديث معه في أي شيء من قبل ، فكيف أتحدث معه الآن عن موضوع مثل هذا؟ . . كان علي أن أجد جواباً عن سؤالي بنفسي ، لأن ماري التي ولدتني بمستشفى الفرح الغالية لا تعرف كيف جاءت أمي زينب إلى هناك . . أيكون إطلاق النار هو السبب؟ . . أتكون صفارة إنذار مفاجئة قد رمت بهم إلى تلك المستشفى؟ أتكون علة أمي المزمنة؟ . . فهي لم تلد سوى اثنين بسبب

مرض كليتها ، وقد يكون نقلها إلى مستشفى غال لولادة طفلها البكر فيه قد تم لهذا السبب نفسه . . لربما تكون احتاجت لعناية خاصة أو جهاز ما ، فذهبت إلى هناك . . إلى المكان الخاطئ . . كل الذي قاله أبي ، وهو يندب حظنا التعس ، بأنه لم يكن من المفروض بزينب أن تذهب إلى هناك ولا أن تدع ابنتها تلبس شيئاً غير ملابسها ، حتى وإن كان قميصاً مترفاً جاء عن طريق المستشفى . . كعادته أنحى باللوم على زينب المسكينة وقال إن مثل هذه الأخطاء تحدث للفقراء فقط ، إذا كانوا قد ذهبوا إلى المكان الذي لا يخصّهم . . وتصرفوا بالطريقة التي لا تخصهم .

لو كانت بيبي صبيحة حية ترزق لسكنتُ عندها ، بعض الوقت على الأقل ، قبل الذهاب إلى بيت ماري ، ولكنها ماتت بسبب برتقالة . . حدث موتها بتدبير غريب من القدر وفيه كل العبر . في البداية انتبه البائع إليها وهي تعود إليه لتتأكد من الحساب وتقول له من بعيد إنه نسي أن يعيد لها ورقة منفردة من فئة مئة دينار هي الباقي من ألفي دينار دفعتها له لشراء كيلوين من البطاطا وكيلو واحد من البرتقال . التفتت بيبي صبيحة إليه ، بعد أن علا صوته بالصياح على بضاعته ، فرآها تفتح كيس البرتقال الأسود لتتأكد من عدد البرتقالات . يقول البائع إنها كانت في حالة شديدة من الذهول وهي تعبر الشارع إلى الضفة الأخرى ، ولكنها لم تصل إليها بعد ذلك ، لم تأخذ البرتقالة الناقصة ، ومضت إلى حتفها دون أن تأخذ منه باقي النقود .

دخلتُ البيت الآخر وأنا في سن السابعة عشرة . . أول ما سمعته كان أغنية لهيثم يوسف كأنما قصدتني بكلامها وهي تقول إن (الزمن

بعـده طويل . . بس مـو هاي النهـاية . . هاي هيـة البـداية) ، ورأيت الصـالون لأول مـرة في حـيـاتي . . . . ظهـر لي على شكـل درج يغـري بالصعود إلى ما أريد . . فيه عشرون دَرْجة تؤدي إلى فـراغ . . لو كان لي قلب قـوي لتـوسلت بهم أن يعـيـدونني إلى بيت زينب . . وصلت بأعجوبة إلى غرفتي في الطابق العلوي . . وهناك حزنت أكثر من حزني في أي مكان آخر . . ذهبتُ لأنام في جهة أخرى من العالم . . ولكنني لم أنم حـتى الصـبـاح . . . أصبح الفـراش الناعم أكـبـر مما ينبـغي . . وياسمين الأخرى معي أينما أكون ، وتشبه بيبي صبيحة بحق هذه المرة . . . ولولا الدقـة الزرقـاء ، لبـدت نسـخـة طبق الأصل منهـا . . لا أعرف . . . لا أعرف ماذا عليها أن تفعل . . كـانت مرتاحة لا تشعر بما أشـعـر بالـرغم من وجودها هي الأخـرى في المكان الخطأ ، فـقـد عرفت ذلك من طريقة نومـهـا على الوسـادة . . وسـادتهـا نفـسـهـا . . مـقـصـهـا ومقراضـتهـا ومشطهـا ومنضـدتها وأقـلامـها . . أما أنا فـعليّ أن آتي إلى الدنيـا من جـديد . . بدون شيء يذكـر . . في السـابعـة عشـرة علي أن أخرج إليها وأنا أجيد نطق الحروف وأعرف كل اسم من الأسماء كلها ، ولكني أنطقها بمنتهى الصعوبة ، حتى وإن كـانت موجـهة إلى أبي عبـد الأحـد الذي ناديتـه بعـمي قبل أن أقـول له بابا . . يا لهـا من ولادة أنا التي أتعلم فيها النطق ولا يعلمني أحد ، وأنا التي أكتشف فيها شبهي بأبي وليس العكس . . ياسـمين الأخرى كـانت كـثـيـرة الشـبـه ببـيـبي صبيحة وبي أيضاً . . كنا متشابهتين بالصدفة من جهة العيون الخضر والوجه العريض ، ولكن بشرتها البيضاء مليئة بحب الشباب ، وأنفها خال من عظمة عبد الأحد . . وعندما تتحرك تبدو فطرتها في مشيتها ، التي كـانت خجولة وبلا اندفاع ، كـمشية زينب تماماً . . وإذا نادتني أفز

وأنزل بعد الفزة إلى قرار عميق من الخوف ومزيج من الراحة والقلق . . . . كلمة واحدة بصوتها تمحو لحظة شك واحدة ، وإصبعها الصغير بقربه شامة صغيرة تتبختر من أجل صوت يتطابق مع صوت أمي زينب .

غلطة من هذه؟ غلطة الحرب التي انتهت ، أم غلطة المستشفى التي ألبستنا ثوباً واحداً ، أم غلطة الأم التي لم تميز رائحة ابنتها كما يجب . . . مرة ماري ومرة زينب . . بيضاء وخضراء العينين وأشبه جدتي لأمي قليلاً؟ . .نعم . . ولكن أكان شبهاً بالشكل فعلاً ، أم إنه جاء من العدم لأنهم بحثوا عنه وأرادوا أن يروه ، . . الصدفة الأساس كانت عيوني التي تطابق لونها مع لون عيون بيبي صبيحة . . صدفة تحدث مرة بالبليون . . وتبدأ المشكلة . . صحيح أنني لم أسأل يوماً آلاء عن ثقب الأرض القديم من حفره على الرصيف ، من أجل أن نطم فيه الخرز ، ولكني لست حفرة ولا شجرة تنمو عليها البذور ، وعندما تسقط إحدى حباتها إلى الأرض تطلع شجرة جديدة ولا أحد يعرف كيف طلعت . أنا ياسمين التي لم يتوقف أحد ليعرفها حق المعرفة . . صدفة تحدث مرة بالبليون . . وتبدأ المشكلة . . ولا تنتهي المشكلة .

اهتزت الأرض مرة أخرى وأصبحت النيران تتردد في مكان قريب ، وتبعثرت حجارة سوداء في الطريق بعد صوت إطلاق ناري تردد خارج النافذة ، وعاد أبي من مستشفى الولادة ساهماً وقال إن علينا أن نأكل لأنه جائع . أمي كانت في الخامسة والثلاثين من عمرها وهي على فراش المستشفى قرب الصراصر . . وبدت مصدقة لحكاية الجوع الشديد . . أما أنا فلم أصدق أي شيء . . . كنت أعرف أني سيئة الحظ منذ الولادة ، وأن أشيائي كلها ستنتهي بهذه الطريقة

العجيبة . . منذ أن جاؤوا لي بمرآة الميز تواليت وأنا متأكدة من أن حياتي كلها ستنتهي بهذه الطريقة . . يأخذون مني ما أحب من أجل مشكلة قد تحدث بعد كلمة واحدة . . يجب أن تحدث هذه المشكلة بعد كلمة واحدة لا أكثر . . هكذا . . وضعت لقمة طعام واحدة في فمي . . ولم أكن قد فهمت بعد لماذا حدث ما حدث؟ لماذا بعد أن أخذوا الدم مني ومن أمي ومن أبي حدث ماحدث؟ . . لماذا بعد أن أطلق الديك صيحته الأولى ماتت أمي؟ . . وعادت بيبي صبيحة إلى البيت وقالت لي البسي الأسود . . زينب المظلومة قد ماتت . .

سمعتها تعنف أبي كثيراً على إخبارها بنتيجة الفحص . . قالت له : كانت على فراش الموت ، فلماذا لم تتركها تذهب إلى دار حقها مرتاحة وسعيدة؟ . . . ماذا فعلت بها؟ لماذا أخبرتها بذلك الشيء الرهيب؟ . . أويلاه عليها! . . عاشت مظلومة وماتت مظلومة! . . قال لها إنه كان يريد أن يعرف منها إن كانت تعرف شيئاً لا يعرفه عن تلك القصة . . الوقت قليل وكان يجب أن يفهم شيئاً ، وأن يعرف هل هناك سر وراء ما جرى يمكن أن تخبره به قبل وفاتها . لم تقتنع بيبي صبيحة أبداً ، وظلت تنوح وتبكي وتقول : وماذا ربحتَ من إخبارها بأن ياسمين لم تكن ابنتها ولا ابنتك؟ . . . جعلتَ قلبها يحترق وهي على فراش الموت . . فماذا كنت تريد أن تعرف؟ أليست الغلطة غلطة الحرب . . وبلاوي الحرب . .؟ وغلطتي أيضاً لأني أنا التي استلمت الطفلة المسكينة بعد خروجها إلى الدنيا ، وكان يجب أن أغير ملابسها وأدعها تبات في حضني وأن لا أغفل عنها دقيقة واحدة . . لقد أعطاك الله ما أعطى مقابل نكرانك لقسمته . . . . قلتَ لها أريد ولداً وإنْ جئت بالبنت سأطلقك ، فانظر ماذا فعل الله بك . . .

الهر من بعد الديك هو الذي صاح عندما بزغ النهار . . . . تحذير آخر بأن الحياة قد بدأت ذلك اليوم . . فأين الحقيقة فيما تقوله بيبي صبيحة التي كان صوتها الواطئ أقوى من كل الانفجارات والإطلاقات النارية التي سمعتُها في حياتي . . بل كان أقوى وأعلى حتى من صوت الديك . . تذكرت أمي عندما مدت يدها إليّ في الظلام ، فارتفعتْ من قرب الصراصر إلى الهواء ، وقالت تعالي . . تعالي . . تعالي . . . واحتضنتْني بقلبها المتحطم على ابنة أخرى لن تراها . كنت أسألها وأنا صغيرة ماذا لو ضعت في مكان بعيد ولم يعثر عليّ أحد؟ . . فتقول لي أمي زينب كيف تضيعين وأنا موجودة في الدنيا؟ سأبحث عنك في كل مكان حتى أجدك . . أقول لها ماذا لو سقطت في حفرة عميقة لا يعرف بها أحد؟ فتقول سأتشمم رائحتك إن لم أرك . . ماذا لو سقطت في حفرة فوقها غطاء سميك لا يعرف بها أحد؟ فتقول لي قلبي سينبؤني بمكان وجودك وسأراك أراك أراك . . لا تقلقي يا ابنتي سأراك ولو كنت في سابع ظلمات الأرض .

الآن سقطتْ في حفرة الدود ، ولا يمكن إخبارها أين أكون . . قلبها دخل إلى ظلمات الأرض ولن يرى شيئاً بعد الآن . . أصبحتْ هي غير موجودة ، وأصبحت أنا غير مرغوب فيها . . طفلة لا أشبه أحداً آخر . . قطة جاءت بالغلط إلى بيت الجيران . . تحمل الوجه نفسه وخضرة العيون نفسها . . ولكن اسمها مكتوب فوق انبوبة صغيرة مليئة بالدم . . . كابوس لا يشبه كابوس الحريق الذي شب في بيت آلاء ، ولا الحفرة التي سأسقط فيها فلا تراني أمي ، ولا يعثر عليّ أحد . .ترى لو كانت موجودة فهل كانت ستظل تحبني؟ قولي يا زينب . . أين أنت؟ لماذا لا تردين؟

أنا الآن قريبة من عمر أمي التي ماتت في الخامسة والثلاثين . . ولكني كنت في السابعة عشرة ناجحة للتو في امتحانات البكالوريا عندما ماتت . . وبعد أربعين يوماً من موتها ، جلستُ وحدي معلقة في هواء غريب بعد أن سمعت خلسة بقصة ياسمين الأخرى دون أن يعلم بها أحد سوى أبي وبيبي صبيحة . . . كنت أكلمك يا زينب . . أجرب أن أستمر ابنتك وأنت ميتة . . ووجدتُ أنني أحبك جداً ولن أحب غيرك . . . وفرحت عندما عرفت أن روح الميت تحوم حول البيت أربعين يوماً . . رفعت بيبي صبيحة الكراسي القليلة من غرفة الهول ، ووضعتْ بدلها نضد الفُرش والوسائد التي تستخدم كمتكآت لظهور النساء . . كان صمتهن يطول في البداية بعد نوبات بكاء قصيرة يدخلن بها إلى البيت ، ثم بعد قليل ينظرن إلي فيغطي صمتي على أصوات عياط النسوة الباكيات اللواتي قدمن من كل بيت في الزقاق . . بعد الغداء يغطي لغطهن على صوت القرآن القادم من المسجل ، فتنهرهن بيبي صبيحة وتأمرهن بالصمت وحسن الاستماع إليه . . وفي الليل يطلبن السجادات من أجل الصلاة ، ثم يتمددن على الفرش ويغرقن في نوم عميق . . في الصباح يكون البيت ليس بيتنا . . مصطفى يتبخر . . أبي محمد يذهب إلى بيت آخر من أجل الفاتحة . وتقول لي بيبي صبيحة همساً في العزاء إن روح أمي زينب لا تزال موجودة في البيت . .

إذا كان ما تقوله بيبي صحيحاً فلربما جلست أمي بين النسوة الملتفات على أنفسهن كالقنافذ . . أو هي عملت في أكل الخيوط التي تخيط بها القماش وفي إصبعها الكشتبان . أو حملت قطعة القماش التي تخيطها إلى الشمس ، ونظرت هل كان اللون صحيحا . . مرحبا . . كل عام وأنت بخير . . خصلات شعرك كانت ملفوفة على مشط

الحمام الخشبي . . وبيبي صبيحة جمعتها في كيس من النايلون ودفنتها في الحديقة لأنها تنمو من الجسم ويجب أن تدفن مثلما يدفن الجسم . . . . قالت ذلك مرات عدة . . فهي معتادة على تكرار ما تقول ، وعندما جاء أبو الكهرباء يقرع الجرس هربتُ من حشد النسوة إليه . . . إنه محبوب . . ولكنه عجوز . . . يطرق خمسة أبواب حديدية دفعة واحدة ، وأكون أول من يركض ليفتح له صندوق المقياس . . أحب رؤية المقياس يتحرك عندما يفتحه أبو الكهرباء . . إنه يتحرك وينبض . . إنه يعيش في ذلك الصندوق دائماً . .بعيداً عن كل شيء . . هل فهمت لماذا أحبه؟ أمرتني بيبي صبيحة بنزع القرط بعد يوم واحد من نجاحي في البكالوريا . . وأنت التي طلبت منها شراءه لأنك كنت مريضة في الفراش ولا تستطيعين النهوض أو الذهاب إلى الصائغ . كنت قد ذبلت بعد أن ضمرت كليتك اليمين وعجزت كليتك الأخرى عن كل شيء . . احتاجوا لك الدم ولم يتطابق دمي مع دمك ، واحتاجوا لك الروح ولم يجدوا روحاً لكِ في أنبوبة صغيرة كتبت عليها الممرضة اسمي . . احتاجوا لكِ المال ولم يتوفر المبلغ لشراء كلية جديدة حتى لو لم يكن أبي قد صرف كل فلوسه على الخمر . .

مرآة الجمال

الرجل الجالس في الأعلى أرسل صيحة أخرى في حث الولدين للاقتراب ، الأبيض والأقل بياضاً ، يريدهما أن يتلقّفا ما يرمي إلى الأرض من كَرَب النخيل في أكياس الجنفاص الكبيرة ، الموضوعة تحت النخلة الثالثة التي كانت أعلى من الجميع . كان الكرب محاطاً بأشواك طويلة من الأسنان ، وإذا انفتحت الكربة تتدلى منها ألياف بيضاء رفيعة حيكت بشكل متراص ، ويبدو أن عددها بالآلاف ولا يمكن تنظيمها بهذا الشكل المتقن إلا من أجل شجرة جبارة لا تمرض ولا يهددها أي شيء . . فعلاً عذوقها أصعب على التكون من الأصابع والأسنان يا بيبي صبيحة . . كم الساعة الآن؟ . . لم يأت قارئ القرآن بعد بالرغم من أن الشمس قد ارتفعت في السماء . . والعقارب البيضاء رفعت ذيولها ومشت قرب القبر . . . لعله لايزال يتجول في حواشي المقبرة . . والمديرة تعطي المعلمة بعضاً من الدفاتر وأوراق الأسئلة . . وعلى الرَّحلات تلتصق قصاصات الأسماء . . سمعت الساعة تنبض عندما قربتها لأذني . . صوتها المتخفي خلف العقارب يئز مثل حذاء جديد . . كأنها تحدث روحها ولا يهمها أن يعرف بها أحد ، تتكتك لنفسها من أول الكلام وحتى آخره . . وهذا الذي لا يسمعه أحد من كلامها هو الذي يدلنا على الوقت الصحيح . . بيبي صبيحة لم تستمع لتكتكات الساعة ولا لنبضات المقياس . . وجددت

بكاءها على زينب وندبها لجميع الموتى ، فوضعتُ أصابعي في أذني لكي لا أسمع كلامها . . قلت لها : هص . . لا أريدها ميتة . . هل فهمت؟ أريدها أمي بدون بكاء . . وأن أفتح حقيبتها وأعثر فيها على رائحة . . منديل أو جكليتة . . لن أعثر فيها على قلم كحل أو قلم حمرة . . . لا يوجد في الحقيبة سوى الجزدان والمفتاح الصغير وأوراق مطوية بإحكام . . ومسطرتي سقطت على الأرض . . لا أعرف أن أبدأ صفحة قبل وضع خط في الجانب . . يبدو أنها ضاعت . . هي التي ضاعت . فماذا أفعل؟

إنه امتحان السنة الأخيرة من المدرسة الثانوية . . وأنا أكتب على منضدة التراب ، وأحدق طويلاً بالقصاصة التي كُتب عليها اسمي . . شكد حلوة . . أفكر الآن أني كنت أحبها . . واستغرب الآن لماذا نسيتها بعد ذلك ولم أعد أتذكر ، من ثلاث سنوات مرّت بين المتوسطة والبكالوريا ، سوى ضرب مبرح ضربه لي أبي لأنه عثر على مجلة فنية بين كتبي . . فيها مصطفى قمر وعمرو ذياب وكاظم الساهر . . كنت أنظر إليهم وإلى وجوههم المختلفة عن وجوه من أرى من الرجال . . وجوه نظيفة وجميلة وليس فيها بقع بيضاء كالتي توجد في وجهي . . هذا غير ممكن . . هذا فسوق . . قال أبي فطارت رؤوسهم وحطت في الزبالة بعد أن ساهم أخي مصطفى في الهجوم على المجلات . . وبعد أن ضربوني وحبسوني في الغرفة ، وقفت أمام مرآة ميز التواليت وقصصت شعري . . وجدت أمي كومة خصل من الشعر تحت المنضدة وخافت أن تخبر أبي . . كان سيقول : هَم بنية وهَم مخبلة . . ولكن أخي مصطفى وجد كومة من خصلات الشعر في سلة الزبالة مرة أخرى فأخبر أبي الذي ضربني . . فأغمي علي ووضعوا الملعقة المالحة في فمي .

تقول أمي إن هذه الوجوه النضرة لديها الكثير من التفاح والبرتقال والموز والخوخ وجميع أنواع الفاكهة . لماذا إذن جاؤوا لي بكيس الربطات ولم يجيؤوا لي بكيس الفاكهة؟ عاد إبي في ذلك اليوم الذي ضربني فيه أمام صديقتي تبارك . . وقال أني يجب أن أرتدي الجلباب فوق ملابسي . . أولاً لأن ملابسي تشف وثانياً لأنها تجعل الجميع ينظر إلي على الدوام ، ثم ردد بعض شتائمه المتكررة . . اسكتي . . انلصمي . . انهجمي . . لا أخلّي السكين بظهرك ، والقندرة بحلقك . . ياساقطة . . وفي الحال انطويت على نفسي وسقطت على الأرض ، ولم أتحرك من مكاني بدون أن يتحطم رأسي بالأرض وتردد أمي تكبيرتها في أذني ثم تضع الملعقة في فمي .

لا تضحك . . . . هل فهمت؟ اذهب من هنا . . هيا اذهب . فر الولدان وهرب الشحاذ . . وطلبتْ منا مُراقبة القاعة أن نخلع الحجاب ، لأن الحر شديد ولا رجل سيمر من هذه القاعة فاخلعْنه إن شئتن لأن الحر شديد . . . كل البنات خلعنه إلا أنا . . خفت أن يجيء أبي في الليل ويقتلني . . . يجمع عادة كمية كبيرة من الحطب ثم يشعلها بعد صب النفط عليها ، وعندما تلتهب بالنار يشعل سيكارته منها ويضع علبة البيرة بقربه ويأكل الحمص . . كان في كل مرة يسكر يحاول إقناع أمي بشيء ما . . مرة يرفع لها أصابعها بإشارة النصر ليضع بينهما لفافة تبغ ، ومرة يرفع لها الكأس وهو يغني جوزي تجوز عليَّ ، ومرة يعيرها بأنها لم تستطع أن تأتي له بولد آخر .

إنها غلطة أمي ، لأنها مخلوقة له وحده وتطيعه في كل الأشياء . . سَجَنها تحت الأرض ، وجعل كليتها تضمر ، وعندما مرضت بسبب ذلك عانق أختها (زمان) التي جاءت لتطبخ لنا وتنظف البيت . . هي

نفسها التي قالت عنها بيبي صبيحة إنها كانت تتدرب على الرقص مع قمر خانم في السبعينيات ، وكادت أن تظهر مع فرقتها في رقصة الهجع الشعبية دون علم إخوتها سعيد ورشيد وسليم . . ولكن زينب الكبيرة هي التي اعترضت طريقها ثم أجبرتها على ارتداء الحجاب . ولما علمت أمي بأن بيبي قد روت لي تلك الحكاية انزعجت وقالت بيبيتك صبيحة قد كبرت وخرّفت . كانت خالتي زمان تحمل كيساً من القماش تضع فيه بعض حاجياتها ، ويبدو أنها كانت تجمع فيه القلاقيل من الناس من طلوع الشمس وحتى غروبها ، فتقف على أبواب المتاجر والأسواق والمطاعم والمقاهي ، وتمشي في الحدائق والمتنزهات ، وتنبش في أي مكان تتراكم فيه القمامة والنفايات ، ومعها نساء كبيرات وفتيات . . عازبات ومتزوجات . . يحملن أكياس الجنفاص ويتجولن في الشوارع وقرب الأسواق والأحياء ، لكي يجمعن علب مشروبات البيبسي والحليب والمعلبات وقناني العطور الفارغة . . لم تكن تلم غير تلك العلب التي تقوم بفرزها وتصفيتها وبيعها للمعامل وأصحاب مصانع المياه الغازية . . . . طوال النهار وهي تفتش في أكوام مخلفات المطاعم والأفران هذه . لم تكن كذلك عندما ذهبت لأكثر من ثلاث مرات في مجلس قمر خانم قبل ثلاثين عاماً ، ولكنها فقدت زوجها في تفجير حدث قرب سوق البياع ، ولم تجد غير تلك المهنة لتدبير أمور المعيشة . . تقول إن ذلك أفضل من مهنة التسول على قارعة الطريق .

رحلتها تنتهي في مكان واحد هو بيتنا . . وجلعني ذلك أسأل نفسي هل كبرت الأختان وهما تأكلان وتلعبان سوياً ويشارك بعضهما بعضاً الأسرار . فلماذا تأتي إذن لتعانق أبي ، وتضع شفتها على شفته بدلاً من أن تطبخ لنا الطعام؟ . حدث ذلك قبل يوم فحص الدم بشهر

واحد ، وكانت أمي في المستشفى تعاني من الغيبوبة بعد غسل كليتها الوحيدة من وسخ الدم . . استوقفتنا الممرضة المناوبة عند البوابة الزجاجية المؤدية إلى وحدة غسل الكليتين ، وأخبرت بيبي صبيحة للمرة الثالثة بعدم إمكانية دخولها إلى المريضة رغم مرور ساعات على إجراء العملية . . وأرادت الممرضة أن ترد الباب التي تؤدي إلى غرفة العمليات ، ولكن بيبي ظلت متشبثة بإطارها المطاطي وهي تكرر السؤال :

- هل صحَتْ؟

فقالت الممرضة وهي تنظر إليها برفق :

- كلا . . تأخرت في الاستفاقة ، ووضعُها حرج .

عادت بيبي صبيحة واتخذت مقعدها المعتاد غير بعيد من بوابة الصالة ، ورفعت الممرضة الواقفة خلف منضدة الاستعلامات رأسها وقالت :

- هل أبعث المعين لكي يحضر لكِ طعاماً؟

فقالت وهي تمسح دموعها :

- لا . . لا أريد شيئاً . . لقد شربت شاياً ، وهو يكفيني .

سحبت مقدمة عباءتها التي كانت قد سقطت على كتفها وسوتها فوق رأسها ثم غطتني بها . . جاءت ممرضة كانت تدفع أمامها عربة مليئة بقناني الأدوية وحاويات القطن والمباضع . مرت بالقرب منا في طريقها الطويل نحو بوابة الصالة تتبعها رائحةٌ حامضة . عبرت ثمانية كراسي فارغة كنا نجلس أنا وبيبي صبيحة في نهايتها ثم أكملت الممر الطويل حتى وصولها إلى البوابة . . فتح المعين بوابة ذلك الممر المؤدي إلى وحدة مرضى الكليتين ، فمرت منه الممرضة مع عربتها ، وما لبثت

أن توارت خلفه وتلاشى صخب العربة المدفوعة . ومن خلال الزجاج المفتوح على حديقة يابسة دخل لفح الظهيرة الساخن ليمتزج مع هواء الصالة البارد كالثلج . . . . ربتت الممرضة التي عادت بعد قليل برفق على كتف بيبي صبيحة وقالت :

- هل نمت؟

فقالت بيبي صبيحة :

- نعم .

- أليس من الأحسن أن تعودا إلى البيت؟

الزقاق والباب المفتوحة تنتظرنا للدخول . تركتني بيبي أول الزقاق وعادت إلى بيتها . . . شممت رائحة الكباب من باب البيت فأكلت فور دخولي المطبخ لقمة واحدة . . كنت جائعة جداً ولكني خفت أن آكل أكثر من لقمة واحدة . . . . . لم يسبق لأبي أن جاء بالكباب إلى المستشفى ولا إلى بيتنا . . يا له من تصرف غريب لأب زوجته على فراش الموت ولم تذق الطعام منذ أيام . . بعد قليل سمعت صوته وصوت خالتي زمان يأتي من غرفة الهول المغلقة . . شيء غريب داهمني وجعلني أدرك ما يحدث خلف الباب . . الرجل الذي لا يتعب من الشرب كان يودعنا بهذا العشاء الفاخر ويستقبل امرأة جديدة . . شريكة رعناء وقع اختياره عليها لتكون تعبيراً عن إحساسه بأنه يكرهنا إلى هذا الحد؟ كأنه كان ينتظر حدوث معجزة ، فيكون البيت له وحده ويختلي بخالتي زمان لأكثر من ساعة؟ وسرعان ما حدثت المعجزة الأكبر بعد أشهر ولم يتبق في البيت أحد سواه وسوى زمان . مع كثير من الصراصر والسحالي .

كنت أسأل نفسي لماذا لا يكون بيتنا مثل بيت البنات . . بيت

تبارك الذي يسمونه بيت البنات؟ . ما أجمله بيت البنات! . . نظيف دائماً ، وفيه ضحك كثير وفاكهة كثيرة وكشاكش تتحرك في كل الاتجاهات . . ما أجمل فساتين أم تبارك! . ما أجمل بناتها! . . ما أجمل الكلمات التي يلفظنها بغنج! . . ما أجمل الأرائك والكراسي والحنفيات . . يبدو البيت مضيئاً حتى وقت الليل ، ولا يوجد مصباح واحد عاطل أو حنفية خربانة . تسمح لي أمي أحياناً بالمبيت عندهن لأن بيتهن خال من الرجال ، فأشعر بأن السعادة تعني بيتاً خالياً من الرجال . . كل ليلة أبيت فيها عندهم هي عرفات وكل صباح هو عيد . صحيح أن أبي كان يعترض في بعض الأحيان ، ولكنّ يوماً واحداً أُوجَد فيه في بيت تبارك يكون أفضل من كل الأيام ، لأني أشعر براحة تامة مع البنات . . فواحدة تغني لفيروز ، وأخرى تحلم بالسفر إلى اليابان ، وثالثة يهب العطر منها مثل الريح التي تهب وقت الربيع . . أقراط كثيرة وأحذية كثيرة وصوابين كثيرة ولغط مستمر . . جدران صافية وغرف تبدو مضيئة بسبب عدم وجود رجل . . لا شيء سوى سكون يشبه أرضاً منبسطة مترامية الأطراف تعيش فيها قَطْر الندى والأقزام السبعة . . اكتشفت أن البيوت التي ليس فيها رجال جميلة جداً . . وحسدت البنات على موت أبيهن وحسدتهن أكثر لأن لا أخوة لديهن ولا يزورهم رجال . . لا معارك ولا صراخ ولا سكاكين . . وتمنيت عندما أكبر وأتزوج أن لا أُرزق سوى بالبنات ، فنكون سعيدات مثل أخوات تبارك ، ولن أضع الحجاب فوق رؤوسهن ، ولن أذهب إلى الأضرحة والمقابر ، ولن أزور أحداً من أقرباء أبي الذين يأكلون الطعام بأيديهم ويتجشؤون بعده . تمنيت أن أفعل كما تفعل البنات . . يفرشن أسنانهن قبل الخروج من البيت ، ويضعن حمرة الشفاه بعد خروجهن

من الحمام ، وفي ملابسهن تتضوع رائحة طيبة تشبه رائحة الخوخ والمشمش . . . . كل شيء مختلف دون أن أعرف السبب . . ألأنهم أكراد من الشمال ، أم لأنهم أثرياء ولديهم سيارة أوبل بيضاء اللون تجيد قيادتها الأم والبنت الكبيرة تمارا؟ . . تمارا تعيش في السيارة ، وحياتُها عبارة عن مشوار مشي طويل لا تقطعه إلا من أجل الطعام والدلال . . يعني مثل القطط . وهي أيضاً تشبه القطة . . ولديها ساعة جميلة تنساها في كل مكان . . لو كانت ملكي لما نسيتها أبداً . . لكنت نزعتها فقط عندما أغسل الأطباق لكي لا تبتل . تمارا لم تكن تغسل الأطباق أبداً . . وظيفتها الخروج فقط . . من أجل الخبز والفاكهة والصيدلية والحلاقة والسوق . . وكانت تأتي بأشياء لم أرها من قبل . . البشاميل والبودنغ والكريم كاراميل واللزانيا والترايفل . . . . . من العيب أن أقول لهم إني لا أعرف أسماء هذه الأشياء ولا أسماء الفواكه التي أذوقها هناك . . يكون بينها الأناناس والكرز والمانجة ، وتُسمّي أمهن ذلك كله بأسمائه قبل أن تضعه في الطبق .

هناك لكل شيء نهاية . . . والوقت يمضي بسرعة في نوم ممتع وليل مضيء . . كم كنت أحزن عندما يأتي صباح السبت بسرعة فأعرف أن العيد قد انتهى ، وأني سأعود إلى البيت . . إلى الحجارة التي تغلق المدخل وإلى التراب الذي يغطي ميز التواليت . . تأتي معي تبارك إلى البيت أحياناً ، فنبقى صامتتين لِئلاّ يتنصت علينا مصطفى . . كان ينقل لأبي ما يسمعه حول كل شيء . . حول الأحلام التي نحلمها في الليل ، وحول حَبّ الشباب والدورة الشهرية . . وعند الغداء نأكل في صينية لوحدنا تحملها أمي إلينا ، وبعد الغداء نغسل أفواهنا بصابونة وردية اللون ترفعها أمي من المغسلة بعد خروج تبارك وتضع صابونة

الغار بدلها . . لا توجد في حمامنا رائحة خوخ ولا مشمش ولا بكرات من المناديل الورقية . . وليس هذا بمشكلة . . ولا وجود تختة خشبية بدلاً من حوض الدوش هو المشكلة ، ولكن المشكلة كانت في خروج الصرصر من البلوعة . . . يظل يحرك لوامسه وينتظر . . ماذا ينتظر؟ ماذا يفعل يا أمي؟ . . ليست لدي القدرة على قتله إلى أن تراه تبارك واقفاً بين الحوض والجدار المصبوغ بالبوية البيضاء فتقفز من مكانها كالملدوغة . . تقول وهي تفز وتخرج من الحمام إن رؤية الأسد أهون عليها من رؤية الصرصر . . . الآن فقط استغرب من صداقتنا أنا وتبارك ، وكيف استمرت بالرغم من أننا من بيئتين مختلفتين؟ . . ولكني لا أتذكر كيف بدأت . هل تذكرين .

غرفتي كنت أغطي فطور جدرانها بصور الأطفال وصور بعض الورود . أما صور الممثلين فلا يمكن تعليقها هناك . . كانت مرقعة في كل مكان . . وآثار الشيلمان تبدو في سقفها على شكل خطوط متوازية من الصدأ . . وكنت أعوض ذلك النقص بالمبالغة في ترتيبها وترتيب الملابس في الخزانة . وعندما أتذمر منها تقول لي أمي احمدي الله أن لك غرفة مستقلة ، ولها مفتاح أيضاً إذا ما استعملته تنقفل الباب . . هو المفتاح الوحيد الذي يعمل بعد مفتاح الباب الرئيس . . أمي كانت تنسى أنني إذا قفلتها قرعها الجميع ، وأنها تنغلق على غرفة تقع في دور السود بينما غرفة تبارك تقع في حي الزهور . . كان الحيان يتجاوران ، ولا يفصل بينهما سوى مستشفى الطفل العربي ومدرسة اللقاء التي نداوم فيها . . مرضنا سوياً عندما أكلنا في الطريق لفات الفلافل من سعيد أبو إيدين الوسخة . . . كان يمسك سيكارته بيد والصمونة بيد أخرى ، والذباب يتطاير حول يديه . . عنبة لو

صاص؟ . . أنا عنبة وتبارك صاص . . ولكننا دخلنا المستشفى لسبب واحد هو الإسهال . . وضعوني في غرفة كبيرة مع الكثير من المرضى ووضعوها في غرفة فيها سرير واحد . . وفي الليل ذهبتْ بعض المريضات إلى غرفتها لأن فيها تلفزيون ، فتذمرت أمها ونهرتهن من الاقتراب من الغرفة ، وسمحت فقط لمرضة بالوقوف ، وللفراشة ، التي تجلب لها كل شيء ، بالجلوس على الأرض . . . . كان مزاجها قد تغير بسبب خوفها على تبارك التي أصابها الجفاف لكثرة ما فقدت من سوائل . . وكانت حالتي أخف وأهون من حالتها بكثير ، وأمي تتقلب على حافة فراشي بين النوم واليقظة طيلة الليل وهي تقول لي كل شوية : حذرتك ولم تسمعي . . وين كان عقلك لما أكلت فلافل من الشارع؟ . . إنت صايرة عنودية ورأسك قوي . . حقه أبوك يمنعك من كل شيء .

كان يتحتم عليّ أن أموت بدلاً أن يكون رأسي قوياً . . أن لا أجرب أي شيء . . أن لا أعيش . . لا أتذوق الموطا ولا الفلافل . . لا أقص شعري ولا أطيله . . لا أقف في الباب ولا خلفه . . لا ألعب في الشارع . . إذا فات أبناء الجيران أتوارى عن الأنظار ، وإذا فات الكناس أتوارى ، وحتى إذا فات الشحاذ أتوارى . . من كل شيء . . يجب أن أتوارى من الناس والشارع والضيوف . . . يجب أن أستحي وأصمت ، وكل العيب في أن أضحك . . أضحك؟ أتلفّت يمنة ويسرة قبل أن أضحك . . ليس هناك عيب مثل الضحك ، ومثل النظر في العيون . . لا أنظر في العيون إذا نظرت ولا أضحك إذا ضحكت . . . مصطفى وحده له الحق أن يفعل كل ذلك . . أن يختار ملابسه بنفسه ، وأن يلعب خارج البيت إلى وقت متأخر من الليل ، وأن يطلق أصواتاً عالية

أسمعها من مكاني في غرفة المستشفى .

مشيت معك ياأمي الطريق كله إلى البيت ننظر إلى الأرض فلا نرى شيئاً . . لا الناس ولا السماء ولا الأشجار ولا أي شيء . . فقط أرى نعلك الأسود يمشي فوق النفايات تبرز من تحته أصابعك البيضاء . . . . حتى في رجلك لا يوجد سوى لون أسود . . على الأرض يجب أن أمشي وأنظر إليها عندما غادرت المستشفى قبل تبارك وخرجت معك إلى الشارع . . . . لا أسمع ولا أرى ، ولكن أفكر بتبارك التي ما زالت في المستشفى . . ببجامتها ذات الدببة البيضاء . . بشعرها الذهبي المربوط . . بقطع النستلة التي قدمتها أمها للضيوف . . واحدة لأمي ، وواحدة نأخذها لأبي ، وواحدة نأخذها لمصطفى . . .

. . . ياسمين . . ياسمين . . ياسمين . .

ما تفعله تمارا يجب أن لا تكرره مرة أخرى . . كيف تناديك باسمك في الطريق؟ عرفت ذلك قبل أن تقوله أمي . . عرفت أن اسمي أيضاً يجب أن يتوارى ، وفهمت ذلك من الطريقة التي صعدنا بها إلى سيارة تمارا حيث جلست أمي صامتة طوال الطريق . . وكيف إذن سأموت؟ ألن يكتبوا اسمي على الشاهدة حتى بعد أن أموت؟ وهل سيضعونه في اللافتة السوداء اسماً بدون اسم؟ . . سيقولون أخت مصطفى وابنة محمد . . خالها محمود وعمها جاسم واسمي مختف أبداً . . ولن يعرف به أحد المارة في الطريق . وصلنا إلى البيت وأغلقنا المدخل بالحجارة خلفنا . . وصلنا إلى البيت الذي يعيش فيه أبي قرب عمود كهرباء عال توجد قربه شجرة شبوي . . يرمي ضوءه على مدخل البيت فيزيد الوحشة بدلاً من أن يبددها . . الضوء شاحب وأصفر ويضيء كرتونة من الأزبال تحته . . ويكون أبي جالساً في الكشك

الذي يبيع فيه المواد الغذائية في المساء ، وفي الصباح يداوم في سكك الحديد قاطعاً للتذاكر . . ضحكت تمارا عندما رأت أبي وسلمت عليه . . فاختفت عصبيته ونهض من مكانه ورحب بها ، وكنت أفرح أن لا أصبح أنا هي الواحدة . . أن لا أكون موجودة وحدي معه . . وكنت أطلب من الله أن يخلقني من جديد في بيت البنات . . في بيت تمارا وتارا وتبارك .

الولدان الأبيض والأسمر انتهيا من سحب كيس الجنفاص الثاني المليء بالكرب إلى خارج المقبرة ، والرجل الجالس في الأعلى توقف عن الغناء عندما مر مقرئ القرآن وراح يقرأ سورة ياسين على قبر أمي دون أن يطلب منه أحد ذلك . . . ليس هو قارئ القرآن الأعمى . . وبقيت نخلة أخرى تحتاج إلى تنظيف . . تلاوة الرجل حزينة جداً ، ولكنها أوطأ من صوت القرآن في سيارة الأجرة . . عندما كنت ذاهبة ذلك اليوم مع تبارك وأمها إلى السوق لشراء الجلباب . . كانت أم تبارك تريد أن تستمع إليه بدون أن يثقب الصوت العالي أذنيها . . ولكن السائق لم يفهمها وصرخ بها : هل أنت مسلمة؟ ولما رأت أنه يوشك أن يشتمها ثارت وغضبت وقالت له كلا أنا صابئية .

أنا أيضاً يا أمي يجب أن أتوارى خلف الجلباب . . وتبارك كانت تمازحني وتقول إن النساء المحجبات بعد ألف عام سيتطورن وفق نظرية النشوء والارتقاء ويصبحن محجبات بالخلقة . . يعني بالولادة . . مثل الأيائل ذوات القرون التي تشبه الأشجار ، أو مثل الجرادات الخضراء من ذوات الجلود التي تشبه الأغصان . . وهذا ما سيتم فعلاً . . صدقيني يا ياسمين . . ماذا تفعلين ياتبارك؟ إنها تسحب الحجاب من رأسي في المدرسة ، فأشعر بالبرد والخوف وأعيده إلى مكانه فوراً . .

أصبحت الربطة جزءاً من رأسي . . لم أكن أريد لبسه في البداية ، ولكني أردته في النهاية . . لقد حدث وأصبحت لا أتخيل نفسي بدونه . . أتساءل كيف تشعر البنات بدون حجاب؟ . . كأنهن من جنس وأنا من جنس آخر . . إذن ما تقوله تبارك صحيح ، لأني أصبحت سعيدة بالحجاب . بعد عناد ورأس قوي تعودت عليه وأصبحت مجموعة معه في جسم واحد . . وعندما ألملم شتات نفسي الآن أكتشف أن رفضي واختلافي قبل ذلك لم يكن بسبب رفض الانتماء لعالم تسمّيه (أسامي) بشتى الأسماء ، وإنما بسبب جينات ماري في دمي . . كنتُ مثل ثمرة غريبة سقطت من تلقاء نفسها إلى الأرض . . لا تحتاج إلى المزيد من الاعتناء والماء واللون . . وتشعر دائماً بأنها ثقيلة بما فيه الكفاية لتنفصل عن الشجرة . . . أسمع صوت ارتطامها بالصبة الإسمنتية في كل وقت . . تُب . . تب . . تب . . وهذا كل شيء . . لن تأخذ شكلاً آخر بعد ذلك ، ولن تتكور أو تنتفخ . . فهل تكتمل عندما تسقط من غصنها أم تموت؟ كنت فعلا لست ابنتهم ، وكان يجب أن أُرجع اختلافي إلى سبب واحد فقط هو وجودي في مكان آخر ، بينما أنا من عالم آخر . . وبدا واضحاً من همهمات رأسي وأصوات تلك الفراغات هناك أنني خارج عالمهم . . خارج مجال النفق الذي مرت منه زينب وعاشت فيه بيبي صبيحة وهي تصغّر كل شيء إلى ما هو أقل منه . . كأنها تجد نفسها في ذلك التصغير وتحتمي بهذه المسكنة من الأبهة والكبرياء ، فتسمّي الولد بالوليد ، والخبز بالخبيزة ، والنص بالنصيص . . وعندما ماتت فإنها خرجت من كل ذلك العالم المسكين بكيلو من البرتقال ناقصاً برتقالة . اعتقدتْ بيبي صبيحة ، كما روى البائع لنا ، أنه أخف من أن يكون

بوزن كيلو البطاطا أو كيلو البصل ، فعادت إليه بعد أن عبرت نصف الشارع من أجل برتقالة . في تلك اللحظة طار الكيس من بين أصابعها وتلطخ بالوحل وتناثر البرتقال في كل مكان من الشارع .

بموتها اكتملت التعويذة الغريبة التي تتقدمني بطرق عجيبة . . هذا ما بدا لتبارك وأمها التي أشفقت علي من زوجة أب كخالتي زمان ، وشكرت الله على ظهور ماري . . ماري التي تجري وتضحك وتقودني إلى نتيجة واحدة . . هيا إلى الرذاذ . .هيا إلى الكلام . . هيا إلى خمسة أو ثلاثة أو أكثر من الصلبان . هيا إلى بيت خال من الذباب . . هيا إلى العالم . . كلها تشعرني بالخجل لكوني قد أصبحت فجأة مسيحية ابنة مسيحي . . كان سيبدو ذلك مثالياً في البداية ، ولكنه حدث بعد أن كان الوقت قد تأخر وأصبحتُ في السابعة عشرة ، وكنت سعيدة بالحجاب . . كنت أستجمع نفسي وأقبلها وأجد نفسي ابنة حي دور السود التي تنظر إلى الأرض عندما تمشي ، وتمحو رأسها تحت ربطتها السوداء ، بينما تبارك تزداد غرابة ، وتمشي إلى أمام بلا خجل من رأس مرفوع مثل صورة من صور المجلات . . ولا يمكن أن تكون على حق دائماً . . لأن الشباب ينظرون إليها ، وعمال الكهرباء يصفّرون لها عندما تمشي معي ؛ وهي ترتدي (تبارك) قبعتها المصنوعة من القش أحياناً ، فأقارن بين قبعتها وربطتي أيهما أقرب إلى الرأس . . رأسي العادي أم رأسها العالي بسبب شمختها أثناء المشي . .

تأخذني ماري عندها ثلاث مرات في الأسبوع ، وعندما أذهب إلى بيت ماري أدوخ من رائحة لم أعتدها من قبل ، فهي خليط من روائح الهيل والقهوة والسكائر . . وبمجموعها أشعر بوجع في بطني ، وبغربة شديدة تجعلني أتلفّت وأبحث عن أمي زينب في كل مكان . . .

آخذ الخيرة كما تفعل بيبي صبيحة بفتح القرآن . . أنتظر إشارة من أي نوع تخبرني بأني ذاهبة إلى المكان الصحيح في بيت ماري . ولم تحدث مثل هذه الإشارة قط بعد التعويذة الغريبة التي اكتملت بموتها وموت بيبي صبيحة . فقط عندما يحل الظلام في اللحظات القليلة بين شوطي الكهرباء الوطنية والمولدة فإني أشعر براحة عميقة ، إذا كنت وحدي في الغرفة . هم بنية وهم مخبلة .

هم بنية وهم مخبلة . . وفي بيت أخاف فيه من كل شيء لولا ما تبقى منك . . قولي لي فلماذا لا أفرح بماري وهي أمي أيضاً . . ألم أكن مختلفة عن بيتك طوال عمري لأن جيناتها في دمي؟ . . ألم أتمنَّ أن تلتهم أمي شرائح البطاطا المقلية وتتذوقها بإعجاب كما تفعل أم تبارك؟ . . فكرت مع نفسي أن الله أرسل لي ماري هذه لكي تبعث فيَّ الحياة التي لم أعشها ، وتثير زوابع البهجة حول أتعس الأشياء وأتفهها . . . ولكن الحق أنني كنت أرتعش عندما نظرت إليها واقفة بالباب . .

رأيتها تهبط من السيارة ثم مددت يدي لالتقاط صحن البطاطا من تبارك وحمله إلى غرفة الطعام ، فأعطتني إياه أم تبارك وهي تحاول ارتداء حذائها المخلوع لكي يدخل قدميها دون أن تضطر إلى استعمال يديها . . وكانت لا تزال تضحك من محاولتها تلك عندما رن الجرس فرفعتُ نظري من الحذاء إلى النافذة . . نفضتْ أم تبارك يديها من وضع الأطباق على المائدة وذهبتْ لكي تنظر عبر النافذة وهي تقول بصوت خافت :

- من يقرع الباب الآن؟

- ماري .

جاءت ماري لتبحث عني في بيت تبارك ، بعد أن لم تجدني في

بيت أهلي ، ثم أغلقت الباب خلفها . . . وبعده ثلاثة أبواب . . باب السيارة وباب البيت وباب الغرفة . . وكل باب تغلقه تترك خلفها وجه أمي . . وجهك يا زينب الذي يختفي ويختفي ويختفي . . أخذتني ماري معها ، للملمة ملابسي تحت ذلك الضوء القادم من المصباح المحاط بخيوط العنكبوت . . أنكفىء على وجهي منذ ثمانية عشر عاماً كلما وضعت رأسي على الوسادة . . يصبح وجهي واضحاً في مرآة ميز التواليت التي تواجهني ، ولا أرى فيها سوى شكة الدبوس وأنت تضعين المنديل الأبيض فوق شعري أول مرة . . كنت أعلم أنه قبيح ، ولكنه الآن يزداد قبحاً بعد أن رأيت غرفتي في بيت ماري . . خوف عظيم تملكني من صوت المطر الذي أخذ بالهطول . . كل مطرة يسقط تجعلني أبكي على زينب في قبرها . . ولكني هذه المطرة بكيت على نفسي . . على قلة حيلتي . . على يدي التي يمسك بقيادها كل يوم وجه جديد . . وأنا لا أريد أن يمسك أحد بيدي . . أظل رافعة رأسي وأنا أنظر في المرآة كل وجه فيها يضيء . . تك ثم ينطفئ . . تك . . يضيء . . ثك ثم ينطفىء . . تك . . . والآن اصمتوا جميعاً . . كلكم . . لا يتكلم منكم أحد .

مرآة الجنينة

أمام ميز التواليت هذا فقط أقرر الذهاب إلى بيت ماري . . أقرر أن أكون ياسمين التي أردتها دائماً . . ياسمين القوية التي تضحك وتصافح بحرارة ، وتُقبّل على الخدين وتنظر إلى عيون الآخرين عندما تتحدث . . مثل تبارك وتارا وتمارا ، وليس مثلي ومثل أمي زينب التي إذا ضحكت تتطير وتقول يارب ضحكة خير وشرها على إبليس ، وإذا قرع الجرس بعد العشاء تقرأ قل أعوذ برب الفلق . . . انتظري . . وتعالي معي . . وساعديني . . فأنا غريبة عن هذا العالم . تائهة مثل قبعة تبارك التي دحرجها الهواء باتجاه جذع شجرة كثيفة الأغصان مزروعة على الرصيف . . . يدفعها الهواء إلى أمام ثم يعيدها إلى مكانها إلى الخلف . لا أحب الاختلاط مع الناس وكأني أخاف من أن أتعرض إلى الضحك والسخرية . . لا أهتم بالحديث إلا عن مواضيع قليلة ، ولا تهمني من أسماء أصحاب القبور إلا الذين ماتوا وهم يحبون تغيير روتين حياتهم . . أي أن يفعلوا ما لم أفعله أنا . . لهم أحيانا أسماء متكررة ليس من بينها ياسمين واحدة . . . ولديهم مشاكل مع الظلم ، فيثورون عليه بالطائرات كمدحت شهاب الدين ، أو يموتون ظلماً ككافي الكيلاني أو خالي سليم . . . قد يكونون مثلي لا يستطيعون الكلام إلا مع أنفسهم . . . . يسمعون بشكل مرهف ويتضايقون من اللمس . . . يتأذون من الصوت العالي ويكرهون أن يحضنهم أحد . . لا

يحبون النظر إلى من يحدّثهم . . أو على العكس قد يطيلون النظر إلى الناس خلسة كما أفعل أنا أحياناً . .

ولكنّ هذا القرار الذي اتخذته أمام المرآة لا يدوم سوى لحظات أتساءل بعدها : كيف سأترك هذا كله يا زينب . . بيتك مكاني مئة مئة . . إنه الجو الساكن الذي أخرج من إلى العاصفة . . إنه يعني حنفيات عاطلة وأبواب لا تغلق ، وروزنامات قديمة موضوعة على الحائط منذ سنين . للجرس أيضاً صوت غريب يتفوق على تغريد البلابل المحبوسة في أقفاص . . كأنها على وشك أن تموت كما يقول مصطفى . . شخابيطه على الحائط المفطور لغرفة الهول موجودة هناك على شكل صورة رجل مكتوب تحته القرصان الأسود . . والسرير المعدني يئز تحت سجينته التي تخاف من مغادرته . سبع عشرة سنة مرت وانا أُحدّق في سقف الغرفة المخطط بالشيلمان . . وإذا هبت رائحة عطرة من شجرة الشبوي أتذكر النار التي احترقت فيها آلاء . . الوحيدة التي أرى نفسي أطير معها على شكل سهم منطلق ، مع الزرازير التي تحط في بستان (أبو غايب) وهي لا تخاف من الطنطل الذي يعيش فيه ولا من الخنازير البرية التي تظهر في الليل . . كان يجب أن لا تدخل إليه وقت تفتح القداح الذي سيتحول إلى عناقيد من المشمش . . لأن زهر القداح هش ومترنح وينقصم من نفخة هواء . . وعندما تمتلئ به الأرض تنطلق آلاء في البستان كالسهم الخفيف ، وأنا أنظر أليها من مكاني على السرير المعدني ، هناك لا شيء قابل للحبس أو الزوال بينما غرفتي هي السجن الأبدي والمفتاح مستقر في مكانه في فتحة الباب . . يااااااه . . تسمي (أسامي) ذلك بالتبيؤ ، وتقول إن الإنسان يتشابه مع المكان في النهاية ، ولو غيرنا المكان سيتغير الإنسان . .

كلامها صحيح مئة بالمئة . . أليس كذلك يا مدحت شهاب الدين؟ أليس كل شيء جهنمي يشبه بذلتك العسكرية المدفونة معك؟ . . وكل شيء قديم ومرقع يشبهك يا زينب ويا ياسمين أُم عيون الخضر ، يشبه غرفتك التي عشت فيها سنوات عدة فجعلَتْك تبدين واحدة ولدت قبل أن يولد أجدادي وجداتي . ستكون هذه الغرفة للذكور الثلاثة الذين خلّفتهم خالتي زمان من بطن واحدة بعد تسعة أشهر فقط . . وُلدوا هم في بيت زينب وغادرت أنا إلى بيت ماري . . أليس هذا ما كان يسعى أبي إليه دائماً . . بيت بدون بنات ومشاكل ودوخة رأس حتى الممات . . . فلماذا إذن أخاف أن أترك هذا البيت وأتسلل من ثقوب الرمل وأُخرج رأسي إلى الضوء الشديد؟ . سيبهر الضوء عيني في البداية ، ثم أعتاده شيئا فشيئاً حتى أصبح جزءاً منه ، وبعد ألف عام سيصبح أول رأس بلا علامة استفهام هو رأس حفيدتي السادسة عشرة . .

يسري دفء بيت ماري في جسمي ، وأسمع أصوات الأوراق اليابسة لحديقتهم الكبيرة وهي تتكسر تحت قدميها أو تتكوم في ظل النخلة العملاقة . . ماذ يحدث؟ وماذا أفعل هنا؟ ومن سيعتني بي؟ ياسمين تفتح الستائر وأنا أنظر إليها . . إنه الظل الذي تسميه (أسامي) بالركن البارد وتقول عنه إنه يأتي بدون ألم ، لأنه حي يعيش في الفيء المظلم الذي لا ينتبه إليه أحد . ماري أيضاً تتشابه مع بيتها المرح ، ولديها صديقات أثريات يشربن القهوة لفترة أطول في تلك الحديقة ويقلبن الفناجين ليثرثرن عن طرف آخر من الزمان كن فيه يُسرّحن شعورهن عند حلاقَيْن اسماهما مالك وجوزيف ، ويشترين ملابسهن من مخازن كبرى تقع قرب حافظ القاضي تسمى أورزدي باك ، ويتواعدن في مقهاها

الذي يطل على نهر دجلة لشرب العصير أو القهوة ، ثم يذهبن إلى المكتبة ليطلبن منها أحدث مجلات التطريز والعمل بالسنارة . . يتحدثن أيضاً عن أيام الاحتفالات السنوية في المدرسة التأسيسية قبل أن يؤمها صدام حسين ، عندما كان كبار الضباط من قادته يقفون أمام مديرتها اللبنانية المس صوفي مبارك صاغرين كالتلاميذ ، وكن هن يعملن فيها كمدرسات للفنية أو الاقتصاد المنزلي . . يغنين أحياناً . . بعيونك عتاب . .وبقلبي الجواب . . يتحدثن أيضاً عن خانات الإنتيكات والسجاد والمصوغات الفضية والذهبية في زمن السبعينات . . عن لمة نادي المنصور الذي كن يتفرجن من خلف أسواره على سباقات الريسز أيام الجمع . . عن شوارع التحف في اليابان وإيطاليا أو أسبانيا . . عن أيام الرعب من الكوليرا في الستينات . . عن تتبيلة فخذة الخروف التي من الأفضل غسلها ، قبل يوم من شيّها ، بملح ودقيق وخل ثم تزيينها بالبصل والطماطة والكراث والجزر وورق الغار والهيل والدارسين والفلفل وزيت الزيتون . . . . تتبيلات . . صلصات . . دريسنغس . . أسماء جديدة لها رائحة مدوخة . . ليس من السهل حفظها عدا الريسز الذي سمعتُ باسمه من بيبي صبيحة . . اسم غريب لشيء غريب كانت تقول إن أبي محمد قد تبهذل بسببه . . ويبدو أني أتبهذل معه عندما أخلع ثوبي بعجلة وألبس ثوباً جديداً لم ترتده أمي زينب ابنة مدينة الفضل . . ولا أبي محمد الذي قدم إلى بغداد من مدينة سامراء ، بعد أن كان أجداده قد وفدوا إلى هناك وأقاموا لهم مربعاً على الضفة اليسرى من نهر دجلة . . . أخجل أن أتحدث داخل جمعهم الصاخب . . جمع القهوة والدخان والسكائر . . جمع لا يشبه جمع زينب المحاط بالشاي والكعك وأحياناً بكاسات الشلغم الحار . . جاملوني بكلمات عربية وأنا أقدم

صينية القهوة ، وتعرضت للاكتشاف مرة أخرى . . واحدة تقول إنني أشبه ليلى فوزي ، والثانية تقول إنني أشبه لبنى عبد العزيز ، والثالثة تقول إني نسخة من جدي الشماس . . يحدقون بي بعيون قديمة لا تشبع كأنها تطل من نوافذ عالية فأشعر بشعور الساقط في المدرسة . . . جمع مؤذ يستمتع بوقته وأنا الوحيدة فيه أبدو طينة تحدق في حشائش الأرض وترسم بقدمها خطاً أفقياً بقرب زهرة صفراء . . زهرة غير منتمية لباقي الحشيش . . كيف حالك؟ لا أعرف . . موجودة في المكان الخاطئ . ولا أملك لسانهم الأرمني ولا أصابعهم الطويلة ، وسأبقى كذلك إلى الأبد . .

ماري سحبت عربتها المفضلة التي تضع فيها أكواب الشاي مع الكيك والكرواسات . . قالت إنها تبرعت بمصاريف حفلة رأس السنة لليتامى والمساكين . . ماري يعني لها فعل الخير أن تتبرع بيوم إلى اليتامى . . ثم تفتح صنبور الماء الدافئ ، فتسبح في بانيو الحمام الأبيض وتغمر جسمها بفقاعات الجل . . رذاذ الماء في كل مكان . . وملابسي ستُغسل في الغسالة ولا أغسلها بيدي . . جرس الباب لن يدق إلا بنغمة بيانو . . النغمة تترك طنيناً في الأذن ، وساعة الحائط لا صوت لها ولا تجاور نافذة تطل على شجرة النارنج . . كان هذا آخر منظر رأيته في بيتنا بعد أن قبّلتني خالتي زمان التي تقف عند باب البيت قرب أبي ، الذي كان يطأطئ رأسه حتى لا أرى دموعه . . لحظتها . . تمنيت أن أرفع نظري عن الأرض وأقبله أو أسلم عليه أو أنظر إليه في عينيه . ولكني لم أفعل . . منعني الخجل من ذلك . . واكتشفت في تلك اللحظة أن الخجل أقسى من الوحش . . قلبي كان خشناً كقلبه . . وتركته في باب البيت وهو ينظر إلى الأرض . . لماذا يفعل هذا؟ لماذا لم

يسأل أين أذهب؟ لماذا تصمتين؟ وماذا تفعلين هنا؟ تعرفين عما أتكلم .

كان قد لمّح إلى خطبتي لابن عمي بعد نجاحي في البكالوريا مباشرة ، وقد جعله ذلك مستعداً لمغادرتي البيت على أية حال . . ولكني أذهب إلى بيت أهلي ، فهل يكون أبي سعيداً بهذا الذهاب أيضاً؟ لماذا إذن كان يشرب الخمر؟ لماذا يبكي حتى هذه اللحظة؟ يقول إن مرضاً في عينيه هو الذي يجعل الدموع تنهمر من عينيه . . فما هذا المرض؟ هل هو مرض بيتنا؟ مرض الجوع والفقر واليتم الذي تغشه أمي بجعله شراشف بيضاء نظيفة على الكرويتات . . ورز يُؤدَّم بالدهن الحار وخبز يملأ البيت برائحة العجين المختمر . بالنسبة لي ستشتاق قدمي للمشي على الصبة الباردة المشبعة برطوبة الماء ، وتحن أذني لسماع أذان الظهر عندما يعلو من مئذنة الجامع القريب ثم يملأ باحة البيت؟ ولكن بالنسبة لياسمين الآخرى فهل تأتي إلى هنا؟ وكيف تأتي؟ كيف؟ إذا كان ما يقوله أبي صحيحاً ، فالمحكمة بينهما ولن يجعل ابنته تعيش حياة المسيحيين مع أناس أغراب . . هذا من أفظع السرقات التي تحدث ، ولا ينفع معها حتى الفصل . .

عرفت أن الأشهر مضت على هذا الحال . . هو منشغل بأولاده الثلاثة من زوجته الجديدة زمان بالإضافة إلى ابنك مصطفى ، ويبدو حائراً ماذا يفعل ، ولا يملك الجواب . . ولو كنت يا زينب حية لتمسكت بي مثل ما تمسكت ماري بياسمينها ، ولكان بقي كل شيء على حاله طبعاً . . وقد يستمر تنقلنا بين البيتين كحل أخير . . ولكن هذا أمر لن يدوم وقد يكون مستحيلاً . وكل واحدة منا يجب أن تسقط إلى قدرها المحتوم . . . . قدر هنا وقدر هناك . . ياسمين هنا وياسمين هناك . . ولم يتفوق على هذا القدر سوى الحمى التي لطمَتْها في

سنوات العنف والأيام التي مضت بعدها دون أن يخرج الناس من بيوتهم ، فكيف يذهبون إلى المحاكم؟ كانت حمى غريبة أفاقت منها ياسمين الأخرى وهي مصابة بداء السكر . . وفي الوقت الذي كان فيه وجهي يتورد في المرآة من بحبوحة العيش كانت هي تنحف وتذبل وتوشك على الموت ، فتتأجل مواعيد ماري مع أبيها محمد ، وظلت تتأجل سنوات عديدة بدأت ولم تنته بسبب تفاقم نفقات العلاج ومضاعفات مرض السكر . . أتكون الصدمة هي السبب . . في الأمس كانت ابنتَهم واليوم أنا . . وبعد غد سيكون الضنا من نصيب الجميع . . والضنا كما تقول (أسامي) هو أقصى درجات العذاب . . . ولهذا يُسمون الآباء الأبناء بالضنا؟

كانت ماري تذهب إليه بين حين وآخر ، وتُقلّب الأمر على أوجهه . . بدت متأكدة أنها ستستطيع إقناعه بما تريد . . لديها سحر خاص ولسان راقص جعلها تعبر الحاجز إليه وتقدم له كل الضمانات التي يفكر بها . . ولكنها تعود بعد شهور لتقول إنه كان يفكر بارتباط ياسمين بابن عمها ، وستغادر البيت على أي حال كما كان يخطط ، فلماذا لا تماطل معه وتجد طريقة لإبقاء الوضع كما هو؟ . . تغطس في ماء عميق أحياناً وبعد شهور أخرى تكتشف أن الدين هو السبب ، وأنه لن يسامح نفسه إن سمح بأن تعيش ابنته في بيت أرمني . . يبدو أن ماري تعرف أن الزمان هو الذي يملك الكلمة الأخيرة . . وبقليل من هذا ، وكثير من ذاك ، ستتوصل إلى حل لتفكيك تلك المشكلة وإيصالها إلى بر الأمان . . إذن هذا ما تريد أن تفعله . . أن تبادل ياسمين الأخرى بالنقود ، وأن تجعل لها دية أو ثمناً كما فعلوا مع بيبي صبيحة ومن بعدها زينب .

أمي زينب كانت فصلية ابنة فصلية ، وابنتها ستكون فصلية أيضاً . . هيا يا بيبي صبيحة وين طامسة يا حلوة؟ عدّدينا جميعاً . . وحطي اسماً جديداً في أشعارك بطريقة مختلفة عن طريقتك هذه المرة . . إنه يوم دافئ يستحق نواحك وقت الغروب . . بيبي صبيحة أخبرتني إنها وهي طفلة كادت أن تأكلها البزون ، وعندما كبرت وُهبت لجدي بعد شجار مسلح قُتل فيه أخوه ، والقاتل كان أخاها عندما كان عمرها خمسة عشر عاماً فقط وتعيش في منطقة الدهانة في قنبر علي . . مدينة كانت تمتلئ أزقتها بمحلات الدهن الحر ، وتنتشر فيها دكاكين الحلوى من الدبس والحلاوة والسمسمية والمكاوية . . ومحلات الندافين والحدادين والنجارين والعطارين وباعة الشموع . . . تقول بيبي صبيحة إن الشجار قد وقع عندما جاء أحد إخوة جدك لشراء الدهن الحر وهو يضع الخنجر في حزامه . . ومن أجل خطأ في الميزان رفع أخوها جبار العيار الثقيل ونزل به على رأس المشتري فمات بعد يومين ، واشتكى أهله عند مركز الشرطة دون أن يلقى القبض عليه . . بيبي صبيحة تقول إن عشيرتها مشت إلى عشيرتهم وأخذت معهم الجاهة والوجهاء ، ثم انتهى الأمر بأن أخرجوها من بيت أهلها في قنبر علي بدلاً من إدخال أخيها جبار إلى السجن . حملت ثيابها في صرة وذهبت مع الشيخ إلى عائلة غريبة لن تسمح لها برؤية أهلها مرة أخرى . . . تقول إنها نسيت الكثير من أيام حياتها ، ولكنها تتذكر ذلك اليوم الأغبر الذي اتجهت فيه مع الشيخ إلى سوق حنون ثم إلى شارع الكفاح الذي كان يسمى بساحة زبيدة أيام زمان . . . . تقول إنها تتذكر حتى رقم سيارة الأجرة التي اكتروها . . . تعمى عيوني إن كنت أكذب .

ذاتُ العينين الخضراوين والقوام الهزيل لم تكن تعلم أنها ستكون فصلية من دون مهر ولا حق أو حقوق كباقي البنات . . لا شيء كان أقسى عليها من ذلك . . أن يجروها من البيت إلى حظيرة الأبقار . . هل تذكرين كلامك يا بيبي صبيحة عندما كنت تقولين إن الدموم(*) حدثت بدون علمك ، ولكن العقاب كان من نصيبك . وإنه كان سيكون من حسن حظك لو استبدلوك بالمال ، ولكن عشيرة الجاني يجب أن تُحقَّر وتهان بهذه المرأة الجدمية التي لا يمكن التنازل عنها مهما كان الثمن . تقول بيبي صبيحة أمك يازينب إنها عاشت مع أبيك وأهله قرب معمل للطابوق في الكوت ، وهناك اعتلّت صحتك وضاق نفسك بسبب الهيس الأسود والأدخنة الكثيفة التي تنطلق من الكور إلى كل بيوت المنطقة . . ولولا أن مصيبة حدثت لكانت قد قضت عمرها خادمة في ذلك البيت . . اصطدمت سيارة نقل الطابوق بجدار المعمل وتسببت بمقتل أبوك يازينب وأختك أيضاً . فعادت بك بيبي صبيحة معك وإخوتك إلى بغداد . ياسمين لن تكون مثلك .

لم أتفاجأ بموقف أبي لأنه لم يطلب أي شيء من المال . . وظل صامتاً على عرض ماري بدفع أي مبلغ يطلبه أبي . . المال موجود عندها وأبي لا يطلب شيئاً وأنا أقول له في سري عفارم(**) . تماماً كما فعل في الفرهود عندما ضرب مصطفى للمرة الأولى في حياته لأنه جاء بمكيف مسروق إلى بيتنا . . . جعلني ذلك أفسر موقفه الأول بعد حدوث الموقف الثاني . . جعلني أقدّره للمرة الأولى ، وجعلني أعرف

(*) الدموم : عامية عراقية مفردها دم .

(**) عفارم وعفية : عاميتان عراقيتان بمعنى أحسنت .

لماذا يريد أن يضيع عقله لبعض الوقت؟ فيْ الأول كانت حياته قصة مملة أسمعها من بيبي صبيحة في أوقات مسيرنا بين المشاكل التي لا تنتهي . وبالأخير أدركتها بعد فوات الأوان ، وعرفت أن الفقر قد جعله يدمن الخمر فضاع عقله بدون أن يدري ، وراح يملأ البيت بالصراخ منذ أن يدخل إليه . . . وأحياناً كان ، ولسبب تافه ، يريد أن يمنعني حتى من الذهاب إلى بيت تبارك . أصبح يقول عنها أوسخ الألفاظ ، أولاً لأنها لا تضع الحجاب على رأسها ولا تصلّي . . . . .وثانياً لأن أهلها احتفلوا بأعياد الميلاد ورأس السنة واشتروا من الكرادة شجرة الكريسماس ووضعوها قرب النافذة . وفي النهاية قال إن اسمها حرام أيضاً . . كل ما هو حلال يصبح حراماً إذا كان مقصوداً للبنات . . إنه يلوكنا كل يوم في فمه الواسع ثم يبصقنا إلى التراب عندما يضجر . . إذا نزلت أمي يقول لها أنت طالق ، وإذا خرجت يقول لها أنت طالق ، وإذا عادت يقول لها أنت طالق . . ولا يحاسب نفسه إذا خرج أو إذا دخل ، ولا يلوم نفسه على شيء أبداً ، إنما نحن الملامون على أي شيء ، وعلى كل شيء ، وحتى عندما ماتت بيبي صبيحة في يوم العرفات فإنه صرخ وقال : أكو واحد يموت بيوم العرفات؟! . . وذلك لأنه كان يريد الذهاب للتسوق من أجل شراء الخمر . ومن بعده يسقط في الإنهاك بعد الغضب أو السُكْر وفي نهاية الأمر يصبح هادئاً ، وعندما يخرج من البيت أيضاً يكون البيت كالجنة . . ومع ذلك عندما يحدث شيء لا علاقة له به فإننا يجب أن نخاف منه ونحسب له مليون حساب ، وكأنه يجب أن يكون موجوداً حتى بين طيات الهواء يرى كل شيء ولا يراه أحد . عقله ضاع واختفى ولكنه نادراً ما يختفي من المسكن . .

الهـدوء غـيـر ممكن إلا عندمـا يكون في الحـرب . . كـلام بيـبي صبيحة هذا تقوله أحياناً عندما تتذكر نهاية الحرب التي انتزعت الناس من بيوتهم ورمت بهم إلى الأسواق التي انهارت أسعارها بفعل انتهاء الحرب . الوحيدة التي لزمت بيتها هي زينب . . ولولا أنها ولدت أخي مـصطفى بعـد نهـاية حـرب إيران بشـهـور ، لكان قـد بر بوعـده وطلّق أمي . . . عاد من هناك بإصابة في يده ، بعـد رحلة مريرة تاه فيـهـا بين الجبال فاعتقدوا أنه مات أو وقع في الأسر ، كان يروي لنا أثناء السُكْر عن تلك المتاهة . . ويدخل أو يخرج منها حسب كـميات الخمرة التي يشربها . . ويتتبع أثر أبيه وجده في بعض الأحيان . . يقول إنه بعـد مولده بسنوات اشتعلت الحرب العالمية الثانيـة فرحل أهله إلى بغداد واستقروا فيها بسبب سوء الأحوال والضائقة المادية التي حدثت نهاية الأربعـينيـات عندمـا كـان الناس ، وبسـبب الشح ، يخلطون الحنطة والشعير ويخبزون منه خبزاً أسـمر اللون سميك الشكل يصلح علفاً للحمير وليس طعاماً للبشر . . وكان السُكّر يكاد يكون شيئاً أعز من الألماس . . والرجل الذي يدير المخبز كان يسرب حصته من الطحين إلى الأغنياء الذين يعدون الحلوى . . ولم يكن عليهم سوى انتظار الصيف صـديق الفـقـراء لكي يذهبـوا للشـواطئ ويزرعـوها بالخـيـار والرقي والخضروات . . أو يلموا سيقان الشيخ اسمالله ويبيعوها في باقات صغيرة سعر الباقة منها فلس واحد . . في تلك الشواطئ يرى البنات الجميلات يضعن جرار الفخار على رؤوسهن أو يغسلن الملابس والقدور قرب الشط ، ولكنه يفضل عليهن أحلام ابنة عمه التي رفضته وظلت طوال عمرها بلا زواج ؛ لأنها لا تستطيع أن تتزوج غيره ما دام قد نهى عليها . في ذلك الوقت كانت تمر سيارات الإنكليز من بعض الشوارع

فيضعون المسامير في طريقها ويشعرون برجولة مبكرة لأنهم ينتقمون بهذا العمل من جوعهم وفقرهم وقلة حيلتهم . . كما كانوا يرسمون الصلبان المعقوفة على الجدران ، ليس حباً بهتلر أو بالألمان ولكن كرهاً بالانكليز الذين يقول أبوه إنهم قتلوا الملك غازي وأباه فيصل من قبله . أبوه المسن كان هو الآخر قد سيق في شبابه إلى السفر بر أثناء الحرب العالمية الأولى وعاد من هناك بالصدفة ، بعد أن تركه الأتراك ميتاً لرفاقه العرب كي يدفنوه فوجدوه لا يزال على قيد الحياة . . مات ميسور الحال لأنه ورث أملاك أخيه الذي لم يذهب للسفر بر بسبب الجامع الذي يمتلكه ، ثم بدد أولادُه عوائد تلك الأملاك في الخمر والركض وراء النساء .

أحياناً يسأل نفسه : أين أنا؟ وتنتابه قشعريرة مفاجئة من الحزن في نهاية جولة من الكلام ، ويقول إنها لساعة سوداء تلك التي جاءت به إلى الدنيا فهو لم يعش من أيامها الحلوة سوى سبعة أيام ، تلك التي أحب فيها ابنة عمه أحلام . . الآن يغني لها أغنية أحلام وهبي التي حفظناها من خلاله : سبع تيام من عمري حلالي . . سبع تيام من غير الليالي . . بأصابعي أعدهن . . ولكنْ من بعدهن . . من يدري من يدري اش جرالي . . من يدري . . . . ظن أنها كانت تبادله حباً بحب ثم هجرته وحيداً على الرمل يستحم في مياه دجلة التي يقصدها كل صيف للبحث عن ذكراها . . من طيّح الله حظها وحظي . . يا حب؟ . . يا بطيخ؟ . . أشو طول عمري حظي أسود . . بس بالرقي حظي أبيض .

«خرجتُ من مغارة ودخلت إلى مغارة . . وآخر مغارة دخلت إليها كانت بعد أن انكسرت يدي في هروبي من تلك المتاهة . . رأيت

الإيرانيين يشعلون ناراً ويطفئونها في مرتفع بعيد . . . وفكرت أنه من الأسلم لي أن أتلافى هذه المنطقة وأن أتجه يساراً لكي ابتعد عن المعارك المستمرة حيث رأيت النار مشتعلة . . كنت أزحف على الأرض الوعرة مثل أفعى أو سلحفاة ، فيتجرح جسدي بالشوك والحجارة ، وبين شجرة وأخرى كنت أتوقف لأمتص ما في عروق الأوراق من ماء ومونة . . ولكن الجوع كان يتزايد والحمى تتصاعد بسبب يدي المكسورة ، فحفرت حفرة في الرمل البارد بطول جسمي وخلعت ملابسي ودفنت جسمي في الأرض ثم تمددت داخل الحفرة . . كنت أريد للرمل أن يمتص حرارتي المرتفعة ، وأخاف أن يجف ريقي وأنتهي دون أن يدري بي أحد . وطوال أيام كنت أفكر : تُرى كم أغبر غيري سار إلى هذا المصير وأصبح طعاماً للطيور ثم عُدّ ، بالرغم من موته ، ضمن المفقودين الذين ينتظر الأهل عودتهم . . . سرت ثلاثة أيام بدون طعام ولا شراب حتى رأيت مخلوقاً صغيراً أسميته طائر الحظ . . حلق فوقي وكأنه يدلني على مكان بركة ماء تحلق فوقها الطيور البرية وتمتلئ بالقصب والعشب البري . . رائحة الماء ردت روحي قبل أن يبلل لساني الذي التصق بسقف فمي من شدة الجفاف . . كان الطير ينتظرني حتى أنتهي من الماء ، فيحوم فوقي ، وبعد قليل يطير إلى الجبل وكأنه يدعوني إلى اللحاق به مرة أخرى . . صعدت خلفه إلى الجبل وأنا أتلفت في جميع الاتجاهات . . وفوق الجبل تركني فجأة ثم اختفى بين الوديان ، فوجدت أني قد أصبحت أرى مناظر مألوفة لعيني ، وشعرت بأني سأصل الحدود بعد هذا الجبل . . وصليت صلاة قدّرت أنها صلاة الظهر ، قبل أن أمشي من جديد» .

يضحك أبي للمرة الأولى وهو يقول : «كنت أسمع صوتاً في

رأسي يقول استعجل يا ميل الساعة . . مواعد حبيبي آني . . ولكني خفت أن أغنيها . . . عجز فمي عن نطقها . . وخرس جسمي عن إصدار أية حركة أو الإيماء بأية إشارة ، وتمنيت من شدة الخوف ، أن لايحرك الهواء ملابسي أو يلعب بشعري . . بقيت أمشي بحذر وأنا ألهث إلى أن سمعت صوت جنديين إيرانيين يمران بالقرب مني . . فقطعت أنفاسي والتصقت بالأرض دون حراك . . ثم رددت الشهادة في سري ودعوت الله أن ينقذني . . بأي شكل ينقذني من لحظات الرعب تلك . . . لم أسمع من قبل صوت جندي إيراني ولا لغته . . هم في حد ونحن في حد آخر . . لا نعرف عندما نرمي القنابل لا من قُتل منهم ولا كيف قتل أو كيف يكون شكله . . هم أشباح بالآلاف ونحن أشباح بالآلاف . . ولكن أنْ يكونوا على هذا القرب الشديد يعني أنني أمام بشر مثلي . . سيقتلونني قبل أن أقتلهم . . ولن ينظروا إلى قروح أقدامي ولا إلى كسر يدي ، فأنا بالنسبة لهم عدو أيضاً . كنت مغمض العينين بانتظار الإطلاقة النارية او الأسر الأكيد ، ولكن الصوت ابتعد وتلاشى ولم أجرؤ على رفع رأسي إلا بعد وقت طويل جداً من الخوف الذي لم أعرف مثيله من قبل . بعد منتصف الليل سرت بلا اتجاه محدد ولففت نفسي بأغصان وجدتها في الطريق من أجل التمويه ، وفي الصباح وجدت نفسي قريباً من سلسلة جبال عالية حمراء اللون فخمنت أنها تقود إلى حمرين . . هناك سمعت أصوات جنود عراقيين يتحدثون فيما بينهم ، فشعرت بأنني لا أمشي ولكن أطير . . . الغريب أني هذه المرة أيضاً خفت أن أغني . . وخفت حتى أن أفكر بالغناء ، لأني خفت من أن الحظ لن يحالفني حتى النهاية ، ولكن عجباً هذا ما حدث في النهاية . . وانكتب لي عمر جديد . .

صار يابة صار . . ومن أين تقبض؟ من دبش؟» .

التفتُ إلى أمي التي نهضت من مكانها وطالبته النقود فانتبه إلى أنها قد تسببت بانقطاع كلامه فصاح بها : إذا لم تجلسي فأنت طالق . . إنت فد وحدة دماغ سز . . كان ذلك أيام الحصار وتعال يا عمي شيلني . . بدأ يفقد أعصابه مع زينب التي قالت له إن لم تصل النقود في الموعد المحدد إلى أمها فلن تتمكن من التماثل للشفاء وستوبخه العجوز كثيراً ولن تتمكن من إجراء العملية ، فكيف العمل؟ ولماذا تفعل هذا؟ . . تكلم؟

أليس كذلك يا أمي زينب . بيبي صبيحة كانت مريضة وكان الطقس بارداً؟ والأحوال سيئة جداً بعد أن انتهى من الخدمة في الجيش الشعبي . . احتاج لبعض المال لفتح حانوت في واجهة المنزل ، فاستدان من صبيحة ، التي أصبحت تزرق الإبر أيضاً ، خمسة آلاف دينار لم تعد قيمتها تساوي طبقة بيض واحدة ، وكلما طالبته أمي بإعادتها يقول لها إن العمل عمل الله وإن المبلغ الذي معه لا يكفي حتى للصعود إلى سيارة أجرة . . باب المطبخ انفتح تلاه صوت شيء ما يسقط على الأرض فأحسست بنفسي تسقط فوراً إلى تلك اللحظة المخيفة من الصراخ . اليد التي تعتصر قلبي هي نفسها ، والصوت الذي ينطلق إلى ما لا نهاية يجب أن يتكرر كل يوم . . . . أصبحت الظلمة ثقيلة فصاحت أمي زينب تسأله بنفاد الصبر :

– ما الذي سقط على الأرض؟

قال :

– لا أرى شيئاً . . وين الصخمان الفانوس .

ثم أغلق باب المطبخ واتجه إلى الحمام ، فمدت يدها إليه لتأخذ

اليه شمعة مشتعلة ، بينما انصرف هو إلى المرحاض لكي يبول . صوت بوله يفشي بأنه لا يصيب المرحاض وإنما ما حولها ، ولا بد في هذا الجو الخانق أن يتصاعد منه البخار . . . . دمدمت أمي بأنه طوال عمره كان يهددها بالطلاق حتى بعد أن ولدت له ولداً . . . لماذا يفعل هذا؟

رذاذ الماء يتطاير من القميص إلى وجهي وقت الخريف . . إذا علقته على الحبل بمشبكين من الكتف يبدو وكأن شخصاً خفياً يرتديه مفتوح الصدر . إذا علقته من نهايات الكمين يبدو هذا الإنسان مصلوباً على الحبل ، وإذا علقته من الياقة يبدو متهالكاً إلى أسفل . . الجو خريفي جميل ، وقطع السحب القليلة التي تحجب الشمس ، تلقي على الأرض ظلاً هادئاً ينساق خلفه عالم آخر . سمعت سيارة جارنا وهي تقترب من باب البيت . . صوت منبه . . ثم أقدام البنات وهي تهرول باتجاه المرآب لتفتح بابه . . أمه خرجت أيضاً . . عرفت ذلك من وقع نعليها على بلاط المرآب ، فنظرت من السياج إلى السيارة ، لأني عرفت أن أسامة بداخلها . ثم نظرت باتجاه شجرة النارنج . . فرأيت الحمامة وقد استقرت على غصن الشجرة . . كانوا يضحكون ، فضحكت من مكاني خلف السياج . . أخت أسامة كانت تحاول أن تستولي على اهتمامه بالسؤال :

- ما هو الشيء الذي له أسنان ولا يأكل؟

- المشط

- ما هو الشيء الذي له عين ولا يرى؟

- الإبرة .

- ما هو الشيء الذي له أرجل ولا يمشي؟

- المنضدة

لامس الهواء البارد جلدة رأسي فانتشيت بلمسه الذي أنساني شعري الذي تطاير في الهواء . . أخي مصطفى هو الذي رآه وانتبه إليه من الشارع وهو قادم من عمله المسائي . . كافي عاد . . صعد كالمجنون إلى السطح . . فرت الحمامة ثم عادت واستقرت على غصن الشجرة ، وخلع حزامه وضربني به . . . رأسه الفولاذي يشبه زناد مسدس في يده . . وكلما ضربني تكورت على نفسي أكثر وأكثر . . انتبه أصحاب السيارة إلى صياح جيرانهم فكان الخجل يوجعني ويحرقني أكثر من الضرب . . كافي عاد . . كان اشتعالي شبيهاً باشتعال آلاء . . اهتزت الأبواب وانطفأت شعلة الفانوس وأصبحت أمي بلا حراك تقريباً فوق الأريكة . كافي عاد . . وعندما انتهى من الضرب ، تململ الرجل الذي هو أبي من مكانه وتذمر بكلمات قليلة قبل أن ينهض إلى خارج البيت ليجيء بالنفط ويملأ به الفانوس . أما أمي فلم تقل سوى كلمتين : شصعدك للسطح؟ ثم تحركت بحركة من حركاتها المخيفة وأمرتني بأن أطفئ جهاز التلفزيون وأتعشى ثم أنام . حملتْ الماء ومضت إلى غرفة النوم . . سمعت صوت انغلاق باب غرفة النوم بالمفتاح فأحسست بنفسي تسقط فوراً إلى الخوف . . . . حاولت أن أنام على أريكة الهول ، ولكن ذلك الشيء الذي لا أعرفه يحدث خلف الباب . . كان نقيق الضفادع قد صمت وحلت بدلاً عنه قعقعة عربات وصهيل خيول وصيحات رجال عالية تشبه تلك التي يطلقها الهنود الحمر في الأفلام الأمريكية . . توقفت الخيول قرب باب البيت ثم هبط منها ثلاثة رجال من رعاة البقر .

قال أحدهم للمرأة :

- أخيرا يا ساقانا . . . سنأخذك رهينة معنا .

بعد الفيلم أعلن المذيع عن وجود حاملات للطائرات في الخليج العربي . . عن إطلاق الصواريخ في مناورات عسكرية . . عن زيادة حصة العدس والزيت والسكر . . وخبر أتذكره بوضوح شديد عن تغيير اسم شارع الكفاح إلى شارع غازي . . جلست أحكي قصة لنفسي بعد أن أغلقت التلفزيون . . قلت لها قصة الغيمة الصغيرة التي لا تطيع والدتها والحوت الذي مل من أكل السمك فأكل القارب بما فيه . . يا بيبي صبيحة ، قد نسيت أن أخبرك عن الشارع الذي غيروا اسمه . . كان يجب أن أخبرك بهذا من زمان لأنك كنت ستفرحين بعودته إلى اسمه القديم ، أو قد لا يهمك من الأخبار سوى زيادة العدس . . تصوري أنني شاهدتك تأكلين ورق العنب النيء من القمرية ولم أكن أفهم ما يعني ذلك . . الآن عرفت ذلك . . برز الثعلب يوماً فى ثياب الواعظينا . . فمشى في الأرض يهدي ويسب الماكرينا . . ويقول الحمد لله إله العالمينا . . يا عباد الله توبوا فهو كهف التائبينا . . واطلبوا الديك يؤذن لصلاة الصبح فينا . . فأتى الديك رسولاً من إمام الناسكينا . . فأجاب الديك عذراً يا أضل المهتدينا . . بلّغ الثعلب عني مخطئٌ من يظن يوماً أن للثعلب دينا . .

نسيت أيضاً أن أخبرك بأني رأيت الطائرة في السماء لأول مرة في حياتي أيضاً بعد ذلك اليوم . . . غابت الشمس وجاءت تبارك وقالت هيا نصعد إلى السطح لنلعب التوكي . . ونأكل هناك . وبدلاً من أرمي باكيت الجبنة الفارغ إلى الأزبال وضعت فيه دبابيس الربطة وحفظتها في الجرار . . كان الحصار قد تعرض إلينا فقط . . لا آن ولا ودان . . أصبحنا في الأرض التي لا يمر بها إنسان . . فباع أبي مسدسه ، وأدمن الشرب فتحول رأسه الفولاذي إلى بخار . . حياتنا أصبحت تمر من خرم

المسدس . . وحل الظلام في زقاق الخيرات الذي تضاربت بشأنه الأسماء . . فالجيران يسمونه بالزقاق الخامس نسبة إلى تسلسله بين أزقة المنطقة ، والغرباء يسمونه بزقاق الخياط نسبة إلى الأوتجي أبو فيصل الذي يمتلك ، بالإضافة إلى المكوى ، محل خياطة في نهاية الزقاق . . أما زقاق صديقتي تبارك فلا يتعرض لشيء من الحصار . . يرفض كل جوع أو عطش . . وفي رمضان حملت لي من بيتهم علب المربى والجبنة والببسي كولا . . . . كنت أعلمها كيف نلعب التوكي على السطح العالي ، فرأينا طائرة تسرع في السماء ، وتذكرت الطائرة التي سافرتْ بها أم نبيلة المخبلة إلى مصر وولدت بها نبيلة المخبلة . . هذا كل ما نعرفه عن الطائرة . . وكنا قد سمعنا كثيراً عن الطائرات التي سافر بها الناس أيام زمان ، حتى الذين يعملون منهم في السوق الشعبي . . ولكنْ كانت تلك هي المرة الأولى التي نرى فيها طائرة في السماء . نظرنا إليها ثم هبطنا خائفين بعد الفطور . . لم تكن أمي تعرف ماذا حدث ، لأن الطائرات لم تكن تظهر في السماء . . ولكن أبي أخبرها بأن هناك ضربة للعراق . . وما هي إلا دقائق حتى سمعنا قصفاً شديداً باتجاه مكان بعيد . . . هبط أبي من السطح وقال إن الدخان قادم من مكان قريب هو على الأرجح فندق الرشيد الذي توجد على عتبته صورة بوش . . ثم ضحك مترنحاً وقال : من طكه بلابوش .

مرآة الجميع

عاد الولد الأبيض بعد أن سحب كونية(*) الكرب إلى الخارج واختفى فترةً طويلة . . أصبح تحت النخلة مستنداً بظهره إلى جذعها ، ثم لملم أطراف فمه كلها كمن يجمع زوايا صُرّة ليعقدها . . الخشخشة الخافتة لا زالت تنبعث من قمة النخلة . . شيء آخر من التمام الماضي في ذلك الصوت الضعيف . . وبعد كل زيارة كنت أجد قبوراً متناثرة في أماكن مختلفة يثوي فيها بعض القتلى المجهولين ، وقد كُتبتْ عليها أرقام وتواريخ والأماكن التي وجدت فيها تلك الجثث ، كأن تكون ساحةً عامةً أو طريقاً سريعاً يمر بمناطق يسيطر عليها الميليشيات . . هل جننتم؟ ألا تعلمون أنكم ستمرون بمناطق يسيطر عليها المسلحون . . هل هذا معقول؟

قبل سنوات تصديتُ لماري وقلت لها أنا ذاهبة للمقبرة أخيراً ، وسأتلفلف بعباءة قديمة سوداء ، وأستعمل طريق ديالى القديم . . قالت كلا هذا خطر للغاية . . قلت لها سأتلفلف بعباءة سوداء جديدة وأركب سيارة النفرات وأستعمل طريق ديالى الجديد . . قالت هذا أخطر . . بين بغداد وديالى هناك ثلاث مناطق للبلع والعلس ، كُلٌّ واحدةٍ من

(*) الكونية : كيس كبير من الجنفاص لوضع الغلال أو الحطب .

ملّة . . . وبعد العلس ستلعنين اليوم الذي جئت فيه إلى هذه الدنيا . . فهل جننت؟ هل جننت؟ نعم جننت ولا يوجد عندي حل آخر ، لأني لم أذهب للمقبرة منذ عام . . أعرف الطريق جيداً يا أمي . . ألم أستعمله في الذهاب مع بيبي صبيحة بين البيت والمقبرة عدة مرات؟ . . . حفظته وحفظت أشجاره والمقاهي المنتشره على جانبيه . . . ومنذ تلك الأيام لم أتمكن من المجيء بأية طريقة بعد ذلك ، وها أنا أكتشف اليوم أن عدة أعياد قد مرت على تلك الزيارة . . أيامك سعيدة يا زينب .

لا أعلم سر انجذابي إلى هذا المكان . . غائم ويثير الأسى ، ولكنه يجعلني لا أقوى على التوقف عن الكلام أو الابتعاد عنه إلى أي مكان آخر . . وما إن أصل إليه حتى يبدأ الزوار الذين جاؤوا بعد صلاة الفجر بالمغادرة . . فلا تنامي على ذراعك طوال الليل ، لأنها قد تؤلمك . . وانتظري حتى يغادر الجميع فأكمل لك بقية القصة . . حبات الزبيب الهشة في يدي . . أكلتها دفعة واحدة ، وبقيت واحدة مختبئة في قعر الكيس الشفاف . . تمنيت أن لا يراها أحد . . خطية . . بقيت زبيبة سوداء مختبئة في الكيس يا ياسمين . . دعيها وشأنها يا زينب . . . إنها أنا . . شعرت كأنني نمت في غرفتي ، واستيقظت في مكان آخر وأنا أرتدي بجامة منقطة بلونين بدلاً من دشداشتي النيلية ذات الأغصان البيضاء . لم يخبرني أبي بما حدث بعد أن عاد من المستشفى وأكل العشاء على مضض . . ولكني سمعت بيبي صبيحة تحدثه بصوت واطئ وتلوم نفسها على الخطأ الذي حدث في المستشفى ، ولم أتوقع أبي أن يكون على هذه الدرجة من الحزن عندما قال : ولكنها ابنتنا . . ثم أصبح الحزن أكبر من الأول عندما قال :

ولكن الأخرى هي ابنتنا أيضاً . . . فماذا يفعل؟ لقد أصبح عنده بنتان .

صمت قاطع التذاكر فجأة وأصبح ينظر بحيرة وكأنه يحاول استرجاع شيء ما ولا يستطيع . كان قاطع التذاكر لا يزال يجول المحطة وينظر إلى كل زجاجات الفاركونات المقفلة ويبتسم وكأنه ينظر إلى نفسه في مرآة . قال أبي وهو يفرك جبهته بأصابعه : أنا حائر لا أدري ما أفعل؟! . . فقلت لنفسي إن ما يحدث الآن لا يحدث حقاً . .لا يحدث . . أقصد . . غير موجود الآن . . مثل آلاء التي أحلم بها وهي غير موجودة . . مثل أمي التي لم يعد لها وجود . . كان صعباً أنْ لا يكون لها وجود . . ربما لو كانت موجودة لما كان قد أصبح عندي أمَان . ما هذا الظلام؟ ولماذا أتعذب وحدي في هذه الحياة بهذه الطريقة الغريبة؟ . . على الأقل لو كانت أمي موجودة ، لتمسكت بي وقالت لي : ما دامت هي معي فليس من أحد يمكنه انتزاعي منها حتى وإن كانت ماري .

الوقت نهاية تموز عندما أخذتني ماري معها إلى البيت أول مرة ، وكان أبي قد تزوج توّاً من خالتي زمان التي رأيته يرفع شعرها ويشق قميصها عندما كانت أمي في المستشفى تغسل كليتها من الوسخ المتجمع في دمها . أطلقت أختها آهة حائرة ثم صمتت فجأة وهي ترى قاطع التذاكر ، وقد لبث أمام إحدى زجاجات الخمر التي تواجهها تماماً ، وراح ينظر إليها وهو جالس على الأرض وصحن الكباب أمامه وكأنه يشاهد عرضاً تلفزيونياً . . وتذكرت ما تقوله بيبي صبيحة من أن الخمرة تذهب العقل من الرأس . قوس الغرفة أصبح أصغر ، أو تحرك أقرب من ذي قبل ، وقاطع التذاكر يواصل زحفه إلى زمان وهو يترنح

كالخرقة حتى اقترب من الباب وقال باستغراب : أمجنونة هذه؟ ماذا تفعل هنا؟ فهربت من ثقب الباب وانخطف لوني .

أغمضت عيني على صورة يده الموضوعة فوق قدمها ثم بطنها العارية . التف عليها كالأفعى ، وكانت هي المرة الأولى من تلك المرات الثلاث ، التي أنتبه فيها إلى ملابسها جيداً وأجد أنها ترتدي قميصاً شفافاً وتضع كحلاً فاحماً حول عينيها الكبيرتين . رأيت اختك يا زينب تتقدم على شكل دائرة وتتحدث بكلام غريب . فتحت عيني مرة أخرى على غرفة فيها بياض شديد وفيها رائحة سرير معدني . ما أهدأ المكان وما أجملَ صوت البلابل . . . حركت رأسي بصعوبة واعتقدت في تلك اللحظة أني مت وذهبت إلى الجنة بجدرانها البيضاء اللامعة وسقوفها العالية التي يدخل منها الضوء . بعد ذلك بلحظات ، حوّمت الطوافات العسكرية في السماء وحطّت البعوضة مرة أخرى على ظاهر قدمي ، فاعتدلت في نومي دون أن أنهض . كانت خالتي قد هرعت إليّ ، بعد أن سمعت صوت سقوطي على الأرض ، ووضعت وصية في أذني بأن لا أروي ما حدث لأحد ولا حتى لتبارك . حلمت بك ذلك اليوم تجلسين في الشمس وفي إصبعك الكشتبان فسألتك :

– ماما . . عندما أموت أين أذهب؟

– . . . . . .

– لا أريد أن أذهب إلى الجنة عندما أموت . . أريد أن أعود إلى بيتنا .

ولكن بيتنا سرعان ما امتلأ بإخوة جدد . . ثلاثة أولاد جاؤوا دفعة واحدة كصغار القطط . . حسام وهمام وسلام ثلاثة إخوة لمصطفى ،

وقبل ولادتهم غادرت بيتك يازينب إلى الأبد . . كنت بين أسبوع وآخر أذهب إلى بيت ماري وعبد الأحد . . بيت ياسمين الثانية . . ثم تقاربت الزيارات حتى صارت بين يوم وآخر . في يوم التعارف عليهم اخترقني الخجل وراحت حتى عيوني تخفق بعنف وخفتُ من الالتفات إلى الرجل الجديد أبي . . كانت كل الغرفة تختزل في قطعة سجاد مبسوطة تحت قدمي وعلى يمينها أخط خطاً بالمسطرة . . . . الآن موجودة وبعد قليل أصطدم بسجادة أخرى . . الآن موجودة وبعد قليل أختفي عندما تدوس ماري على دواسة البنزين فتبدو أصابعها المطلية باللون الوردي مثل قدم اللعابة . . في كل مرة كان الرجل الجديد أبي يسحب النظارة الطبية عن عينيه ويغلق الكتاب الذي في حضنه من جديد ، ويبتسم لي بطريقة تبعث على الأمان التام . أخجل من النظر إلى موجودات الغرفة التي راحت تتضح شيئاً فشيئاً ، بعد أن كانت غارقة في السواد ، فأستغربُ مع نفسي لماذا تأخرت ياسمين عن دخول الغرفة طيلة هذه المدة هناك ، برغم أنه ليس ثمة سبب محدد يدعوها إلى هذا التأخير . توقف المطر فجأة كما بدأ فجأة ، فوجدت نفسي في صالون كبير يغني فيه هيثم يوسف أغنية حزينة ، وأنا أشعر بخجل لم أجرب مثله في حياتي . . . ثريات ومزهريات وتحفيات . . . والأرض مغطاة بسجادة بيضاء اللونِ ، والسقفُ تتدلى منه ثريا جعلتني أشعر بالحرارة من شدة الوهج الذي تبعثه مصابيحها الصفراء . . شعرت أن الدفء قد جعل وجهي ذهبي اللون وربما أحمر . . ولكن المرأة التي ترتدي تنورة ولا تضع حجاباً على شعرها دخلت وقالت لي :

– أين كنت يا ابنتي؟ ما أحلاك . . تعالي تعالي .

– دقيقة .

- ماذا تفعلين؟ لا تعدّلي حجابك . . هذا أبوك وأنا أمك .

- دقيقة .

- اخلعيه يا ابنتي . . جميعنا أهلك . . هذا أبوك وأنا أمك وهذا أخوك أدور؟

- لا تخلعيه يا ابنتي . . دعيه . . كما تشائين . .

لم أشعر بأنني في المكان الصحيح . . . كلامها كان بعيداً ، وكان الصالون أكبر مما ينبغي . . أخي اسمه أدور وأمي اسمها ماري . . وما اسم أبي . . الحمد لله ، إن اسمه عبد الأحد . . وكان يشبهني إلى حد كبير . . ويتكلم بهدوء شديد لكي لا أفزع ولا أخاف . . وهو الذي قال لي عن الحجاب لا تخلعيه يا ابنتي . . لا تخافي من شيء . . دعيه . . كما تشائين . كأنني عبرت نهراً عريضاً بلا قارب ، وبصعوبة بالغة وجدت نفسي على اليابسة . . أريد أن أعرف ماذا يحصل؟ وما الذي أتى بي إلى هذا الجانب من النهر ، لكي أجد أهلي الحقيقين في مكان آخر ، وأجد نفسي أتنفس بصعوبة؟ . . أنا لست أنا . . ميتة من الخجل والخوف . . . بعيدة عن المصابيح البيضاء ولهيب الشمس . . تاركة خلفي أخي مصطفى وأبي محمد وأمي زينب التي ماتت بعد عجز الكليتين ، فكانت الوحيدة التي سكنت في المكان الصحيح . . . قالت أمي وأم ياسمين الأخرى تقريباً ، وهي تحضنني مرة أخرى :

- لنذهب إلى المطبخ .

كان ضوء المطبخ خافتاً . . يشبهني بوصفي ابنتها . . صامت وبابه موصدة . . خفت من المطبخ . . إنه أشبه بنفق مظلم وأنا أقف عارية فيه . . خفت أن يوجد من يتربص بنا في هذا النفق . . افتقدت رائحة النفط المنبعثة من الفانوس ورائحة الحطب المنبعثة من الحمام في بيت

زينب . . افتقدت الأبواب المفتوحة على الزقاق . . كانت ماري مرحة وكثيرة الضحك ولم أجرؤ على فتح فمي لأطلب منها رفع يدها عن كتفي . . اعتقدت ان أية كلمة تقال في هذا المكان الهادئ قد تتسبب لي بفضيحة ، ورأيت في الكيس الشفاف للمعكرونة حبة متبقية ذهبت إلى الزبالة بدلاً من القدر .

لا يزال الولد الأبيض يجلس تحت النخلة مستنداً بظهره إلى جذعها . تحسس بيده موضع المصيدة في جيبه ثم لملم أطراف فمه كلها كمن يجمع زوايا صُرة ليعقدها . الخشخشة الخافتة المنبثقة من قمة النخلة لا زالت تتردد . . لم أكن أرفع رأسي إلى أعلى . . أتكاسل عن أفعل ذلك . . شيء غير قمة النخلة كنت أنظر إليه وأنا أستمع إلى غناء الرجل الجالس في الأعلى . . في النهاية وجدت أني كنت أنظر إلى مصيدة الولد الأبيض ، وأسمع صفارة الإسعاف في مكان قريب . وبعد وقت ما قال الرجل الجالس في الأعلى إنه سينزل بعد قليل .

هناك كؤوس رياضية على الأرفف ، وصور شخصية على رف البيانو أضافت إليها ماري صورتي . . . روت لي كيف أنها أخذت دروساً للبيانو على يد بياتريس أوهانسيان ، تلك الفنانة الأرمنية الرقيقة الأنيقة بنت (المربعة) التي تقع بين السنك وسيد سلطان علي وسط بغداد . هي البكر بين ثلاثي يمتهنون الموسيقى ، اثنان يعزفان البيانو الذي يتصدر صالة الجلوس في المنزل الجميل ، وأرشان الثالث يلعب الكمان ليصاحب البيانو طوال الوقت . كانت مدارس راهبات التقدمة في المصاف الأول بين مدارس بغداد الأهلية للبنات من حيث المستوى . هكذا وجدت ماري نفسها تداوم في المدرسة نفسها التي داومت فيها بياتريس منذ طفولتها بين تلميذات مدرسة الراهبات في

محلة (رأس القرية) القريبة من (عقد النصارى) . هناك وجدت ضالتها لتعلم الموسيقى بدراسة العزف على البيانو والترتيل ضمن جوقة الإنشاد للمدرسة ، وكانت تقول لي إن ثمة صوتاً يدندن في داخلها طوال الوقت يقول لها إنها لن تكون غير موسيقية محترفة ، وازدادت دندنات هذا الصوت في كل لحظة تعيشها ليصل الأمر بها إلى نوع من الهوس والعشق . هكذا كانت بداياتها في تعلم الموسيقى . فهي كانت تذهب كل يوم أحد إلى كنيستها الأرمنية ببغداد التي كانت قريبة من كنيسة أم الأحزان الكلدانية ، لتنعش نفسها بالألحان الكنسية التي كانت تؤديها مجموعة كورال متعدد الأصوات . أخذت مذ ذاك تتململ في مجلسها داخل الكنيسة قريباً من جماعة الإنشاد ، وتردد بصوتها الرقيق كل ما يرتل أثناء القداس ليتطور الأمر فيما بعد إلى العزف في الكنيسة على آلة الارغن الهوائي قطعاً موسيقية وتراتيل دينية . في بيتها كانت ماري تستمع إلى جهاز الفونوغراف اليدوي وهو يدور ليحيل صمت الأسطوانات إلى تسجيلات من روائع الموسيقى الكلاسيكية لموسيقيين عظام من أمثال : شوبان وباخ وموزارت وبيتهوفن وشوبارت وبرامز . تسمي ماري تلك الأعمال بالماستر بيسز . . لكن اسمعي يا ياسمين ، إن هذه القطعة من كونشترو البيانو هي لمعزوفة من أجمل مقطوعاتها اسمها الفجر ، فقد كانت أوهانسيان أول مؤلفة للموسيقى الكلاسيكية وأول عازفة منفردة بالعراق وعضو رئيسي في الفرقة السمفونية العراقية . . كما قدمت مع زملائها عروضاً فنية جميلة في بلدان عديدة . . وكانت تقيم الحفلات بصورة مستمرة في مقر الفرقة السمفونية الكائن في منطقة الوزيرية .

تأخرت ياسمين الأخرى في الهبوط ، وعزفت ماري ترنيمة الشكر

ثم ترنيمة السلام ، حيث قالت إن الدو يصعد من الصول والري ينخفض باطراد . . فترتفع الموسيقى من الأرض إلى السماء ويحل السلام . . يداها مدربتان على كل شيء جميل . . وقالت إنها كانت في شبابها تحب العزف كثيراً . . أما الآن فإن الصوت العالي يضايقها والماء البارد يؤذيها ، والحلاوة الزائدة تتعب معدتها ، وهذه هي سن الشيخوخة . . . الحمد لله أن العاطفة تبقى موجودة ، وإلا كنا أصبحنا ككوندليزا رايس التي كانت تجيد العزف على البيانو إجادة تامة ولكنها تركته إلى السياسة لأنها كانت بلا عاطفة . كل اسم تلفظه وكل حرف تقوله يعني حاجزاً يجب أن أطفره إلى دنياها الجديدة . . دنيا الشهادات المؤطرة والمكتوبة بالإنكليزية وبخطوط مذهبة ، بينها صورة ذلك الشاب أدور الذي تنطق ملامحه بسماحة وطلاقة لا تجدها إلا في وجوه الأطفال ، ليس مثل مصطفى الغاضب على الدوام والذي يخيفني حتى عندما تكون الأمور على ما يرام ، فكيف إذا تكهربت وشارفت على الموت؟ . . حدث هذا عندما كنت أمسح البلاط فمسّت يدي سلكاً كهربائياً مكشوطاً مرمياً على الأرض ، فهزتني الصدمة ورمتني إلى الخلف . . وبعد ثلاثة أيام قال لي مصطفى لو كنت قد مت لخلصنا منك ، ولكان هذا اليوم هو ثالث أيام الفاتحة . .

ستكون صورتي بينهم غير صحيحة مثلما صورة ياسمين الأخرى لا يمكن تخيُّلها في بيت أهلي . . ياسمين الأخرى أصلاً لم تذهب إلى هناك . . التقت بأبي وبكت عندما عرفت بموتك يا زينب ، ولكنها لم تمكث هناك سوى أكثر من ساعة ثم هزت رأسها غير مقتنعة بفكرة البقاء أكثر من ذلك . . . . . اعتقدت ماري أن عليها معرفة مشاعر ياسمين وما يجول بخاطرها تجاه أبيها أوّلاً . . شعرتْ بالرابط بينهما

منذ اللحظة الأولى ، وبوجود عاطفة حقيقية . . لكن ياسمين الأخرى لم تعرف الفرق بين الحب والخجل ، لأن الصدمة طغت على كل شيء . . ولولا الصدمة لما هلعت من قضية ابن العم الذي كان ينتظرها بعد أن كان ينتظرني . . مازحتُها بالقول إنه وسيم جداً ويجب أن تراه . . ولكني في داخلي كنت أخشى أن لا يجد أبي في زواجها منه غضاضة ، كما فعل أهله مع زينب التي كانت سداداً لدين . كنت أتمنى أن يقايض ياسمين بالمال وهو يقول بأسف : لا حول ولا قوة إلاّ بالله . وينتهي الأمر . . ليته يعيدها إلى مكانها في القعر البعيد للدرج . . ليته ينساها في قاع علبة زبيب مظلمة . . لن يضايقه ذلك كثيراً وهو الذي لم يتبق منه إلاّ رجل مريض ضعيف البصر هو الذي اعتاد أن ينسى الأماكن التي يخبئ فيها أشياءه . . . . كان يبدو شارد الذهن عندما تزوره ماري ، وخالتي زمان كانت هي التي تدير الحوار وتعطي الأجوبة نيابة عنه . . . قالت لماري إنه مطمئن عليها معكم ما دامت مريضة وتحتاج إلى علاج مستمر . . ومطمئن عليها أكثر ما دامت مع ابنته الأخرى ياسمين التي يثق بخُلُقها وأدبها ، فهي ابنة زينب الحبابة ، وإنها تستطيع البقاء معهم مقابل أن تعلن شهادتها وتُشهر إسلامها وأن يراها بين الحين والآخر . . . . قالت له ماري غالي والطلب رخيص . . ولم تصدق أنه سيُطلق سراحها بهذه البساطة ، ولكنه فعل ذلك في النهاية إكراماً لمرضها الشديد . . لم يدر بخلده أنه يسدي لها المعروف مرتين . . مرة لأنه سيساعدها على الشفاء ومرة لأنه سيخرجها من تحت السلة التي دس تحتها ياسمين المخبلة مثل طفل مشوه . .

عثرت على نفسي جوة السلة وبقيت أنظر إليها . . إلى ذلك المفتاح في يدي . . إلى ستارة الغرفة التي تمتلئ بالفاكهة . . إلى

ملابسي التي أرتديها دائماً على عجل . . إلى العصفور الذي جاء يقول أين سهمي أين سهمي؟؟ سهمي جوة السلة(*) . الملابس الداخلية ، والفوط النسائية ، والمجلات الفنية ، والسكائر ، وقلم الكحل ، والشيرة ، وبكرة الخيوط ، وماكنة الحلاقة . . كلها كانت معي تحت السلة . . كلها تحت السلة ، لكي لا يراها مصطفى الذي أتخيل وجهه ملاصقاً لخشبة الباب التي تتسمر نظراتي عليها بهلع . . وهذه المرة أدوَر هو أخي الكبير لأنه كان البكر ، ولكنني لا أشعر بوجوده ، وما يحدث في البيت كأنه بعيد عنه ولا يخصه ، كأنني لست أخته وإنما ضيفة من صديقات أخته حلّت في البيت وستغادره بعد قليل . كان يتهيأ للسفر إلى جامعة كندية بعد سنة واحدة درس فيها الطب بجامعة بغداد . . يعني أكبر مني بسنة . . وليس أصغر مني بسنوات كما هو الحال مع مصطفى الذي لم تتحقق الفرحة إلا بَقْدَمِه . كان يتصرف كالكبار ويدس أنفه في كل شيء ، ولو أن لوحة الباب سقطت فجأة لوجدت نفسي في قبالة وجه ذلك الرجل الصغير الذي يشهر وجوده في كل مكان . . أما أبي محمد ففي التاسعة والستين . . أكبر من أمي زينب بأكثر من ثلاثين عاماً ، وعندما أقلب الرقم الإنكليزي في خيالي تبقى التسعة والستين على حالها . . كأنه كان عجوزاً منذ الأزل . . بينما عبد الأحد ، الذي قارب الخمسين من عمره ، وسيم الملامح . . ذو عينين خضراوين وبراقتين . . هادئ النفس وممتلئ بالسكون ، ويستطيع أكل رمانة كاملة بقميص أبيض دون أن تسقط منها قطرة واحدة عليه .

(*) جوة السلة : للدلالة على تشوه الطفل ، ويُقال إن الجنين الذي يولد مشوهاً كانت القابلة تضعه تحت السلة .

زوجته ليست كذلك ، لهذا فقد أحبّا بعضهما كثيراً جداً . . هي صاخبة بالحركة ، وهو ثابت في مكانه ويرتدي ملابس الخروج حتى عندما يكون داخل البيت . . بلوز أبو السبعة وتحته قميص بيج أو أبيض اللون . . وشعر سرح ممشط إلى الخلف على الدوام فوق رأس غارق بأفكاره . . ورثت عنه هذا الغرق . . يُخيل لي أن ستارة النافذة تتحرك أكثر مما يتحرك هو . . وعندما التقاني أول مرة أوشكت أن أبكي من شدة تأثره . . وقبل أن أفعل ذلك ، كانت أقدامه قد تحركت من جديد وتوجهت نحو الحديقة . وكابدت اليوم كله لأفهم ما حدث صباح ذلك اليوم . . فقد رأيته يجلس في الأرجوحة ويتحدث مع نفسه . . وقررت أن أنتظر يوماً آخر لأرى ما يحدث . نسيت مصباح الغرفة الرئيس مضاءً ، فذهبت لأطفئه ثم عدت . . جلست على فراشي ، وقبل أن أستوي تحت لحافي لأنام أقفلت الغرفة بالمفتاح . . .

في أول ليلة بت فيها عندهم ، نمت بهدومي التي جئت بها حتى الصباح . تذكرت عودة موحشة من سفرة وحيدة إلى سامراء . . لعلك تتذكرينها يا زينب . . بل هذا أكيد . . هناك ضعت للمرة الأولى ، لأني رفضت أن تقوديني من يدي ، فعادت بي إليك امرأة مسنة قالت لك إنها جاءت إلى مرقد الإمام الهادي لكي تفي بنذرها بتسليب ابنها ، الذي أسمته هادي ، من المصاغ الذهبي في الإمام . . سألتُك للمرة الأولى ذلك اليوم ماذا لو ضعت بعيداً عن البيت ولم يعثر علي أحد . . فقلت يا أمي لي كيف تضيعين وأنا موجودة في الدنيا؟ . . سأبحث عنك في كل مكان حتى أعثر عليك . . قلت لك ماذا لو سقطت في حفرة عميقة لا يعرف بها أحد؟ فقلت لا تخافي . . سأتشمم رائحتك وأجدك حتى وإن لم أرك . . قلت لك ماذا لو سقطت في بئر بعيدة

فوقها غطاء سميك لا يمكن لأحد معرفة ما موجود تحته . . قلت لي قلبي سينبئُني بمكان وجودك وسأراك . . أراك . . أراك حتى لو كنت في سابع ظلمات الأرض . . انعصرت روحي مرة أخرى بعد أعوام عندما سمعت جارتنا أم قاسم تقول إنها عادت من البحرين إلى العراق بسفينة اسمها جبل علي ، وإنها ظلت تبكي بعد أن انغلقت عليها باب السفينة وراحت تتوسل الطاقم لفتح الباب والهبوط من السفينة . ولكن المراجل كانت قد دارت وهي تحاول أن تهدأ بلا جدوى . .التمّ عليها الركاب وقرأ بعضهم الآيات القرآنية فوق رأسها . . ولكن الهستيريا كانت تتفاقم وصراخها يزداد ، إلى أن جاءت لها رئيسة الطاقم الألمانية بحبتي فاليوم وخُفّ منزلي كهدية ، فابتعلت الحبوب ونامت حتى مشرق الفجر . . . .

أنا أيضاً أصابني الهلع وكأنني اصطدمت بشيء حاد وغريب . . . لم أتوقع كل هذا الخوف . . شعرت بأن السفينة تأخذني إلى مكان موحش لا يشبه هذه المقبرة التي فيها أمي وبيبي صبيحة ومدحت شهاب الدين ، مكان مالح أسوأ من المقبرة . . أي قدر هذا في أن يكون البيت الذي طالما تمنيته من غير ديني؟ . . هناك توجد صور غريبة لم أشاهد مثلها من قبل . . لمريم العذراء والمسيح على الصليب ، وكذلك لكهف ينام فيه الطفل يسوع . . وللبيت رائحة طيبة تشبه رائحة سيارة جديدة . في نهار يوم آخر وجدت عبد الأحد لا يزال يتحدث مع نفسه في الأرجوحة ، وفي الليل أخرجوني إلى المطعم . . نزلنا إلى مطعم وحيد لم يقفل بابه بسبب الظروف السيئة . . هربنا من الحر . . مررنا بمستشفى الفرح . . لم تقل ماري إنها ولدتني هناك . . التفتت ماري إليها فقط . . وكان الصمت مسموعاً عندما التفت الجميع إلى الخطأ

الذي حــدث ، والذي لا زال يحــدث . . لو أنه لم يحـــدث لكانت ياسمين هناك في دور السود . . بدون تنورتها القصيرة وربما بدون مرض السكر أيضاً؟ الاسم يشبه الاسم والعمر يتطابق مع العمر ومسقط الرأس واحـد . . ولكن المكان هو الذي اختلف ، فكان ما كـان . . أنا لست أنا وهي ليست هي . . لم أستطع لحظة واحدة أن أكف عن التفكير بذلك الخطأ . . وأنه هو كذلك لم يدعني وشأني لحظة واحـدة . . مررنا بعد المستشفى بشارع الرواد . . في المنعطف قالت ماري :

- انظروا إلى هذا الكناس المسكين . . لماذا يلم الوسخ بدون قفازات؟

نظرت . . إلى الكناس المسكين نظرت . . كان ظهره يواجهنا بسترة برتقالية اللون عليها بعض الكتابة ، ولكنه التفت عندما تحدث إليه كناس آخر صارم الوجه ، صفعني وجهه وجعل قلبي يهتز . . كان هو مصطفى يدفع بالمكنسة إلى أمام ليكنس الطريق . . .هكذا؟ ماذا يفعل هنا؟؟ السيارة مظلمة من الداخل . . من مكاني فيها لا يمكن أن يراني ، لكن يمكنني أن أراه . . قد نحف قليلا . . ووضع على رأسه قطعة قماش برتقالية اللون . . رجل ثالث يقف قربه ويرشده إلى أوساخ يجب رفعها من حافة الرصيف . . كان المكان بعيداً بعض الشيء من بيت أهلي . . ويقع قرب منطقة المطاعم في المنصور التي لا يفصلها عن بيتنا سوى شارع الوشاش . مع أول عضة من الطعام تكسرت الغصة في صدري ونزلت الدموع كالنهر على وجهي . . أهذا ما كان يفعله أخي في الليل عندما يقول إنه خارج للعمل؟ . . أهذا هو عمله؟ لو رآني الآن سأشعر بالخجل مما أنا فيه . . هل هو مصطفى حقاً؟ هل

عرفت ماري أنه مصطفى؟ . . هل أُخبرها بأنه أخي؟ . . . . هل حقاً إنه أخي؟ ما يحدث لا يعود مرة أخرى . . والخطأ أيضاً لا يمكن تصحيحه ، فلماذا أنا ، يا رب ، جعلتني خطأ يكبر إلى هذا الحد . . وعندما جعلته يمشي على شكل إنسان آخر تحول الخطأ إلى فضيحة لن ينساها أحد . . لا بد أن يكون لهذا سبب ما . . لا بد أن أعرف السبب . .

مرآة الجسر

صباح اليوم التالي جاءت ماري لتقول لي خبرها السعيد . . إنهم مسافرون إلى الأردن لكي يضيفوا اسمي إلى أوراق ملف الهجرة التي كانت معلقة قبل ذلك . . فتحت الباب على مهل لكي لا توقظني من النوم ، وعندما وجدتني مستيقظة ونظرت إلى عينيّ ، حدست أنني كنت أبكي طوال الليل . كانت هي مرّتي الأولى مع الإحساس بالذنب . . ومرّتي الأولى مع الكحل الصريح . . وضعته على عجل قبل ذهابنا إلى المطعم ، فسال على وجهي بعد أن رأيت مصطفى يكنس الطريق ، وعندما عدنا إلى البيت نسيته كما نسيت نفسي . . ظنت ماري أنني لا زلت أشعر بالوحشة من المكان الجديد ؛ فحضنتني وقالت إنني وياسمين سندرس في جامعة كندية ، وإنني منذ الآن دكتورة . . . قالت إنهم لا زالوا ينتظرون أن يجدوا حلاً مع أبي . . أبيها قبل السفر ، لأنه لا يعرف ماذا يفعل ولا يريد إجبار ياسمين الأخرى على أن تغير المستوى الذي عاشت فيه خصوصاً وأنها مريضة . كنت أظن أن الحجاب هو أسوأ ما حدث لي في حياتي ، وها هي ماري تريد أخذي بعيداً عن البلد . . تظنني أفرح بهذا الخبر ، وكيف أفرح؟ . . . كانت تريد أخذي إلى مكان أكثر صمتاً من بيتها . أعتقدت أن وجودي معهم والربطة على رأسي سيثير اللغط ونظرات الفضول ، ولكن لا أحد يهتم في هذا الحي . . البيوت مقفلة على أصحابها منذ الحرب ولا نزور أحداً

ولا أحد يزورنا سوى العجائز من صديقات ماري . . وفي يوم الأحد عندما يذهبون إلى الكنيسة أرفض الذهاب معهم فيتركونني وحدي . . كم أفرح عندما يتركونني وحدي ، فأتحدث براحتي وأنا أشغل الوقت بترتيب المطبخ وغسل الصحون . .

طرْقات خافتة على الباب تلتها أخرى أشد خفوتاً سمعتُها من مكاني خلف حوض غسل الصحون ، فلما رفعت رأسي لمحت امرأة نحيلة اشرأبت بعنقها من فوق حافة الباب الخارجية للبيت ، وهي لا تكف عن الابتسام :

- من أنت؟

- . . . . . .

- أين ماري؟

- أنا ياسمين ابنتها .

تجعّدت ملامح وجهها الناعمة ونظرت إلي بغرابة . . ثم أسرعتْ خارجة من البيت ، وبعد قليل جاءت ابنتها (أسامي) وقالت لأمها :

- أي شرطة تستدعين؟ ألا ترين أنها نسخة من العم أبو أدور .

- ولكنها ليست ياسمين؟

أتكون هي نفسها أم عامر التي قالت عنها ماري إن ابنها أحمد في كندا . . ومحمد في بلجيكا . . وثامر في السويد ، وعامر في هولندا . . وأوس في أستراليا . . خافت مني وانتقلت من بابنا إلى بابها بلمح البصر ، وبعد أقل من دقيقة عادت ومعها ابنتها (أسامي) التي أكدت لأمها بأني لست لصة أو متطفلة . انفرجت أساريرها وهي تستمع للقصة التي روتها ماري بعد أن عادت من الكنيسة ، واعتذرت على

تركي وحدي . في الأول من أيلول غيّرت ماري عقارب الساعة من التوقيت الصيفي إلى التوقيت الشتوي ، فأصبحت ساعة البيت صحيحة ، بعد أن كانت تتقدم عن التوقيت بدقيقة واحدة . . اكتشفت ذلك منذ قدومي قبل ثلاثة شهور . . ولم أخبر أحداً .

قطعت ماري ثلاث وردات من الحديقة ثم ضحكت وهي تدفع باب المطبخ بقوة ، ولكن الباب لم ينفتح إلا بعد أن سحبته بيدي ، فوجدت الوردات مقلوبة في يدها . . رؤوسها إلى أسفل وأطراف أغصانها إلى أعلى . . عدت أدراجي إلى نفسي والتصقت أكثر بالجدار الملاصق لسرير غرفتي ، وبقيت مشدودة إليه لعل نأمة ما تنطلق من أرجاء البيت البعيد . . . . ربما لا يعلمون هناك في بيت أبي محمد أن الوقت قد تغير . . لم أكن أرى ساعة صحيحة ولا خاطئة هناك ، وعندما تنفد البطارية يكون من الصعب شراء أخرى غيرها . . يكون علينا أن ننسى أمرها ونعتمد الأذان لمعرفة أوقات اليوم . فتحت عيني على تلك الدنيا ولم أحتج للتعود عليها . . أما هنا فيريدونني أن أتعود على مهل . . ولا أجد طريقاً لتعود هذه الحياة . . بيت أمي زينب كان مفتوح الباب على الدوام . . تدخل إليه العجائز وقت ما تشاء وتخرج وقت ما تشاء . . وقد يطلبن السجادة من أجل الصلاة إذا ما ارتفع أذان الظهر دون الحاجة إلى الذهاب إلى الجامع . قد يأتين من أجل ملعقة معجون طماطم عندما كان المعجون باهظ الثمن وعزيزاً في التسعينيات ، ونفاده يعني محنة لأم البيت . . يضحكن في دقيقة واحدة ، وباقي الساعة يثرثرن . . . يستعرضن مساوئ رجالهن . . ويروين في الحوش ما حدث داخل غرف النوم ، ويحسدن أم تبارك أحياناً على أنها أرملة ، ويقلن لها احمدي الله ، على الأقل خلصانة

من غسل الدشاديش وضرب الأوتي(*) . . حتى أم تبارك كانت تنضم إلى تلك الجلسات أحيانا لتقول عن تبارك إنها جاءت بالغلط . . ماذا تعني أنها جاءت بالغلط؟ ولماذا هذا الغلط لم يشبه غلطي؟ . . لماذا ضحكت أمها لتلك الغلطة وأنا تحولت حياتي إلى محنة؟ . . . بيتنا كان ذائباً في بيوت الجيران . . مهروساً في زقاقه ، ولا يُقرع الجرس فيه إلا نادراً . . نهلع إذا قرع الجرس ، فهذا يعني أن القادم غريب عنا وأن مكروهاً ما قد وقع . . . عربات الأطفال ذات المظلات المهدبة بالكشاكش ليس لها إلا وجود باهت مستهلك لنقل الخضروات وقناني الغاز . . ولكل واحدة منها صاحب رماها إلى الزبالة فحملتها زمان إلينا . . فلو عدت الآن إليه هل سأرى البيت بتلك الشاكلة؟ هل سأشعر بأني ابنته مرة أخرى وأقبل أن أكون بلا وجود . . هَمْ بنية وهَم مخبلة . . تحكي مع نفسها وتركض من باب البيت إلى غرفتها . . لا سلام ولا كلام .

يا زينب كانت نساء الحوش يقلن لك . . لا تنهريها . . دعيها جالسة على الدرج . . لن تفهم شيئاً . . يا أمي كنت أفهم . . وفي البداية كنت أعتقد أن خاتم الزواج هو الذي يجعل الأطفال يأتون إلى الدنيا ، ما إن يضعه الرجل في إصبع المرأة حتى تحمل ثم تلد وتحمل ثم تلد وتحمل ثم تلد . ولكن المفتاح الذي يستدير في ثقب الباب هو الذي جعلني أحدس شيئاً آخر . . وأكشف عن شيء خفي وغامض وله علاقة بالحبل السري الذي درسناه في علم الأحياء . . كانت الست ريجينة تجمع بين العلم والأدب ، نحبها جداً لأنها أنيقة أيضاً وتتدلى

(*) الأوتي : عامية عراقية تعني المكواة .

من عنقها قلادة قصيرة فيها صليب ثقيل مرصع بالماس . . قالت لنا إن الحبل السري هو الحبل المرتبط بالسُّرة ، وإنها تعتقد أن كلمة السر قد جاءت من السُّرة وليس العكس . . . وانتظرتْ المزيد بعد سنوات ، فأسمت (أسامي) السرة بالسورة . . تلك الدوامة التي تدور حول نفسها في دوائر لا تنتهي . . وقالت إن الحبل الممدود بينها وبين مشيمة الأم ، والذي يقطع بعد الولادة ، هو حبل سري منسوب إلى السرة . . ومن هناك يكون السر ويأتي السر . . هذا صحيح فهو الشيء الذي يربطنا بالخفي من حياة سابقة ، وبيبي صبيحة كانت تقصه بالمقص لينفصل عن سر مخفي آخر هو الجنين . . و(أسامي) تقول إنه من كلمة الجنين اشتقت كلمات الجن والجنون الذي يعني اختفاء العقل . دائرة لا تنتهي من الأفكار التي تبدأ في المقبرة وتنتهي في مكان آخر . . فهل أنا مجنونة وناقصة عقل كما يقول أبي؟ وهل السر يعني الخطأ أيضاً . . يعني أننا نخفيه لأنه خطأ ما كان له أن يحدث؟ يعني أنه عيب أو فضيحة . . يعني أنه غرفة مقفلة على درج مقفول . أنا متأكدة الآن أن تلك الأسرار هي التي كانت تأتي بكل ذلك الضحك لصديقاتك من نساء الحوش . . لا يضحكن في الصباح إلا عندما تأتي سيرة الغرف المقفلة ليلاً . . أكاد أعرف الآن أنهن يضحكن لتسفيه الخطأ لك . . لو كان شيئاً موقراً ما كن ضحكن كل ذلك الضحك . .

بدأت أفقد من وزني الكثير . . أصبحت نحيفة تتهدل ملابسي فوقي وتنزلق التنورة من فوق خصري . . وكل الفواكه والأسماء الجميلة التي كانت تجعل حياتي نعيماً في بيت تبارك ، أصبحت تحول حياتي إلى كابوس في بيت ماري . . الشعور الذي تخيلته عندما سألت أمي ، يحدث لي الآن . . كنت أخاف من الضياع ، فتقول أمي لي كيف

تضيعين وأنا موجودة في الدنيا؟ . سأبحث عنك في كل مكان حتى أعثر عليك . . أقول لها ماذا لو سقطت في حفرة عميقة لا يعرف بها أحد؟ فتقول لا تخافي . . سأتشمم رائحتك وأجدك حتى وإن لم أرك . . أقول لها ماذا لو سقطت في بئر بعيدة فوقها غطاء سميك لا يمكن لأحد معرفة ما موجود تحته؟ فتقول لي قلبي سينبؤني بمكان وجودك وسأراك . . أراك . . أراك . . لا أتعود ولا أشعر بالأمان لكلامها . . وأشعر بأني ضائعة تحت الأرض . . أتمنى أن أظل عالقة لا أزال في الحبل السري . . حبل ملتف لم يقطعه أحد . . وأنا لا زلت جنيناً في بطنها ، والحبل البشع الغليظ يمتد من سرتي إلى المشيمة . . مشيمة زينب أو ماري هذه المرة . بدأت أشتري دفاتر رسم كبيرة أخفيها في غرفتي المستقلة . . في كل ورقة جنين والحبل الغليظ يمتد من بطنه إلى الفراغ أو إلى شيء آخر ، ولما جاءت فكرة السفر كنت أضع ذلك الجنين في سيارة والحبل السري ممتد من بطنه . . أو على جناح طائرة والحبل السري ممتد من بطنه . . أو فوق قارب والحبل السري ممتد من بطنه . . كنت أكتب أيضاً كلمة السرة وأرسم حولها دوامات لا تنتهي . . الآن فقط أتذكر أنني عندما كنت أبكي أتكور على نفسي كما يفعل الجنين . . وعندما تأتيني الدورة الشهرية أختبئ خلف خزانة الملابس . . يكون ذلك بسبب الخوف في بيت زينب ، وبسبب الوحشة في بيت ماري .

ياسمين أختي وليست أختي . . أصبح اسمها ياسمينة لكي يميزوها عني . . جاملوني بالإبقاء على اسمي لكي لا يزيدوا من غربتي . . ومثل أي فتاة وجهها مليء بحَبّ الشباب كانت هادئة ومنطوية على نفسها وأولى على المدرسة . . وينادونها منذ الآن

بالدكتورة . . لم ترث من أبيها عظمة الأنف فهي ليست ابنته . . ولا من ماري شعرها الأشقر لأنها ليست ابنتها . . أنا التي ورثتها مع بياض البشرة ولون العيون . . أما هي فقد ورثت عن أبي محمد أنه أعسر اليد . . جلسنا على المائدة ذات يوم ، فظلت تلكزني بخاصرتي طوال الوقت لأنها تأكل بيدها اليسرى . خاصرتي متحفزة وأنا غير مطمئنة . . إلى أن صرختُ وهجت وبكيت ودخلت في غيبوبة . . أفقت من الغيبوبة وأنا على الفراش بعد ساعات . . تلك النوبات العارضة من الصرع كانت قد اختفت من حياتي منذ أمد طويل ، ثم عادت مرة أخرى عندما جاءت أختها إلى البيت ورقصت لأبي وأكلت الكباب . . خالتي زمان أختك يا زينب ، جاءت بملعقة وضعتها في فمي ووصية وضعتها في أذني بأن لا أخبر أحداً بما رأيت . . كانت تلك النوبة قد حدثت بعد عشرة أعوام من المرة الأولى عندما ضربني أبي بسبب وقوفي وراء الباب أتنصت لما قد تقولانه عني . . وخفت أن تأخذني ماري إلى طبيب نفسي فأُوصم بالجنون ، ووجدتُ أنها تعرف كيف تتصرف مع هذه النوبات ، وتعرف اسم الدواء واسم الطبيب أيضاً .

زينب كانت تعالجني بالرقية والاغتسال بماء الوضوء وبقراءة سورة «النحل» بعد صلاة الفجر ، وسور أخرى كـ«الكهف» و«الإسراء» و«مريم» و«المعوذات» بعد الصلوات . . الشيخ كمر هو الذي نصحها بذلك وبالعلاج بضوء الفجر وقتَ بداية طلوع الشمس ، حيث يكون هواء الفجر مشحوناً بالأوكسجين النقي ، وعند استنشاقه بعمق فإنه يخفف التوتر ويزيل الاكتئاب ، وبما أن الله تعالى قد أقسم بالفجر ، والله لا يقسم إلا بعظيم ، فلا بد أن يتميز ضوء الفجر بأشياء عجيبة ، وأن تكون له منافع جمة على حياة البشر . ولكن زينب لم يعد لها

وجود لترقيني بالقرآن وقت الفجر ، وها هي النوبة تحدث مرة أخرى بسبب يد ياسمين اليسرى ؛ فتأخذني ماري إلى الطبيب الذي كان يراجعه أبي عبد الأحد قبل ثلاثين عاماً . . دليل آخر على السر . . دليل آخر على أن مكاني هنا هو الطبيعي ، وأنه ليس كئيباً أو كاذباً . فعبد الأحد يعرف أنها نوبات مؤقتة ، والطبيب يقول إنها غالباً ما تصيب الإناث في سن المراهقة بعد زعل شديد أو عصبية شديدة أو خوف شديد . تشنج في الأيدي والأرجل ، صداع شديد في الرأس ، صراخ وهلوسات ، وتستمر النوبة من دقيقة إلى ثلاثين دقيقة ، وعند نهاية النوبة يكون تشاؤمي من الحياة أقوى من كل شيء .

في نهاية تشرين . . ياسمين الأخرى قُبلت في كلية الطب . . وأنا كنت لا أريد أن أفكر بشيء من هذا القبيل . . فقط أردت أن أداوم حيث قُبلت تبارك ، وبهذا أعود لأيام قديمة فَصلت بينها ثلاثة أشهر من عطلة الصيف ، ووجودي تسعين يوماً في بيت ماري انتهت بشهر رمضان ؛ فتركتني ماري أصوم الشهر كله بالرغم مما أصبحت عليه من نحافة ، بل هي صامت معي صوم العصافير للأيام السبعة الأولى ، ثم بعد ذلك راحت تمد الصوم حتى الغروب لكي تفطر معي ، وتتسحر معي وتكابد الجوع معي . كانت بعد أن نفطر تطري فوائد الأكل بعد الحرمان وتقول إنه إحساس جميل جداً لم تجربه من قبل . . إحساس لا يشبه صوم الأربعين يوماً قبل عيد الفصح ، لأنها تمتنع فيه عن اللحوم والبيض والألبان ومشتقات الحيوان فقط ، وليس عن الطعام والشراب وكل شيء .

القرط الذهبي ، هدية أمي زينب لنجاحي في البكالوريا ، عاد إلى أذني ، والبلاكُ بيري ، هدية أمي ماري في يدي . طرفان من الزمان

يمتدان لعدة أشهر ، ويفصلان بين دنيا قديمة ودنيا جديدة . . تقول تبارك إن نتائج القبول قد ظهرت . . وإننا أنا وهي قد قبلنا في كلية واحدة هي العلوم . . حول صوتها كان ضجيج أخواتها . . وأمها كانت تزغرد لأن تارا التي التي تخرجت من الطب ستزف إلى عريسها . . . . بيت البنات يعني بيتاً بلا قلق . . ولا رجالاً يذهبون إلى الحرب وقد لا يعودون . . ولا أخاً يفزعون لغيابه . . الحرب لا زالت مستمرة في كل مكان إلا بيتهم . وحتى عندما يرن جرس الباب أو الهاتف فلا يشعرون بأي فزع .

أخيراً يحدث لي شيء صحيح . . أفرح ، بل أموت من الفرح لأني وصديقتي الوحيدة سنكون معاً من جديد . . سنعود إلى الفرح القديم والضحك القديم . . إلى خطوط الكحل ومجلات الفن ولفات الفلافل . . إلى كؤوس اللبلبي وكاسات الشلغم وعيدان الشعر بنات . وعلى مائدة الطعام كنت آكل بنهم للمرة الأولى ، وقلت لأدور أخي وأنا أنظر إلى عينيه للمرة الأولى . . أريد عصير البرتقال . أصبح الجو بهيجاً . . عرفت أن الابتسامة لا تنحسر إلى الأبد ، وأنه يمكن لها أن تعود . . منذ ذلك اليوم تظاهرت ماري أنها قد نسيت أوراق الهجرة أو ربما هي نسيتها فعلاً من أجلي . . ماري الحنون أمي فعلاً ، فقد تركتني أصوم دون أن تعترض على صيامي ، وتركتني أداوم في بغداد لعل الفرحة تشفيني من كل هم أو اكتئاب ، وتركتني ألبس الربطة على رأسي متى أشاء وأنساها متى أشاء . . هكذا بدأ الأمر بالسهو والنسيان . . وبدا لها ذلك خطوة في الاتجاه الصحيح ، إلى أن تركتني أنا بنفسي أقرر خلعها عندما ذهبنا لشراء ملابس الكلية ، وبالتالي جعلتني أنا التي أقرر وليس هي . . فهل ستتركني أكف عن الصوم

والصلوات الخمس من تلقاء نفسي أيضاً؟ وهل ستتركني أذهب إلى الكنيسة من تلقاء نفسي؟

أول يوم في الكلية يعني شيئاً لم أجربه فيما سبق . . هو أجمل يوم أشعر به في حياتي . . أكيد أنه أجمل أول شيء في الدنيا كلها . . أكيد أنه أجمل حتى من العيد . . ومن المبيت في بيت تبارك . . دبيب الفرحة اختلط بحرارة الخجل ، وأنا أهبط من سيارة ماري إلى حيث تقف تبارك . . كأنني أولد من جديد إلى هواء نقي بارد ومنعش . . كأنني أدخل إلى فقاعة عملاقة في مدينة الألعاب . . الآن سيكون لي عالم لي وحدي . . سيكون لوحي في يدي أكتب فيه ما أشاء وأقرر فيه مصيري وحدي . . . عندما رأتني تبارك قرب باب الكلية كانت واقفة تتلفت . . لم تعرفني في البداية . . كنت أريد أن أجعل لها مظهري الجديد مفاجأة ، ولما رأتني بدون ربطة . . ضحكت وضجت وقبلتني وهي تقول ما هذا؟ طالعة تجنين . ليت كل الناس مثل تبارك وأمها . . مثل تارا وتمارا . . ومثل هاجر صديقة تبارك التي عرّفتني عليها في أول يوم دخلنا فيه الحياة إلى الكلية . . كانت مرحة كتبارك بالرغم من كونها محجبة . . ما أجمل أول يوم . . شيء يفوق الخيال . .الحياة تبدأ في ذلك اليوم . . وطلاب ينظرون إلى الطالبات . . وطالبات يتجمعن قرب الشبابيك كما الطيور . . . أما هاجر فمرت بأخيها على عجل وعرّفتنا عليه ثم حكت لنا قصته الطويلة في دقائق قليلة . . في الغزالية يوجد بيتهم المحاط بالحدائق وأشجار الجهنميات العملاقة التي تعرشت على شبابيك الغرف وحافات السطوح وأسلاك الهاتف والكهرباء . . . وقد قال عنه أخوها إبراهيم لكل المغتربين من أصدقائه ومعارفه إن له روحاً مثلنا ؛ وهي موجودة فيه من السقف حتى التراب . . وأجزم لهم

أن كل من يرى البيت يعشقه ، وكل من يعشقه يعجب كيف لا تصيبه العيون . كان قد عاد من السويد التي اغترب فيها سنوات ؛ لأنه يقول إن الدنيا هنا في بغداد وليس هناك . ثم قُضي الأمر واستبقته رائحة الخبز في دخولها إلى حديقة البيت . . الله . . قالها إبراهيم وهو يرفع أنفه ليتشمم تلك الرائحة المنبعثة من تنور قريب ، ثم ركض إلى أرجوحة البيت التي كانت لا تزال في محلها بين جذعين من جذوع النخيل ، حيث علقها له أبوه عندما كان طفلاً . . فبكينا جميعا من التأثر كما بكت هاجر وهي تخبرنا بالحكاية .

أيام ذابت في أفواهنا كحلوى الشعر بنات . . . نخرج من المحاضرة إلى المحلات المنتشرة قرب ساحة عنتر . . وعندما تراني ماري لا تعترض ولا تعنفني . . حتى عندما يكون معها أبي عبد الأحد في السيارة ؛ فإنه يبتسم ويرحب بي بطريقته التي تقول إنه يراني للمرة الأولى في كل مرة . . . . وعندما يضحك حول أي شيء من مقعده الأمامي في السيارة ؛ فإنه يلتفت وينظر إلي لكي يجعلني أضحك معه . . ترى لو كان محمد هو أبي ماذا تقولين سيحدث يازينب؟ ترى لو كان محمد هو أبي ماذا سيفعل ، وبأي حزام سيضربني قبل أن يعيد رأسه إلى الوسادة التي يوجد تحتها المسدس ، أو يسحب البطانية إلى ذقنه مرة أخرى ويغمض عينيه . . في اللحظة ذاتها أقوم أنا بالالتفات إلى مكان غير محدد . . .مكان آخر يسمح بهمهمات بعيدة لا تكاد تُسمع ، ولكنها تخترق الجدار الفاصل بين البيتين . الطقس بارد هناك ؛ فهل يريد نزع قميصه ليفرك قدم زمان أم قدمك يا زينب؟

مرآة الجنون

في رأس السنة فقط أخذتني معها ماري إلى القداس في الصباح . . أما حفلة المساء فلم تحضرها لأنها قررت أن تتبرع بأموالها للفقراء . . وبالمجان دعتني لكي أدخل عالمها الساحر على مهل . . ماري بذكائها الشديد كانت تراقبني عن بعد ، ولا تجبرني على شيء لا أريده . . وتعرف أن المفتاح لذلك العالم الجديد هو أبي عبد الأحد ، الذي شعرت بالأمان المطلق معه منذ أول لحظة رأيتها فيه . . أما عندما ظهر إبراهيم أخو هاجر في حياتي ، فقد حدست فوراً أنني لن أهاجر معها إلى كندا ، وبالتالي تظاهرت ماري بإهمال الفكرة ، ثم حاولت وللمرة الأولى أن تعرّفني على شبان العائلة . . حاولت أن تزيح إبراهيم عن طريقي بطريقتها الذكية الخفية ، وعندما أدركت استحالة ذلك لم تيأس ، وتركت الأمور تجري بعيداً عن تدخلها ؛ لأنها ظنت أنني سأكف من تلقاء نفسي وبدون تدخل أو إجبار منها .

في رحلة جامعية بدأ حبنا . . . كنا مجموعة من الطلاب نتجمع حول بائع التذاكر في جزيرة الأعراس وسط نهر دجلة ، فأخذ إبراهيم يعزلني عنهم شيئاً فشيئاً ، وجعلني أجلس بقربه بينما الآخرون يتركوننا عن قصد . . استجبت إليه باستغراب وقلت له :

- ما بك؟

قال :

- لا شيء .

كان قد نهض من مكانه وراح ينظر إلى السماء ويتمشى ، لا هدف واضحاً تحت غطاء الشجر بعد أن انفض عنا الجمع إلى عربات الدولاب ، التي كانت واقفة في الهواء كحمالة الملاعق في مطبخ ماري . قلت له مرة أخرى :

- ما بك؟

صمته كان جميلاً وهو ينظر إلي . . ثم ابتسم وقال :

- أنت بي .

عبثتُ بحقيبتي ، ثم ضحكت وقلت له :

- لا أستطيع أن أتأخر كثيراً عن البنات .

قال :

- أعرف . .

ضحكت بصوت بدا له جميلاً ويثير البهجة ، لأنه ابتسم وقال :

- أيمكنك أن تضحكي أكثر من ذلك قليلاً؟

نظرت إليه باستغراب وقلت له وأنا لا أزال أضحك :

- يمكن .

عاد القلق ليغشي وجهه . قلت له :

- ما بك؟

مد يده إلى يدي اليسرى ثم قلب كفها ووضعها داخل كفه . قال :

- ألا تزال تؤلمك هذه اليد؟

قلت :

- نعم . . كيف عرفت؟

- هاجر أخبرتني .

قلت :

- حقا؟ ولماذا؟

قال :

- ألا تجدين كيف انفض الجميع عنا وتركونا وحدنا . . إن اسمك أسمعه في كل مكان من حولي . . ومتى أشاء ، ولكن الحبيب هو آخر من يعلم .

جعل جوابه قلبي يسقط في الفراغ ، وكأن روحي قد أصبحت شظايا متناثرة تعجز قبضة جسدي عن الإمساك بها . قال لي :

- ياسمين .

ثم صمت فجأة وأصبح ينظر إليّ بحيرة وكأنه يحاول استرجاع شيء ما في ذاكرته ولا يستطيع ، ثم قال وهو يفرك جبهته بأصابعه :

- قولي شيئاً لكي أشعر بأني موجود الآن .

ضم أصابعه على كفي بقوة حتى انغرزت أظافره قليلا في جلدة يدي ؛ فانتابني إحساس بالفراغ أكثر من ذي قبل ، وقلت لنفسي أمجنونة أنا؟ . . العيون كلها تراقبنا . . وقلت له :

- وهل أنت غير موجود الآن؟

- نعم غير موجود .

- غير موجود الآن؟

تنهد لاستعادة روحه إليه وقال :

- أشعر بأنني في حلم . . في حلم . . في خاطرة أو حلم .

قلت :

- أي حلم؟

قال :

- حلم مثل ملايين الأحلام . . أنا الآن في حلم .

كان لا يزال يحتفظ بيدي المجروحة في يدي . حاولت أن أنظر إليه لأتبين ما يقصده . تغوش المكان . . قلت له أخيراً بعد صمت :

- ألن تراني في هذا المكان نفسه لو استيقظت الآن؟

قال :

- بل أنا سأنتهي من الوجود حالما أستيقظ من الحلم .

طال ذلك الحلم ثلاث سنوات قلنا فيها كل شيء في رسائل وقصائد لا تنتهي . . ريش في الهواء . . بعيد عن كل شيء حزين . .عن النار والنهر . . عن الأطفال الوسخين والثياب الممزقة . عن زينب وزمان وماري . . نسيت كل شيء في ثلاث سنوات وكأنْ لم يكن لي شيء إلاه . وفي السنة الرابعة استيقظنا من ذلك الحلم على عقد القران . . فانتهينا من الوجود ودخلنا إلى المحكمة . . قبّل يدي في عيد الفصح ، وفي عيد الأضحى عقدنا القران . . عبثاً حاولت البحث لإبراهيم عن خطأ ارتكبه هو أو أحد غيره ، فأدى بنا إلى تلك العاقبة . ولم يمكن لأحد في نهاية الأمر أن يوجه له اللوم على ما حدث أو أن يعتبره منفرداً به بأي شكل من الأشكال . . عودته إلى بغداد كانت من أجل العروسة . . وكان يريدها من بلاده حتى تكون خالصة له ومُلكَ يمينه . . وأنا التي همت به وقدمت له عرضاً خفيفاً بامتياز عندما كان يراني أجلس وتبارك مع زملاء ثلاثة نعزهم كثيراً هم ياسين وفيصل وآدم ، فكان يمتعض من تلك الصحبة الطيبة ويتضايق كثيراً ويطلب مني الحذر . . كنت أعزو ذلك إلى غيرته الشديدة عليّ ولكنه في المرحلة الرابعة منعني من الجلوس معهم فامتثلت . . كان الموقف

غريباً ومحرجاً للجميع ، فأين كان عقلي عندما رضخت لأمره؟ . . . . أكيد قد ضيَّعتْه المدينة المخيفة ومحنتها المستمرة مع فوضى الحرب . . كانت بغداد لوزة مرة لبست طبقة من التعود والحاجة لكل فرد فيها إلى أن ينهض من هذا الخراب بقصة هادئة حلوة تخصه . . كنا شباباً نستخف بأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب ، ولكن عندما أحببنا بعضنا البعض استمعنا سوياً لهما ولليلى مراد وهي تغني : بيفوت على العين ويصحيها من عز النوم . . ويفوت على الروح ويطير بيها الدنيا بيوم . . . . . .

نصل متأخرين بعض الشيء إلى الموقف الصحيح ولا يهمنا أي مقعد شاغر نختار أو في أي سيارة ، فما يهم المكان عندما لا يعكر هذا المكان صفونا ولا نعكر صفوه ، أو عندما لا ننظر إليه ، لأننا أكتفينا بالنظر إلى بعضنا البعض مرة أخرى . كنا نفرح بيوم واحد نرى فيه بعضنا البعض وننظر فيه إلى بعضنا البعض ، حتى جاءت الحكمة وحملتنا من فوق الرصيف ورمتنا إلى البيت . . كأننا كففنا عن النظر إلى بعضنا البعض ، والتفتنا إلى النافذة لنجد الجميع يقفون في أعلى الرصيف وهم يبكون ، كل واحد يودع عزيزاً عليه . . . . . وقبل أن أخطو خطوة واحدة بعد ذلك ، سفح إبراهيم ما تبقى من الماء خلفي ، وكأنه هو الآخر يودع عزيزاً عليه . . كنت واقفة أنتظر دون أن أثور . . أحاول أن أفهم لماذا تحول إبراهيم فجاة وأصبح شبيها بأبي؟ . . لماذا يريد عزلي عن الناس ويرضى لي أن لا أدرس الماجستير ، وأكون ربة بيت بدلاً من دكتورة؟ . . انتظرت لكي أفهم ولكن طال انتظاري . .

بعد خمس سنوات في بيت ماري جاءت خمس سنوات أخرى مع إبراهيم وخمس سنوات بدونه ، وكلما تتصل بي ماري من كندا

تقول لي . . تعالي تعالي . .تعالي . . ولكني كنت لا أشتاق إلا لزينب فأذهب إلى المقبرة عندما أضجر وأشعر بالملل . . الطيور هي الأكثر دراية بما تضع من خفايا فيما تبنيه من الأعشاش . . وقد تلتقط ، من بين القبور ، الرموش وحدقات العيون بالإضافة إلى الأظافر والحواف الناتئة ، وأكيد أن إظفر الأصبع الصغير من بينها . . كان جميلاً وتوجد قربه شامة صغيرة تجعل الإصبع يبدو أجمل . . لماذا يبدو أجمل؟ لا أعرف . لماذا هو حي في ذاكرتي . . لا أعرف . . أين هو الآن؟ لا أعرف بالضبط . ياما نظرت إلى الأرض فرأيته صغيراً ونظيفاً كالوردة تحت النعل المعفر بالتراب . . . . لعله الآن في قلب ثمرة أو بين عيدان عش الحمامة الرمادية ذات الذيل المنفوش ، الذي يعيده الهواء الدافئ إلى الخلف . أنا أحسدها لأنها تطير عندما تريد أن تطير . . وتحط عندما تريد أن تحط . لا توجد مشكلة في ذلك ، ولا توجد مشكلة أيضاً أين تضع أقدامها على الأرض ، أو بين الحشائش ، أو فوق أسلاك الكهرباء ، أو على أنبوبة دواء قديمة تشبه القنينة التي ألصقت عليها الممرضة اسمي . . . . أنظري . . لن أترك هذا المكان حتى وإن ظهرت العقرب مرة أخرى .

الطاسة تشرق كشمس صغيرة في يد امراة عجوز طاعنة في السن جلست على حافة قبر قريب ، رأيت أن كلاً منهما يستدعي وجود الآخر . . هذا هو بخورها وهذه هي شموعها . . ولا يوجد مكان أو متسع من الوقت لغير ذلك . . في الصباح قد تطقطقين الحرمل وفي المساء تقرئين الفاتحة على الأموات . . هذا ماكنت تفعلين يابيبي صبيحة . . وتفكرين به طوال الوقت دون الحاجة إلى تفسير . . . . (أسامي) تقول لي الآن إن الحكمة تولد بعد صاحبها بعدة سنوات ، وإنها مع تقدم

العمر تصبح صديقتنا ولا تزعل علينا أو تتركنا نعيش الجحيم ، وإنما تجعلنا نمتلك الحق في أن نكون على خطأ . . . . فهل يعني هذا أنْ لا يرتاح أبداً من هو في سن الشباب؟ . السن المفترسة . . عدد كبير من الوحوش . . يكمن منتظراً . . ثم يعود لافتراس من هو أصغر عمراً . . وفي حالتي فإنه يفترس من هو أسوأ حظاً . . ظلت تلك الأفكار تأكل وتشرب معي وتطل من العينين نفسهما اللتين أنظر عبرهما إلى الخارج . . فأبدو تائهة أحياناً . . ساهمة . . أو خائفة في أحيان أخرى إلى حد الذهول . أمام عيني فقط كانت تروح وتجيء تلك النقطة السوداء التي ليس لها مكان محدد على الإطلاق ، ولكنها موجودة حتى عندما لا يكون هناك مكان . الضحكة كانت تبقى معلقة على فمي بعد الذهول ، فأخجل من أن يراني أحد أضحك مع نفسي . وبعد ذهول الحب دخلت في ذهول الصمت ، فرميت كل أدوات الزينة إلى سلة المهملات ، لأن إبراهيم كان يقول إن وجهي أجمل بدون مكياج ، وملابسي أفضل بدون عطر ، ويديّ أستر بدون أساور . . من هذا الرجل؟ وأين عثرت عليه؟ فكرت بالأمر وعزّ عليّ أن أرمي روحي هي الأخرى إلى سلة المهملات ، أن أرمي نفسي التي أراها مرتاحة في ذلك التيه . . وفي ذلك الذهول . حظي سيء منذ البداية ولا شيء حلو سيكتمل يازينب . .

قبل أن تنتهي السنة الثالثة في الجامعة كان إبراهيم يتحدث عن ملكة يجب أن لا يصافحها أحد . قص جناحي الأول بعزلي عن باقي الطلاب والطالبات ، وبعد عقد القران قص جناحي الآخر ، عندما قال لي البسي الحجاب ولا تجلسي منفردة مع الأجانب ، فأنت كنز ثمين يجب أن يكون ملكي وحدي . . أصبحت فراشة تمشي على الأرض

بلا جناحين ، ومصيرها محتوم خلال أيام . ودارت الأيام وصار شعري بالنسبة له أهم شؤون حياته على الإطلاق . . أصبح ينظر إليه كما كان أبي ينظر إليه فعرفت أنه سيعصر ياسمين مثل خرقة . . . سيعصرها لكي لا ينظر إليها أحد ولا يلتفت إليها في الشارع رجل . . وأصبحتْ مرآة ميز التواليت أمامي مرة أخرى . . . لا أنظر إلى نفسي ، ولكن أنظر إليها . . إلى ياسمين التي ستعصر خرقة المسح مرة أخرى وتمررها على بلاطات الأرض ، كما كانت تفعل زينب ، سيكون سرورها أن ترى البلاط نظيفاً ، وأن ترى القدور تلمع كالمرايا . . وكلما ازداد انحناؤها على الأرض وتدلت خصلة بيضاء من شعر أمها زينب أمام عينيها ، كانت تزداد شبهاً بخادمة .

الآية مقلوبة في بيت ماري . . عندما تنظف البيت النظيف أصلاً ، فهذا يعني أن تتزين . . أن ترتدي القفازات والمريلة الجميلة التي طرزتها بنفسها . . احتفال يومي هو عملها البيتي حتى إن كان من أجل رفع النفايات . عندما دخلت غرفتي لأول مرة سألتها لماذا هي بلا زجاج؟ فاعتبرت ذلك أجمل إطراء تسمعه عن نظافتها . . كانت أزرار المصابيح تعمل جميعها ولا يوجد جهاز واحد عاطل في بيت ماري . . ولا مصباح يبقى في ظلامه إذا ما شعلناه . . الجدران مليئة بالصور . . مثل كلامها المليء بالجمل المرحة . . لكل جملة وقع مختلف ، وللبيت أربع غرف في الطابق السفلي وغرفتان في الطابق العلوي ، وسلم يلتوي كالثعبان ليربط الطابقين ببعضهما كما لو أنه ، من شدة قوته ، هو الذي يرفع الطابق العلوي ويحول بينه وبين الانطباق على الأرض . تحب ماري التطريز كثيراً ، وقد طرزت حتى الجدران بلوحات من الأتمين فيها ورود وغزلان ودراجات هوائية . . أما على مساند الأرائك فكانت تضع

أغطية حاكتها بيدها بالسنارة أو بأشرطة الساتان والدانتيل . . تستبدل الشيخوخة بالوسائد والمفارش الجميلة . . لا تكرر أطباق الغداء في العشاء ، ولا تنظر إلى الستائر نفسها أكثر من عامين ، بينما مخاديد زينب حائلة اللون ، وبرداتها الأزلية ذات الحواشي المهترئة معلقة في مكانها منذ أن أتت بها بيبي صبيحة من الحج مع ثلاث بطانيات . في كل صباح تتحدث ماري إلى الشمس وتشكرها بعد كل شروق وتحمد الله على كل برعم جديد يتفتح ، وعلى كل قطرة مطر تسقط ، وخلال دقائق يمكنها أن تحول قطعة قماش باهتة إلى دب أو زرافة أو كنغر . . ولكن كيف ستدخل الجنة وهي لا تصلّي . . وكيف ستشفع لها هذه الامتنانات اليومية وبعض الأعمال الخيرية في اتقاء نار جهنم؟ . . . أخجل من مصارحتها بأفكار تعني أني أريدها تغيير ديانتها التي فتحت عينها عليها ، وأكيد لن تقبل ذلك مثلما لا أقبله أنا . . هذا أمر طبيعي ولا يمكن لومها عليه ، فلتكن هي كما اعتادت أن تكون ، ولأكن أنا كما اعتدت أن أكون ، أما الجنة والنار فلا أعرف عنهما شيئاً أكثر مما يقوله أهلي . . كل واحد منهم في واد وأنا في واد آخر . . ولا واحدة من أفكار ماري ستجمعني بها مثلما لم يجمعني شيء بأبي محمد الذي لا يحفظ القرآن ، ولكنه يبني آراءه بألف سيف في رأسه ومسدس تحت وسادته . شيطانه قوي فعلاً . . ولكني إذا أردت الإيمان بالدين يازينب يجب علي الابتعاد عنه ؛ لأني كلما اقتربت منه ينتهي هذا الإيمان . . والقدر وضعني في مكانين لم أستطع تفضيل أحدهما على الآخر . . الشيطان كان موجوداً في المكانين . . . إنه يتكلم . . ولا يكف عن الكلام . . هل هذا هو عقلي يازينب . . إذن ماذنبي أنا . . وما ذنبك أنت . . وما ذنب ماري . . ولماذا أنا موجودة في هذه الحياة وأكبر فيها .

تعثرت أكثر من مرة بمزهريات ماري التي تسميها بالفازات . . وعلى المائدة تجاهلت الشوكة والسكين اللتين تلفهما بمناديل قطنية عليها حروفنا الأولى . . عين وياء وميم . . وياء وألف آخران . . وفي الحمام نبذت المناشف التي تبخبخ عليها ماري الكثير من عطور الفواكه . . ولديها حوض سمك جميل اشترته من أجلي لكي يبعد عني الاكتئاب . . كانت سمكاته أنيقة زاهية اللون ، لأنها تسبح في مياه صافية وفي حوض نظيف ، ولكنها ، كما تقول أسامي ، ستصبح باهتة داكنة اللون عندما تعيش في الأعماق السحيقة للبحور المظلمة . . تدور كالنحلة السعيدة وتترك خلفها الكثير من العسل . . وهي القوية أيضاً التي يتبعها الرجال في البيت من أدور وحتى عبد الأحد . . وهناك ياسمينة التي تقرأ من الصباح حتى المساء وكأنها تنمو لوحدها بمعزل عن الجميع . . يا له من حل أمثل لا يبدو موروثاً من زينب الضعيفة ، التي يمكن لمحمد أن يضربها بالحزام متى ما يشاء . . ولكنه ناتج من سلام طافح في بيت لا مجال فيه إلا للقراءة . . ومن جين خفي من جينات بيبي صبيحة التي كانت قد نبغت في القراءة والحساب ، بالرغم من أنها لم تداوم في المدرسة سوى عام واحد . ماري الآن تريد البحث عن حريتها في مكان جديد . . تريد أن تهاجر فيتبعها أدور وعبد الأحد وياسمينتان . . تتجاوران على المائدة أمام طبق المعكرونة الذي أكرهه ، فتقول ماري إن عبد الأحد يكرهه أيضاً . . ولكن طقمها من الفخار الفاخر عزيز عليها ومحفوظ في خزانة عالية بين رذاذتين للملح والفلفل . . فلماذا تعشق الهجرة إلى هذا الحد ، وتريد أن تتركني وحدي مع إبراهيم؟ . . ألم تقل لي قبل ثلاث سنوات إنني سأرتدي الصدرية البيضاء في مختبر يكون قريباً من عيادة ياسمينة؟ . .

أوهمتني أنها أجلت تلك الفكرة إلى الأبد في السنوات التي ذابت في فمي كالحلوى؟ . . السنوات الطيبة التي انقضت . . إبراهيم يحبني وماري ألغت فكرة السفر . . وياسمينة تتواصل مع أبيها محمد عبد الواحد ولا تنقطع عنه حتى كدت أعتقد أنها ستقرر العيش معه مدى الحياة . . كانت تصحبني معها في البداية لأمهد لها الطريق إلى هناك ، ولكن الطريق لم يتمهد ولم يتعبد ، وظلت حالتنا محرجة للجميع ، مما جعل فكرة السفر تبدو الحل الأمثل للعائلتين ، بالرغم من أن أدوارد الذي يتصل من تورنتو كان يبخس فكرة الهجرة في عيونهم ويشكو من البرد والثلج والوحشة . . روى لهم قصة مؤلمة عن زوج وزوجته . . الزوج مشلول وزوجته العجوز أصابها العمى المؤقت فجأة ؛ فأخذوها إلى المستشفى وقد نسيت نافذة الشقة مفتوحة على الجليد ، وعندما عادت إليه في الليل وجدته قد تجمد في الغرفة . . . . . قصة فريدة من نوعها لم تتوقف عندها ماري كثيراً ، وقالت إن الذي يتجمد بهذه الطريقة قد يكون قد هرب من النار . . وبما أنه لا يمكن لواحد من من معارفها الأرمن أن يتجمد بهذه الطريقة إذا كانت كل العائلة معه ، فقد عادت لتفكر بالسفر من جديد عندما اقتربنا من التخرج . . قالت إن فايل الهجرة بعمان يجب الحفاظ عليه من الشطب ، وثمة مواعيد للفحص يجب أن تُجرى . وعندما أخبرتها بأن إبراهيم يريد التقدم لخطبتي غرقتْ في الصمت أول الأمر . . لم تعترض ولم توافق . . واستعملت لسانها السحري مرة أخرى للإيحاء والتلويح بخيارات أخرى أفضل من الزواج . . لو . . ولو . . ولو . . وفي حالة إن . . وعلى شرط أن يكون . . وكل كلمة منها لا تقدم ولا تؤخر ولا تزحزح شيئاً من ياسمين الوردة المقلوبة ، التي لا زالت تصوم وتؤدي الصلوات

الخمس . . ما زال الخطأ المستمر مستمراً . . ويبدو أن أي محاولة لتصحيحه لن تنجح . . ظلت ماري صامتة فترة طويلة ، ثم بنظرة واحدة من عبد الأحد وافقت في النهاية . . وقالت إذا ما سافرنا تعيشان أنت وإبراهيم في البيت . . . هششششششش . . . . . ابتعدا عن هنا . . أريد أن أتكلم . . أوف . . بدأت أروي الحكاية لك منذ أعياد يازينب وهذا العيد يجب أن أتمها قبل أن تاتي أسامي .

بدا حلاً سحرياً للجميع . . . لي ولها ولإبراهيم وللبيت . . . ولكني سأكون وحيدة ، ولن يكون بجواري أهل ولا أب وأم . . عليها أن تغادر وتترك لي حوض السمك . . أضاف إليه إبراهيم نافذة مغلقة . ولكن قبل هذا وذاك ، حدث ما لم يكن في الحسبان ، وما لم يخطر لي على بال ولا في أقصى درجات الخيال . . وهل هناك مانع؟

إنها حفلة عيد ميلاد لي ولياسمين أقامتها ماري قبل زواجي بعدة أشهر . . أي بعد أربع سنوات من وجودي في بيتها . . بالونات وشموع ورذاذات وكيكات فاخرة وورود في كل مكان . . ولكن لماذا بعد أربع سنوات؟ هل كان ذلك اليوم الذي حدث فيه الخطأ مؤلماً إلى هذا الحد ، بحيث أجّلتْه ماري أربع سنوات كاملة قبل أن تحتفل به؟ وإذا كان الأمر كذلك لماذا تريد الاحتفال به الآن؟ ضحكت ماري وقالت إنها لا تحب أن تحتفل بعيد ميلادنا إلا في اليوم الصحيح لمولدنا ، ولهذا يجب أن يقام الحفل كل أربع سنوات . . لم أفهم ما قصدَتْه ماري من كلامها ولا من ضحكتها المليئة بالأسى ، فقالت ياسمينة بالنيابة عنها بأننا قد ولدنا في التاسع والعشرين من شباط أي في سنة كبيسة وهو يوم لا يتكرر إلا كل أربع سنوات . . ولهذا السبب لم تكن أمي تحتفل بعيد ميلادي إلا كل أربع سنوات ليس من باب الالتزام بالتاريخ فقط ،

ولكن لكي يكون العيد مميزاً عن باقي أعياد الميلاد التي يحتفل بها الناس . . كنت قد سمعت في بيت زينب بهذه السنة ، ولكني لم أكن أسأل أكثر من ذلك ، فلا أحد هناك يحتفل بعيد ميلادي أو بأي عيد ميلاد آخر . . بعد اثنين وعشرين عاماً من ولادتي أفهم ماذا يعني اليوم الذي ولدت فيه؟ إشارة أخرى على الخطأ . . إشارة أخرى على الحظ السيء منذ البداية .

قالت ياسمينة إن الأرض تستغرق في دورانها حول الشمس مدة (٣٦٥) يوماً وست ساعات أي ربع يوم ، وبالتالي يكون هناك في كل أربع سنوات سنة فيها يوم زائد وهو يوم التاسع والعشرين من شباط ، وهو اليوم الذي ولدنا فيه وتدعى تلك السنة بالسنة الكبيسة . . . . استغربت هذه المصادفة العجيبة ، وحدست أن لا تكون هي السبب في أن يكون العيد مميزاً عن باقي أعياد الميلاد فحسب . . ولكن أن تكون لها علاقة بالخطأ الذي حدث . . من المؤكد أن هذه المصادفة العجيبة قد قادت بشكل ما إلى الخطأ الذي حدث ذلك اليوم . . وليس القصف وحده أو إهمال بيبي صبيحة كما قال أبي محمد . . هذه المرة يجب أن لا أتردد كسائر المرات . . يجب أن لا أصمت عن السؤال كما كنت أفعل في بيت زينب بعد أن حدث ما حدث . قضيت الليل كله أقلب الأمر على وجوه عدة ، وأقفز من احتمال لآخر وفي الصباح تجرأت وأخبرت ماري بحدسي ، فقالت لي والحزن يعتصرها بطريقة لم أرها على وجهها من قبل . . . توقعاتك في محلها يا ابنتي . . وهذا التوقيت لا يمكن أن يكون مصادفة أخرى من مصادفات القدر ، بل هو سبب من أسباب ذلك القدر ، لأني عندما أسترجع ذلك اليوم أكتشف أن السنة الكبيسة هي السبب . . صمتتْ أكثر من اللازم ، ثم قالت : كانت

الحرب العراقية الإيرانية ما زالت قائمة . . والكثير من الوكالات الأجنبية تنتقل بين الأحياء لتصوير القصف أو الغارات الجوية . . وفي اليوم الذي ولدتك فيه سمعت بأنّ هناك مصوراً فرنسياً جاء ليصور مواليد السنة الكبيسة خلال غارة جوية عنيفة حدثت في الليل . . سمعنا صوت سقوط صاروخ قالوا لنا إنه لم يصطدم بشيء وسقط بأرض خراب متروكة في منطقة الصالحية . . وعندما انطلقت صافرة الأمان أحضر ذلك المصور عدته لردهتنا وحملت له الممرضات بعض المواليد الجدد إلى ممر الغرفة . . لم تبتعدي عني سوى خمس دقائق ، ولكني لم أعرف ذلك كله إلا بعد قليل . . إنه أمر لا يصدق . . كان أبوك قد خرج ليوقع بعض الأوراق في إدارة المستشفى . . وأنا كنت لا أزال نائمة من شدة التعب . . . وأنت أيضاً كنت نائمة نوماً عميقاً في مهدك . لحظة واحدة مرت بين الحلم واليقظة حدث فيها هرج ومرج واشتعلت فلاشات الكاميرات بعد انتهاء الغارة الجوية . . فاستيقظت لأجد الممرضة تعيدك إلى مهدك . قالت لي إنهم قد صوروك لأنك قد ولدت في التاسع والعشرين من شهر شباط أي في السنة الكبيسة . . ولم تقل لي إنهم قد صوروا مولودة أخرى في الممر نفسه . . غضبت عليها ونهرتها وصرخت بها . . وعندما أتذكر تلك اللحظة الرهيبة الآن أعرف أنهم أعادوك أنت إلى مهد آخر قرب زينب ، وأعادوا لي طفلة أخرى هي ابنة زينب التي كانت لا تزال ترتدي ملابس المستشفى البيضاء . . قماط أبيض وعصابة بيضاء وسوار أبيض مكتوب عليه بخط رديء ما بدا لي أنه ياسمين عبد الأحد وليس ياسمين عبد الواحد .

إذن هذا يعطي التفسير الأفضل لذلك الخطأ . كتبوا اسم جدي

بدلاً من اسم أبي فتشابهت الأسماء وحدث ما حدث . . استغرقتُ أفكر فيه كل يوم ، ولم يفارق بالي بعد ذلك قط . . صحيح هو لا يبرر حدوث الخطأ ، ولكنه يقدم فقط الطريقة التي حدث فيها خلال ذلك الخطأ في تلك اللحظات العجيبة . . كنت أعيد مع نفسي ذلك اليوم كل يوم وأعيد ترتيبه كما ينبغي أن يكون لا كما حدث فعلاً ، أي أن أجعل ماري مستيقظة وترفض تصويري معها أو بدونها . . أو أن أجعل هذا المصور الحقير يتعثر في باب المستشفى أو يموت في الغارة الجوية . . أو أجعل أبي عبد الأحد لا يغادر مكانه قط . . أو أن أجعل الممرضة تهرع إلى طفلة أخرى وُلدتْ ذلك اليوم . . أو أن أجعل كلباً مسعوراً يدخل إلى المستشفى ويعضها . . أو أن أجعل مجرى الماء ينكسر ويضطر المصور أن يغير طريقه . لم أتعب قط من ترتيب ذلك اليوم كما ينبغي أن يكون . . لم أتعب من الزخرفة . . هذا اليوم يجب أن يصححه أحد ولو في أقصى درجات الخيال من أجل أن تعود الأمور إلى طبيعتها على الأرض . . لا أمل أبداً من هذه اللعبة . . لعبة (لو) التي لو زرعوها ما خضرت كما كانت تقول بيبي صبيحة . . ولكنها في رأسي كانت تنمو إلى حقول من الاحتمالات الخضراء التي أتوه فيها عن نفسي ؛ لأكتشف بعد قليل أنني كنت أحلم فأضيف احتمالاً جديداً إلى احتمالات تصحيح الخطأ ، وأعود إلى الحلم اللذيذ من جديد . . أحياناً أرى إحدى السمكات تدخل إلى جحر من تلك الجحور الذي توضع بالمصادفة داخل صخرة من الصخور ، فأقول لنفسي : ها قد دخلتْ أخيراً سمكة عاقلة لترتاح وتهدأ من هذا العناء ، ولكن يبدو أنها لا تأمن الراحة أو النوم حتى في هذا الحوض الصافي الأنيق . وما هي إلا طرفة عين حتى تخرج من جحرها كالمشدوهة

لتواصل العوم من جديد . . أكاد أجن من التفكير وأطلب من الله أن لا يدعني أفكر . . ولكني أفكر . . كيف لا تشعر هذه المخلوقات الصغيرة بالتعب والدوار من هذه الطريق الملتوي الذي تعوم فيه ، وهذه الأسماك تشبه من؟ تشبهني؟ أم تشبه زينب؟ أم تشبه ماري التي تحب السفر وتقول هكذا نحن الأرمن ، وهذا قدرنا؟

أجدادها ، كما تقول ، كانوا قد نزحوا من بلداتهم في تركيا بعد أن نجوا من المجزرة الكبرى التي حدثت قبل قرن من الزمان . عندما طردهم الأتراك من ديارهم في القرى والبلدات الأرمنية ، وبدأت عمليات الترحيل القسري على شكل مسيرات قاسية أدت إلى وفاة الكثير من المبعدين في الطريق من الأناضول إلى أطراف الشام وبلاد ما بين النهرين ، ومَن تبقى منهم استقر به المقام في سوريا ولبنان أو في الموصل ثم في بغداد ، حيث أقاموا وأسسوا جمعيات ومدارس وكنائس خاصة بهم . غريغور هو اسم الرئيس الأعلى للكنيسة الكاثوليكية في أرمينيا ، وقد أصبح يعرف فيما بعد بالقديس غرغور الطاهر ، وظل اسمه يتردد لمئات السنين على شفاه الأرمن الأرثدوكس ، الذين تيمنوا باسمه ثم بعثوه من جديد في هذه الكنيسة التي تقع في منطقة الباب الشرقي بقلب بغداد . .

يقام القداس مرتين . . يومَيْ الأحد والجمعة ، وكان أدور قبل أن يسافر إلى كندا ينشد ضمن جوق التراتيل التي تتلو صلوات القداس الإلهي بمؤلفات موسيقية أرمنية الأصل . كانت رائحة البخور والشموع تملأ المكان ، وأصوات المرتلين والشمامسة تؤدي مقامات دينية بألحان مؤثرة ، كلها تجعلني أخاف بدلاً من الخشوع . . يقف أدور حاملاً كتاباً كبيراً مكتوباً فيه بعض الحروف الحمر في أماكن من الصفحة ، لكي

يرفع صوته بالترتيل عند قراءتها وكأنه مؤدٍّ قدير . أخذتني ماري معها إلى هناك ونحن نرتدي أجمل الثياب . . أصبحت قصتي معروفة هناك ، واستقبلني الأب ميساك بمنتهى اللطف ، وبعد القداس ناولني قطعة الخبز المدورة المبللة المسماة بخبز القربان ، فعلقتْ بسقف فمي والتصقت هناك . . خجلت من أن أدخل أصبعي في فمي لتحريكها ، وبقيت في مكانها إلى أن تفتت فبلعتها . شرحت لي ماري أن الخبز والخمر يمثلان جسد المسيح ودمه . . أما المذبح فقالت إنه يشير إلى القبر أو الجلجثة حيث صُلب المسيح وقدم نفسه ذبيحة حية لخلاصنا نحن . . لهذا السبب عندما نمرّ أمام المذبح ننحني لأنّه يمثّل نبيهم المسيح .

مهما فعلت ماري لن تستطيع إزالة الوحشة التي شعرت بها ، ومهما تكلمت فلن أستطيع التحدث مثلها . . لها لهجة خاصة تُحوِّل السين إلى زاء فيصبح المسبح مزبحاً والأسبوع أزبوعاً . . وأبي عبد الأحد هو الوحيد الذي كان يسعى إلى جعلي لا أشعر باليتم . . جميع كلماته كانت أقل مني ومن خجلي ، فكان يجعلني أبدو كابنته حقاً . . وفي يوم من الأيام قدم لي الكعك وهو يقول : هاك التعت . . ضحك بعدها من كل قلبه ، ولأول مرة مت معه من الضحك . . كأنه كان يفسح المجال لطفولتي البعيدة أن ترى النور تحت ظل شخصيته المتواضعة . . بأن تلمع مرة أخرى بقرب ابتسامته التي تجعلني أضحك ، ليخفف من محنتي . . ابتسامة عريضة فيها عودة إلى الطفولة . . وتعويض عن زمان طويل لم أكن فيها ابنته . . فيها سؤال مستمر : هل أنا بخير؟ . . بدون كلام يطلب مني أن أكون على ما يرام فأكون على ما يرام . .

كان من واجب أبيهم ميساك كرجل دين أن يعرف أسماء جميع العوائل الأرمنية المنتمية للكنيسة ، وأن يتابع تفاصيل حياتها وحياة أفرادها ، وهناك أضاف اسمي إلى سجل الأرمن العراقيين وأحصاني ضمن رعية الطائفة . . عمر هذا السجل ثلاثة قرون ، وفيه مدونةٌ تواريخ الولادة والتعميد والزواج في صفحة مخصصة لكل عائلة وفدت إلى بغداد عن طريق الموصل أو البصرة أو حلب ، تضاف إليها لاحقاً حالات الوفاة والطلاق . ولكنهم عندما أضافوني إلى شجرة العائلة ، لم يضعوني بدلاً من ياسمينة الأخرى ، بل بقينا نحن الاثنتين في سجل واحد ، بالرغم من التعهد الذي قدمته ماري لأبي محمد بأنها ستكون مسلمة . . . قالت ماري إنها مسألة شكلية ، وعند زواجي سيفتحون صفحة خاصة بي وبعائلتي الجديدة ، أما ياسمينة فسنرى ماذا سيحدث معها أولاً . بعد تلك الزيارة التي وضعوا فيها اسمي في السجل لم أذهب سوى مرة ثانية لزيارة جدتي . . ألين جدة أخرى غير بيبي صبيحة . . جدة لا تزال ماري تحتفظ بأكوابها المزينة بالورد ووسائدها المطرزة بالبط ، وتطري مذاق كيكاتها المخلوطة بالزبدة والشكولاتة ، والتي تصنعها على شكل قباب وقاطرات وأكواخ .

يتم الدخول إلى تلك الكنيسة عن طريق باب حديدي توجد على يمينه مقبرة الأرمن . . ما إن ندخل لفناء الكنيسة حتى يواجهنا ذلك الباب الذي تتناثر بعده مجموعة من القبور في الطرف الأبعد من الفناء الفسيح أمام باب داخلي آخر على اليمين يؤدي إلى صالة ؛ لإجراء مراسيم التعميد للأطفال الجدد . . قالت ماري إنها تستخدم أيضا لتكليل العروسين في بهو الكنيسة . . . تبدو المقبرة كالقلعة بسياجها الواطئ المقرنص . . وفيها أسوار أدنى حول القبور . . سألت رجلاً ما أين

زينب؟ ضحك وقال : من هذه؟ وماذا تفعل واحدة اسمها زينب هنا؟ . عمن تبحثين . . لا توجد زينب هنا؟ . . قلت له أقصد ماري ، فقادني إليها بين القبور والصلبان وهو يتابع خطوات رجلي . انشغلت ماري عني بجدتها ألين فوجدت نفسي تائهة عنها بين القبور . ما كان يجب أن يحدث هذا أبداً . . عدت إليك في المرة الأولى يازينب وأنا ميتة من البكاء ، والآن مع ماري أضيع للمرة الثانية بعد ضياعي في سامراء . . بدون ماري كانت المقبرة تبدو كالقلعة وبدون زينب كانت بوراً كما في هذه المقبرة . . مقبرة محمد السكران التي يلاحق فيها الصبيان الأبيض والأسمر الكلاب من أجل ضربها ، والعصافير من أجل اصطيادها بالمصيدة . . وبين السيارات يتجول شحاذ منغولي يقبل زجاجاتها من أجل استدرار العطف ومقرئ أعمى يقرأ القرآن من أجل جمع العيديات . . . عدت إليك يازينب في المرة الأولى وأنا ميتة من البكاء ، وفي المرة الثانية عدت إلى ماري وأنا ميتة من الخوف . . تعرضت للاكتشاف بهذه الطريقة البكماء . . كنت الدليل بطريقة مقلوبة على أني البنت المطلوبة الراقية . والصمت ساعدني على أن أكون تلك البنت الراقية عندما كنت أعوز الفهم ؛ فلا أفتش عن كلمة واحدة في كومة قش بل أتشبث بذلك الصمت الذي ورثته من أبي عبد الأحد ؛ وهو كل ما أحتاجه لكي لا أبدو حمقاء لا تستطيع الكلام . هنا فقط أستطيع .

صامت ماري أربعين يوماً عن اللحوم ومشتقاتها بما في ذلك الحليب والبيض . . من أربعاء الرماد وحتى عيد القيامة . وفي يوم الجمعة العظيمة ، جمعة الآلام التي تسبق عيد القيامة بثلاثة أيام ، أخذتني إلى هناك لأجد كل الصور والتماثيل مغطاة بقماش أسود حزناً

على صلب السيد المسيح . وعندما صدحت أصوات الشمامسة في القاعة ، كانت التراتيل هي الأخرى حزينة تُدخل الأسى في القلوب ، إلا أن هذه الأجواء الحزينة انقلبت إلى فرح ليلة الأحد ، ليلة قيامة السيد المسيح ، إذ نادى القس أثناء القداس «قام المسيح» ، فأجابوه : «حقا قام» فصفق الجميع من أماكنهم ، وزغردت النسوة ، ورفع الساعور الأوشحة السود عن الأيقونات والصور والتماثيل بواسطة عصا طويلة ثبّت في رأسها خطافاً يرفع به القماش الأسود ويزيحه جانباً . . . بهو الكنيسة مقسم إلى ثلاثة أقسام ، في الوسط مذبح رئيس تعلوه قبة كبيرة ، وفي اليمين واليسار مذبحان صغيران تعلوهما قبتان صغيرتان ، وفي الطرف الشمالي هناك منبر الاعتراف بين المكانين المخصصين للنساء والرجال ، وهو عبارة عن كابينة خشبية صغيرة تكفي لجلوس شخص واحد ، وعلى الجانبين يوجد شباكان مغطيان بنوع من الخشب المزخرف يشبه قفص المرقد . . . حدثني أبي عبد الأحد عن زمان قديم «كنت أقف في الدور وأنا أُعدّ مع نفسي خطاياي التي سأعترف بها للقس ، ولا أعثر على شيء . . . لم أسرق ، لم أعتدِ على أحد ، لم أشتم أحداً . هذا كل شيء . . كل أحد كنت أحضر خطاياي وأنا أقف في الدور . كانت الخطايا قليلة في زماني . . مع ذلك كان الطابور طويلاً ، ولكنْ انظري الآن . . لا يوجد أحد» .

صوته كان واطئاً كصوتي وهو يروي لي تلك الحكاية ، كأنه يعترف لي بسر أو يشاركني بكلمة طريفة وهو يضحك . . . كانت الخطايا قليلة في زماني . . مع ذلك كان الطابور طويلاً ، ولكنْ انظري الآن . . لا يوجد أحد . . . . سألته ما أسباب ذلك الاعتراف؟ . . قال إنه لكي يصبح المخطئ بحكم البريء . . والمتعب بحكم المرتاح . . والمريض

بحكم السليم . . فهو من أجل إزاحة الهم عن المهموم والذنب عن المذنب . . هه . . أي يشبه ما أفضفض به أمام الدكتورة تارا هذه الأيام من أجل الراحة بعد التعب . . يشبه ما أفعله الآن أمام قبر زينب . . ينطلق لساني بالكلام بينما أنا أمام الناس صاموت لاموت . .كل من يحكي يموت . . ولكن ما الفائدة من ذلك الاعتراف مع القس إذا راوغ المخطئ أو كذب؟ وهل يكون هذا الاعتراف مفيداً لمن يكون السر هو مشكلته؟ . . إنه لا يستطيع البوح به حتى بينه وبين نفسه . . . . فكيف يمكن أن يكون ذلك مفيداً؟ غير مفيد بالتأكيد إلا لرجل وديع مثل أبي عبد الأحد ليست لديه أخطاء أصلاً . .

المفروض أن يكون في الخمسين من عمره ، ولكنه يبدو أكبر من ذلك بسبب نحافته الشديدة . . لا يبدأ كلامه الا بكلمات اللياقة والأدب ، وخطواتُه لا يسمعها أحد . . وعندما يكون على المائدة لا يشعر به أحد . . يتمتع بمواصفات الأب المثالي . . ترك لماري أكل الفراغ كله لكي يشغل هو هذا المكان الصغير الهادئ الساكن ، وتشغل هي المكان الذي شغلته على ما يبدو لوقت طويل في حركتها الدائبة بين كل شيء . . قليل من هذا وقليل من هذا . . هنا . . هناك . . تعالي . . اجلسي . . أنا هنا . . أنا هناك . . انتهى الوقت . . هذا صحيح . . هذا غير صحيح . . جكليت . . وبيض ملون . . وأرنب من النستلة . . شكراً . . جداً . . طبعاً أقولها بصوت خفيض قياساً إلى أصوات صديقات وجارات أمي زينب التي كانت تشبه أصوات الرجال . . وحسب شروط ماري فأنا هادئة وخجولة أكثر من اللازم ، ولكني مرتبة ونظيفة وجميلة جداً . . لأن جناتها تجري من تحتها العطور وجيناتها تجري في دمي طبعاً . . شعرت أنها من شدة نظافتها قد قلقت في

البداية من وجودي معها . . وأنا أيضا وجدت بعض الأجوبة المنطقية على أسئلتي . . كتحسسي من السمك الذي كان لا يتحسس منه أحد في بيتك يا زينب . . دعتني ماري إلى أن لا أنظر إلى الماضي أبداً وأن أكون مثل نباتاتها التي بذرتها في السنادين . . نظن أنها لن تكبر قط ، ولكن بقليل من الصبر تكبر وتنمو . . وحتى عندما ننام أو نلعب أو نجلس بلا حراك فإنها تنمو وتصبح أكبر وأجمل . .

وجدتني ماري مترددة بشأن الذهاب إلى الكنيسة فأخذت تجعلني ألتقي بالبنات الأرمنيات في مراكز ثقافية ورياضية أرمنية في بغداد يلعب معظمهن في المنتخب الوطني للسلة والطائرة لنادي هومت من . . جميعهن يفكرن بالسفر ويبدون متحمسات أكثر من الكبار لفكرة الهجرة إلى المنافي . . ماعدا واحدة اعتنقت الديانة الإسلامية دون أن يجبرها أحد على ذلك ، الغريب أن أهلها لم يرفضوها . . ولم يقاطعوها . . نذرت صوم الباعوثة ليومين ونصف اليوم لتنال حبيبها المسلم الذي أسلمت من أجله فألبسها الحجاب . . . كانت تزورنا مع أمها فأجدها الوجه الآخر لي أحياناً . . فهي مسيحية تحولت إلى مسلمة ، ولكنها أصبحت أكثر إسلاماً من المسلمين . . الغريب أنها وجّهت لي سؤالاً : لماذا نزعت الحجاب؟ فلما كانت الدنيا صيف وقلت لها إن الدنيا حارة ، امتعضت وأجابت بغضب : الدنيا حارة؟ نار جهنم أشد حراً . ولكني لم أعذب أحداً فلماذا أدخل أجهنم . .لا أستطيع أن أقتل ذبابة ولم أؤذ إنساناً في حياتي ، كما كان يفعل أبي معك يا زينب ، فلماذا أدخل جهنم؟ ألا يوجد حل وسط؟ أما أن أسافر إلى كندا أو أدخل جهنم؟ . . ضحكت (أسامي) ابنة أم عامر وقالت : أسهل حل لدى الأثرياء هو السفر ، وأسهل حل لدى الفقراء هو

الدخـول إلى الجنة . . وليس هناك من خطب يحـدث إلا نتج عن اجتماع البايولوجيا مع البيئة . . أليس كذلك يا دكتورة؟

كانت (أسامي) ترتب لي الكثير من الأفكار المشتتة وتضعها لي فوق طبق مستقل عني وعنها . . ومعها أستطيع العثور على لساني الذي لا يطاوعني الكلام إلا مع نفسي . . استطعت أخيراً أن أعثر على صديقة جديدة في حياتي الجديدة الثالثة . . الحياة التي تركتها ماري من أجل جواز سفر كندي تقول إنه شفيعها في الملمات . . ما أجرأ ما تختار . . بكل سهولة تنتقل ماري من مكان إلى آخر ، فلماذا تفعل ذلك بهذه السهولة؟ هل تستمد من قصة ترحيل أجدادها القديمة من تركيا بعض الإلهام ، فيصبح العالم بالنسبة لها ساحة كبيرة؟ . . بقيت في الأردن ثلاثة أعوام قبل أن تطير إلى كندا . . ما حصل أثناء ذلك لم تكن تتوقعه أو تتنبأ بحدوثه ، حتى بعد أن تنازلت كثيراً من أجل زواجي برجل مسلم . . أصبحت تزورني للاطمئنان على زواجي ؛ فيؤخر ذلك ملف هجرتها إلى كندا . وعلى الرغم من أنني كنت لا أزال أواجه أزمتي التي بذلت من أجلها أقوى الألم في حياتي ، فلم أظهر شيئاً لأحد . . أتماسك لكي أبدو محبوبة للجميع ، ولكني في الحقيقة أصبحت أشعر بالذنب تجاه مصطفى الذي ظلمني ، لأنه نفسه كان مظلوماً يكنس الطرقات في البرد القارس . . وأبي الذي أشفق على فلذة كبده من الفقر فأطلق سراحها وهو يبكي . . أجد نفسي في حياتي الجديدة كخالي سعيد الذي حمل الملفات وصواني الشاي في كل تمثيليات التلفزيون . . ودخل ، حسب بيبي صبيحة ، حمالاً في ثلاث مسرحيات ، هي مسرحية رأس المملوك جابر ، والخان ، والبيك والسايق . . ولكنه سلّم في النهاية على الممثل اوليفر ريد ، عندما مثل

معه دوراً صغيراً في فيلم المسألة الكبرى . . ماشي ياباشا . . منذ تلك اللحظة أسمت (أسامي) بيت ماري ببيت أوليفر ريد . . وقالت أنت فيه المسألة الكبرى .

في حياتي السابقة كانت المسألة الكبرى هي في أن تتحرك زينب من مكان إلى آخر . . وعندما تريد عبور الكرخ إلى الرصافة تقدم رجلاً وتؤخر أخرى . . لا تذهب إلى أي مكان وتتركني خلفها . . وكيف تتركني؟ لا يمكن أن يحدث هذا أبداً . . لا زال صوتك في أذني وأنت تصرخين : (بيتي ، بيتي لن أترك بيتي) . . . كانت عند بيت الجيران تستعير بعضاً من الخميرة . . دخل أبي إلى الحمام دون أن تناوله ملابسه عند الخروج ، لأنها تأخرت في بيت الجيران . . وعندما عادت كان البخار يتطاير حوله وينتشر من باب الحمام إلى الهول . خرج من الحمام كالخروف المطبوخ وراح يضربها . . . يضربها وأنا أبكي وأحاول إبعادها عن يديه ، فيضربني معها ويجرني من شعري لكي يبعدني عنها ، وبعد أن أغلق الباب خلفها ظلت جالسة على باب البيت الليل كله حتى جاء مصطفى من عمله الليلي ففتح لها الباب . . تمسكت بباب البيت وقرفصت قربَه لا تغادره إلى أي مكان . . تحيا وتموت فيه حتى نهاية المطاف . .لا تملك مكاناً آخر تذهب إليه سوى الجنة ، لأنها لا تملك النقود لشيء آخر كما تملكها ماري . وأي مكان تذهب إليه بعد أن أصبح خروجها إلى بيت أخيها رشيد ، آخر من تبقى من عائلتها ، أشبه برحلة تهيئ من أجلها سبباً مهماً لتلك الزيارة وكومة من الأعذار لكي يبدو ذلك السبب مقنعاً لأبي؟ . . نادراً ما يبدو مقنعاً له وإذا ما اقتنع في النهاية ؛ فلا بد من معاقبتها عندما تعود على تفاصيل كثيرة ، صرنا نعرفها ونحفظها عن ظهر قلب ، فمرة يعيرها بأنها ابنة صبيحة

الفصلية(*) التي عاشت خادمة في بيت أهل زوجها ، ثم هربت منه إلى بيت اليهودية . . ومرة يتذكر أباها الذي لم يره في حياته ، ومرة يشتم أخاها سليم الذي مات في الحرب ، أو يقسم بالثلاثة على أن يهجرها إلى الأبد ، أو بالقرآن الذي لم يفتحه قط على أن يطلقها . . حتى لم يتبق منها إلا شبح منهك وشفاه لا تبتسم ، وعينان غائرتان لا تميزان سوى علب الأدوية المرصوصة على الطاولة القريبة من فراشها . كان أبي قصير القامة ، وإذا ما رفع جليكانات النفط بيديه يزداد قصره ويصبح بملابسه الملوثة بالنفط شبيهاً بالشحاذ . . . ولكن حتى الشحاذ يستطيع قهر جميلة رقيقة كزينب التي تفك المصلوب من حبل المشنقة .

قالت بيبي صبيحة إنه كان أنيقاً حلواً في شبابه المتأخر ، ولو كان قد خطب زينب في شبابه المبكر لوجدناه لُقْطةً من السماء ، ولكنه تبهذل من لعب الريسز وتعلم الكفر من هناك . . مسكينة أمك زينب أخذها كالشروة . . والعوزُ اضطرنا إلى بيعها بمهر قدره ثمانمئة دينار بعد أن عجزنا عن تسديد ثمن بناء غرفة نحتمي بها من برد الشتاء وشموس الصيف ، كنا في فقر مدقع فأخذوها منا سداداً لدين . . بعناها إلى رجل أكبر منها بثلاثين عاماً . . وهي أيضاً كانت أكبر من عمرها ، وعقلها يسبقها في كل ما تفعله . . والفقر لم يجعلها تفعل شيئاً مخجلاً على الإطلاق . . ألم تمنع أختها زمان من الرقص مع قمر خانم ، وحمت أخاها سليم من القصاص بعد أن أرادوا سجنه بسبب

(*) الفصلية : المرأة التي يجب أن تؤخذ فوراً كنوع من أنواع الحل للنزاعات العشائرية . .

عدم سداد الدين؟ . . تّقطّعَ قلبي عندما فارقتني ابنتي من دون ثوب أبيض ولا زغاريد ولا مراسيم زفاف ، أُخذت ابنتي بالثوب الذي ترتديه إلى بيت زوجها كما حدث معي تماماً . . بيبي صبيحة جعلت حياتك سوداء كحياتها . . . أنت أيضاً حظك سيء منذ البداية . . أستغفر الله العلي العظيم لي ولك وللجميع .

مرآة الجريدة

بيت في منطقة المنصور الراقية ، مع سيارة جديدة ، قد جعل إبراهيم يبدو في غاية السعادة . . ولكن اتضح أن زوجي ليس من أولئك الرجال الذين يهوون التنزه والخروج مع زوجاتهم إلى الطريق . رائحته خليط من صابون الحلاقة وعطر ماء الكولونيا ، وعندما تتبخر إلى هواء الغرفة تصبح أحياناً مثيرة للغثيان . . يضحك ، ليبدو لي غريباً عني بعض الشيء ، عندما أخبره عن اقتراب موعد التقديم للدراسات العليا ، ثم يتغير مرة أخرى عندما تزورني ماما ماري من الأردن ، ويبذل اهتماماً استثنائياً من أجل اصطحابي معه إلى كل مكان ، ويقوم بكل ما في وسعه من أجل التخفيف عن حزني ووحدتي خصوصاً قبل بضعة أيام ، عندما كانت أم عامر تتذمر من دخول رعاة الأغنام إلى منطقة راقية ، وترك الفضلات خلفهم . . قالت إنها رأت الكثير من الماشية التي تنام على الأرصفة وتأكل من زرع البيوت . . ولم يعد أحد يتمكن من نهر الرعاة أو التعرض لهم ، كما لا يمكن التكهن من هم على وجه التحديد بعد أن أصبح معظمنا يخاف حتى من التصادم مع الرعاة وخرافهم . في ذلك اليوم وبين الجد والهزل طالبني إبراهيم همساً بوضع الحجاب مرة أخرى إذا ما خرجت إلى السوق فقط ، ولكن بعد أيام أضاف إليه البقاء في البيت وعدم التفكير بإكمال الدكتوراه أو البحث عن عمل . . أريتُه الصدرية البيضاء التي اشترتها لي ماري منذ

أربعة أعوام وطرزت حرف الياء على جيوبها ، فراح يتودد لي لكي لا أنزعج ويقول إن الوضع سيّئ وخطير ، وإنه يخاف علي من الخروج في مثل هذا الوضع المنفلت . . ولكي يثبت لي أني على خطأ فإنه لا يذكر سوى حالات الخطف والقتل من المعارف والجيران . . اقترب مني ووضع يده في يدي ، فأصابني ذلك بالذعر وارتددت إلى الخلف قليلاً كمن أصيب بلدغة أفعى . . صوت الأعرابية وهي تهش خرافها قريباً من النافذة تاه مع إحساس غريب جعلني لا أميز ما إذا كان الذي قاله إبراهيم قد حدث البارحة أم قبل سنوات طويلة . .

لوحدي طويلاً في البيت أنتظر أن أجد حلاً وسطاً مع إبراهيم . . وأفكر بحياتي معه حتى وأنا أتحاور مع (أسامي) وأمها . . لا أسمع صوتاً سوى صوت الغسالة وهي تدور لتمحو الأصوات الأخرى داخل البيت ، وأنظر أمامي إلى ثمرات الحديقة التي جفت وتحولت ألوانها من الأخضر إلى الأصفر والأسود . . كانت خضراء عند سفر ماري وعبد الأحد ، ثم احمرت ونضجت بعد شهور ، وها هي تعود صفراء يجب قطفها كما كان يفعل عبد الأحد بعد أن يتجول بينها لالتقاط الورق اليابس من الأرض . خلف تلك الأغصان تبدو نوافذ البيت المقابل وقد تجمع الحمام فوقها بالعشرات كعادته عندما لا يخاف التزاوج في بيت مهجور . صحيح أن البيت لم يعد بيتاً كما كان ، ولكني كل يوم أرش الحديقة وأغسل الممرات ، وأتسلق على الحيطان لمسح المصابيح ثم النزول لتغيير أماكن الأرائك ورفع الورود الميتة من السنادين ، وتغيير ماء المزهريات المتسخ بماء نظيف ، وما إلى ذلك من أشغال تلملم الوقت فتجعله ينقضي بسرعة . جارتنا أم عامر ، التي كادت أن تستدعي لي الشرطة في أول يوم رأتني فيه ، أصبحت صديقتي بالرغم من أنها من

عمر بيبي صبيحة . . زوجها راقد في الفراش وهي مريضة بالضغط ، وابنها أحمد في كندا ، ومحمد في الدانمارك ، وعلي في السويد ، وعامر في هولندا ، وزيد في نيوزلندة . . أو ما اسمها . .؟ . . ابنتها (أسامي) ضحكت وهي الوحيدة التي تبقت معها من أبنائها ، وقالت : أصبح طشارنا ماله والي .

تبارك صديقتي القديمة هل تذكريها ياأمي . . التي ضربتني بسببها بعد حفلة خطبة أختها تارا لأنها وضعت الكحل في عيني فبلعت شريطاً من الحبوب فيه اثنتا عشرة حبة ، وغسلوا لي معدتي وظنوا أني حامل . . . الحاصل . . تبارك كانت تكرر زياراتها وتأخذني للتجوال في عالمها الجهنمي دون أن أتحرك من مكاني . . . . كل حركة من أيام الشباب كانت تتغير ولا تتكرر . . وبعد زواجها كانت تروي لي حكايات من حياة غريبة لم تكن تخطر لي على بال . فهي وزوجها يمثلان دور آدم وحواء في الجنة كل يوم عطلة أو إجازة أو جمعة . . تبقى هي تتجول عارية في البيت ، وتطبخ وهي عارية ، وتأكل وهي عارية ، وتكوي الملابس وهي عارية ، ثم يأكلان الطعام وهما عراة . . شيء لا يمكن أن يخطر لي على بال ، ولا يمكنني فعله مع إبراهيم ولو بعد مئة عام . . . . وأيضاً فإن الأوضاع التي يأكلان بها فيها جنون كبير . . لأنها قد تخرج في الليل عارية إلى الحديقة وتأكل الطعام من فمه أو تمضغ الكمثرى وهو لا يزال معلقاً في الشجرة . . لم يبق شيء لا تعرفه تبارك . . المطاعم والكنائس والنوادي . . وحتى عندما توقفت الحياة في بغداد بعد الحرب وصاح الناس الغوث من خطورة الشوارع ، لم تكن الحرب موجودة في بيت تبارك . . هي وأخواتها يذهبن إلى المسبح باستمرار ، ويحضرن حفلات رأس السنة لأصدقاء مسيحيين ، وطقوس

الصباغة بالماء الجاري لأصدقاء من الصابئة . . وفي أيام الطبخ في عاشوراء يتحول اليوم إلى مشاوير لا تنتهي لتوزيع قدور الهريسة وقيمة النجف . . كل شيء في بيت تبارك يمكنه أن يتحول إلى شيء أحلى ، وكل مناسبة تتحول إلى احتفال ، حتى جاءت حادثة تارا فتغير الأمر قليلاً ، وحط الحزن لأول مرة في بيت البنات . . غريبة حادثة تارا . . ولم تعلنها تبارك لأحد سواي . . وبعد حدوثها اعتكفت أمها ولم تعد تقود السيارة أو تخرج من البيت خوفاً من الخطف . . كما وضعت الحجاب أخيراً على رأسها . . تارا كانت أول البنات التي تزوجت وأنجبت . . وبعد الحرب عملت لفترة وجيزة مع الأمريكان ثم تركتهم بعد تهديد بالقتل جاءها على شكل ظرف في رصاصة وورقة فيها بضع كلمات . كان بيت تبارك في ذلك الوقت مثل بيت أبي محمد الذي فرح بالحرب وابتهج بدخول الأمريكان إلى البلاد . . ولكن محمد عبد الواحد حجارة كان فقيراً ولم تعطه الحرب سوى عشرة دولارات باليوم مقابل عمل أخي مصطفى عاملاً للنظافة . . بينما تارا عملت كطبيبة مع زوجها في جمعية إنسانية لرعاية مرضى التوحد فكسبت الكثير ، تلك كانت دائماً حياة الثراء الذي يصعب تفكيك خيوطه مهما كانت الظروف . . سنة واحدة . . ثم خلفت ابنتها رزان . . اسم كردي جميل آخر أُضيف إلى دلع البنات . . ولم يأتها التهديد هذه المرة في ظرف وإطلاقة نارية ، ولكنها خطفت مع سائق تكسي وعادت بعد أيام بدون فدية . . زوجها طلقها بعد أن عادت من الخطف ، وأخذ منها ابنتها الجميلة رزان ، فجعل ذلك تبارك تقول لي إنها لا تفهم ما حدث . . حقاً لا تفهم . . ولا أحد يعرف ما حدث لها بالضبط . . رجّحت أنْ كان لزوجها ضلع في اختطافها ، وإلا لماذا لم يطلب الفدية أحد وعادت

إليهم بعد ثلاثة ايام بعد أن أخذها التكسي إلى بيت مهجور في حي الدورة . . كان للحظ دور كبير في نجاتها من موت محقق بعد مداهمة للبيت حدثت من جماعة لا تعرفها ، كما لا تعرف لحد الآن هل من خطفوها هم القاعدة أم الميلشيات؟ . . هل كان ذلك بسبب عملها مع منظمة إنسانية أم لكونها كردية أو سافرة أو غنية؟ . . . كل احتمال من الاحتمالات ممكن ، ولو كان دورها قد جاء في السؤال لعرفتْ من طبيعة الأسئلة من هو الخاطف وماذا يريد . . تقول تبارك إنهم وضعوها في حفرة كبيرة مع ثلاث نساء أخريات . . وكانت تسمع أصوات عائلة وأطفال في البيت . . وواحدة من أولاء النساء الثلاث أصيبت بالإسهال من شدة الخوف ، فكانت تتغوط على نفسها في تلك الحفرة . . هكذا عادت تارا بعد ثلاثة أيام مرت عليها وعلينا كالدهر ، ولولا أنها طبيبة نفسية لأصابها الانهيار العصبي مما رأت . ارتعشت كثيراً لما روته تبارك . وأصبحت شديدة الحذر في حركتي بين السوق والبيت .

أتوصل أحيانا إلى ترتيب المجلات حسب تواريخها ، والكتب حسب حروفها الأبجدية ، والأقداح حسب ألوانها إلى أن يأتي منتصف النهار ، فأجد في المرآة تعبيراً متبقياً على وجهي من نظرة سابقة ، أو تقوس فم تركه غبار . أحدّث نفسي بصوت عال وأقول حان وقت الشاي ، فأقضي مع قدح الشاي فراغاً من الوقت بانتظار عودة إبراهيم الذي لا زلت أعتقده سيغير رأيه بدراسة الماجستير عندما تنتهي العطلة الصيفية ويبدأ التقديم الفعلي . . أجلس عادة أمام الحوض الزجاجي الذي كانت تسبح فيه الأسماك الصغيرة . . . تنعكس صورة وجه ياسمين في الزجاج فأراها ساكنة لا تتحرك أمام

حوض الأسماك الصغيرة وهي تراقب حركتها المستمرة بين الصخور الناتئة . يبرد قدح الشاي وأنا أنظر إليها .

بعد الصيف انقضى عام كامل من الانتظار . . كان عاماً بطيئاً . . الشتاء أفضل من الصيف في ترتيب الأفكار . . وفي الغرف رتبت صوراً وكتباً وكثيرة ، وجدت فيها ما لم أسمع به من قبل . . عمود المسيحية في العراق يمثله الكلدان ، وهيكل المسيحية الأول في العراق يمثله الكلدان ، وبدون الكلدان لن يبقى للعراق هوية يتسمّى بها أو تبقى له حضارةٌ وتراث يتغنّى به . . قرأت أيضاً أن المدارس المسيحية التي أسسها الآباء الدومنيكيان شهدت تقديم أولى المسرحيات الدينية والاجتماعية ، حيث قامت الطوائف الكلدانية والسريانية الكاثوليكية والأرثدوكسية بنشاط مسرحي خصص ريعه لمساعدة الجمعيات . . هذا النشاط المسرحي كان قد اشتركت فيه نخبة من الشباب الكلداني المثقفين ، وهو الذي قام بإخراج المسرحيات وعمل الديكورات اللازمة ، وصمم ملابس الممثلين . ينحدر أبي عبد الأحد من صلب شماس كلداني أسس واحدة من أقدم المطابع الحجرية في العراق هي المطبعة الكلدانية ، التي سبقت مطبعة الولاية التي أسسها الوالي مدحت باشا في بغداد . . أما ماري فتنحدر من صلب أرمني هدد بقتل والي حلب جميل باشا عندما كان يتدرب على المحاماة في مكتب عبد الرحمن الكواكبي ، فألقت السلطات القبض عليه بتهمة التحريض على قتل الوالي ، ومعه عبد الرحمن الكواكبي الذي خرج من هذه التهمة بريئاً .

حدّثتُ (أسامي) عن تلك المعلومات التي وجدتها في درج الصور الذي يحفظ شجرة العائلة وبياناتها ، فقالت لي هذا معناه أن أباك من الكلدان وليس أرمنياً كأمك . . وماذا يعني ذلك؟ قالت إن الكلدان أو

السريان هم البابليون من سكان العراق الأصليين ، ولغتُهم السريانية تضبطها قواعد نحوية أخذت منها اللغة العربية علم النحو العربي . ولكنّ العرب الفاتحين القادمين من الجزيرة كانوا يسمونهم بأهل الذمة ، فشعروا بأنهم في مرتبة أدنى وانسحبوا إلى الشمال طلباً للأمان حتى استقروا أولاً في الشمال من بغداد ، وأصبحت تكريت مركزاً مهماً من مراكز المسيحية في الشرق الأوسط . ولكن القمع بقي مستمراً ، فهاجر معظم سكانها شمالاً باتجاه دجلة إلى الموصل والقرى التابعة لها تخلصاً من الاضطهاد . . ومن جهة أخرى انتقل الأرمن من ديارهم في آسيا الصغرى إلى الجنوب بعد المجازر الجديدة التي أدت إلى مقتل عشرين ألف أرمني في أضَنة ، عندما سارت جماعة تركيا الفتاة التقدمية على خطى السلطان الرجعي عبدالحميد ، الذي بطش بالإغريق والبلغار والأرمن لكي لا ينالوا استقلالهم ، فراحت تتبع سياسة التتريك القاسية على الشعوب الأخرى للإمبراطورية العثمانية ، وقامت بتهجير الأرمن من ديارهم باتجاه الجنوب ، فوصل البعض منهم إلى الموصل في شمال العراق . . وهكذا التقت الطائفتان المضطهدتان هناك .

قالت لي (أسامي) يجب أن لا تحزني على ما لقيته تلك الطوائف من اضطهاد ، ولكن افرحي على ما خرجت به من عقل متنور وخلق كريم ، ثم جاءت لي بكتاب (تاريخ الطباعة والمطبوعات العراقية) وقرأت لي فيه أن تلك المطبعة المذكورة في حجج الميراث كانت تقع قرب دار البطريكرية في مدينة الموصل ، وكانت تطبع الكتب الدينية والأدبية ، واستمرت بالعمل تحت إشراف أحد المطارنة . وقد تم استبدال تلك المطبعة التي جاء بها الآباء الدومنيكان من الأقليم الفرنسي عام ١٨٥٦ بمطبعة حديثة بدأت بطبع مختلف الكتب بلغات

متعددة ، وكان المسيحيون يؤسسون المطابع ويشرفون على أغلب الصحف والمجلات الصادرة في تلك الحقبة ، كالحكمة والنور والنجم والزمان والمقتطف والهلال ولسان المشرق والفكر المسيحي . . ويبدو أن جد أبيك واسمه أيضاً عبد الأحد كان قد أصدر واحدة من تلك المجلات استمرت في الصدور لعدة أعوام .

يوماً ما كنتُ عربية . . وبعد حين قالوا إني أرمنية . . والآن أنا كلدو آشورية سريانية . . وما تبقى من الخبز المتروك في طبق الطعام أضعه في الهواء لأجففه مع باقي الخبز الذي أفتّته للطيور ، ثم أمشي إلى هذه الأحراش أشذبها بنفسي بعد أن عاد الفلاح إلى بلدته في الشامية وهو يقول : شنو السالفة ، ماكو يوم ببغداد يمر مثل الأوادم؟ . . كانت ماري من قبل تضع أطباقه التي يأكل فيها داخل حوض فيه ماء معقم ، قبل أن تضعها في غسالة الصحون ، وهذا ما فعلته مع ملعقتي التي أكلت فيها أول مرة . . يمكن ذلك أو لا يمكن . . وقد أكون قد تخيلته . . ولكنه شيء رهيب لم أفهمه إلا بعد أن اكتشفت التدابير التي تقوم بها من أجل مفهومها عن النظافة . . فهمته ولكني لم أسامحه عليه قط ، وها أنا اليوم أصبحت أشكك فيه بعد أيام وسنين جعلتني أعيد ترتيب بعض المشاهد حين يتعلق الأمر بما يمكن أو لا يمكن . . أتمهل أحياناً . . أو أتوقف عن الظن . . ولكن من المؤكد أنها رمت المربى التي جاءت بها زوجة الحارس إلى الزبل . . كانت تساعدها أحياناً في أعمال البيت ولا تقصد من قارورة المربى إلا التعبير عن الشكر والامتنان . . . الدكتورة تارا قالت لي فيما بعد إني أعاني الشك من الأشخاص القريبين ، وقد أنسج في خيالي القصص الوهمية التي تؤثر على حياتي ، وأشعر بالقلق والتوتر المستمر من كل شيء .

في الصباح يستيقظ إبراهيم مشتاقاً إلى البقاء في الفراش والنظر في مرآة الميز تواليت إلى خطته الجهنمية للنوم مقلوباً في الفراش ؛ فأجد نفسي مقبلة على فضيحة جديدة . . . . أنظر إليها في المرآة . . هناك سأعثر على ياسمين . . أراها تلبس الربطة أول مرة بدلاً من أن تتعرى . . أرى حلمها القديم عن رجل الأزرار التي لا تنتهي . . صورتها المتكررة إلى ما لا نهاية في سرداب المرآة . . ياسمين تشكها دبابيس الربطة التي تلبسها أول مرة فتستيقظ من نومها على رحلة المدرسة وترفع الربطة من الأرض . ياسمين تنهض وتمر من هنا لكي تراني أتعرى ، وأفعل ما كانت تفعله النساء خلف الأبواب المقفلة ، ثم يضحكن عليها في ربعة الدار . . أنظر في المرآة إليها وهي ميتة . . تتكرر صورتها وتخاف عندما تتحرك أكرة الباب فجأة لكي تنقفل . . فترتفع من الفراش وتتحرك عيناها الكبيرتان يمنة ويسرة ، بعد أن تسحب ظهرها من ظهر السرير وتتكور على نفسها بشكل الجنين . في تلك النقطة كانت ياسمين تسمع ضربات قلبي الذي عليه التمييز سريعاً بين المرأة التي تمنع من دراستها العليا والمرأة التي تتعرى . حتى هذا هو ليس مايريده إبراهيم . . ماذا يريد إذن؟ أن أزحف على بطني كالثعبان ودودة القز ونجمة البحر .

اتخذت ياسمين قراراً مع نفسها بأن تتظاهر بالنوم ، فيدعها إبراهيم لشأنها بضعة أيام تسترد فيها نفسها التي كادت تضيع منها إلى الأبد . . قلقت ماري في البداية وارتعبت وعادت من الأردن بشكل مفاجئ ، واستدعت أكثر من طبيب لفحصها ، فشخّص آخرُهم الحالة بأنها نفسية . . ثم بعد أن ملّ من الرواح والمجيء قال لهم : اتركوها تنام كما تشاء ولا تعاملوها على أنها مريضة . . وستنهض في النهاية من

تلقاء نفسها ويضطرها الجوع أو العطش إلى مغادرة الفراش والعودة إلى الحياة . هل أرفع صوتي أكثر أم أنك تسمعيني؟ها؟؟ ماذا تقولين؟ متى حدث ذ . . . . . لك؟ إصبري يا أمي . . اليوم عيد والمقبرة مزدحمة بالزوار . . ولكني لا أستطيع التوقف عن الكلام .

حدث ذلك بعد مشاكل كثيرة وهواتف متواصلة وهروب مستمر من الكلام . . كانت ماري لا زالت موجودة في الأردن عندما علمتْ بما أنا فيه من نوم مستمر . قالت لي بالهاتف إن إبراهيم زوجك هذا هو السبب ، فقد سقط عنه قناعه بعد الزواج ، واتضح أنه يريد خليلة وخادمة لا إنسانة محترمة . . وعادت من الأردن في غفلة منه ، فعاد إليه حنانه وطيبته ، ووعدها أن يفعل ما تريد وتأمر . . من هذا؟ كنت أرى فمه يتحرك . . ولا أسمع شيئاً . . كنت أعرف أنه سيخرجني من هناك . . وسيصحبني من جديد في نزهات لا تنتهي . . . بعيداً عن مكاني المعتاد داخل الغرفة ، وعندما أعود أكون في مواجهة معتوه . . . يريد أن يلبسني الجبة في الشارع ، وفي الغرفة يشاهد عُرَيَنا في المرآة ويتفرج عليه . . في تلك النقطة السوداء وسط العين . . فكرت ياسمين أن النوم قد يجعلني أختفي من الوجود . كانت تتحدث كثيراً معي وأنصت إليها كثيراً ، ولكنها ضوجتني وطوشت رأسي ، فهربت منها إلى النوم . . هي أيضاً هربت وظلت غائبة عني عدة مرات لم أنظر فيها إلى المرآة ولم أفتح فيها النافذة أبداً . . . . . اشتقت إليها بعد أيام ، وفتحت النافذة ورحت أتحدث إليها . . لساعات طويلة أتحدث إليها وأخبرها بكل شيء ، موعد يومي لذيذ . . أشياء لا تنسى . . هششششششش . . دعوني أتحدث . .

ولكني أشعر بأنها زعلانة عليَّ ولا تجيبني . . أظل أتحدث إليها

من النافذة المفتوحة على الحديقة ، وإذا ما تعبت من الوقوف ، أجلس على الكرسي وأنا أتحدث إليها وهي لا تجيب ، حتى أرى إبراهيم قادماً فأصمت على الفور لكي لا يأتي لي بالطبيب مرة أخرى . فكرت أنه ربما يكون الهواء قد طيّر ياسمين إلى الشارع أو إلى حديقة الجيران . . ذهبت إلى هناك ، ولكنني لم أعثر عليها هناك . . ولا في الباحة الخلفية للبيت . . ولا قرب وردة عين البزون في الحديقة . . . . وقفت لوهلة أنظر إلى زجاجة السيارة التي لم أقدها منذ زمن طويل ، فرأيت ياسمين جالسة خلف المقود . . هناك عثرت عليها فنظرت لي وقالت : تعالي . . تعالي . .أنا هنا .

ساد الأرضَ ظلامٌ خفيف ، ولم تعد الشمس تنظر إلينا ، فقلت لها اجلسي حيث تريدين . . سأخفي الأمر ولن أنادي ماما . . من الممكن أن نتحدث هنا لوحدنا وبدون أن يرانا أحد . . ولكن ماري خرجت إلى الحديقة ولحقت بنا وجلست على مقعد السيارة ، وقالت لنا هيا نعود إلى البيت . . لماذا ترتدين ملابس شتوية ونحن في عز الصيف؟ . . سارت تمشي قربي . . وقلبها يرفس كذيل السمكة بعنف في يدي . . وعندما وصلنا إلى نافذة غرفتي ونظرنا من خلالها إلى الحديقة ، وجدتُ ياسمين لا تزال جالسة خلف مقود السيارة . . الحمد لله . . لا زالت هناك . . تنتظرني لكي أعود . . عرفتها من قراصتها البرتقالية . . ومن قميصها الأبيض الذي كان بأزرار لا تنتهي . بعد قليل كان أذان العشاء قد جعل أضواء الشارع الصفراء تشتعل ، والنور الشاحب جعل وجهها يبدو أكثر تعباً حتى غلبها النوم . . أصبحت بلا وجه ممددة على ظهرها ، ورأسُها بعيد عن ضوء المصباح الذي كشف تفاصيل وجهها أول مرة . أقسمت لهم إنها تغرق بالماء بعد أن تركها القارب وابتعد من

اليابسة إلى النهر . . لم يصدقني أحد . .

في الصباح جاؤوا بالطبيب مرة أخرى ، وعدّ ذلك من المضاعفات الجانبية المحتملة التي يؤدي إليها الإسراف في استعمال العقاقير المهدئة . وعلى مائدة الفطور عدت مرة أخرى إلى التساؤل : هل كان من الخطأ انتشالي من هناك ورميي إلى هنا . . هناك أو هنا . . تعالي . . تعالي . ماما . . بابا . . وأقراص مكومة تحت المصباح المنضدي ، سمعت ماري تقول ، لعبد الأحد بالموبايل وبصوت واطئ جداً ، بأنها وجدتني في الليلة الفائتة نائمة في السيارة ، وبأنها بعد أن أيقظتني وجدتني أخاطبها بلهجة غريبة تحول المؤنث إلى مذكر ، والمذكر إلى مؤنث ، وتتكلم عن نفسها بضمير الغائب . . ماذا يعني ذلك؟ إنه اكتئاب عُصابي شديد . . . . . ولا أعرف كيف تطور الأمر إلى هذا الحد . . وعلى الفور انتبهت وعرفت أن ياسمين كانت هنا ، وأنها قد تحدثت أكثر من اللازم ، وأنني يجب أن أقاومها وأكف عن التحدث إليها من جديد لكي لا يأخذوني إلى المستشفى . .

لو كانت زينب هنا لرقتني بالتعاويذ وأخذتني إلى تكية الشيخ كُمر في منطقة العزة ، وجعلتَه يقرأ على رأسي الرُقى والتعاويذ . كان الشيخ يقول إن نجمها خفيف ، وهذا يجعلها تمرض كثيراً وتصاب بالعين بسهولة . . فكل جسم بشري يتصل بالنجوم ، ومنها يسحب الطاقة الإيجابية . . وسنده يأتي من نور النجوم به والمتصلة معه . . وهذه الطفلة نجمها خفيف ، لأنها متصلة بنجم طاقته خفيفة وضعيفة . بعد هذا الكلام كان يرقيني ويبخرني بماء البئر فأشعر بأني أحب هذا المكان . أكره أن يمسكني أحد من يدي ، ولكن أمي قادتني من يدي بالقوة ، فلما سحبتُها صاحت بي هل تريدين أن تضيعي مرة أخرى

بالفضل كما ضعت في سامراء؟ النخلة الوحيدة التي توجد في حديقة بيت من بيوت الجيران المحيطة ببيت الشيخ كمر ، كانت واحدة من تلك الأشياء التي تدل على الطريق فنعرف أننا وصلنا البيت . . كنت أفرح عندما أراها وأتمعنها كلما مررنا بها ، لأنها كانت كثيفة السعف ومتواضعة الحجم وليست عملاقة كنخلة بيت ماري . وفي إحدى المرات كأنما قرأت أمي أفكاري وانتباهي إلى ذلك البيت الذي امتلأت حديقته بالأحراش ، فقالت :

- لماذا تنظرين إلى هذا البيت؟

- أحبه . . ما أعرف ليش .

- صلوات على محمد . . هذه كرامات الشيخ كمر .

اتضح أن هذا البيت هو لليهودية راشيل ، وكان علينا أن نقفز على جدران مهدمة ونتجاوز تلالاً من الأزبال لنصل إلى بيتها القريب من ضريح متهالك . . توجد على باب الضريح الخضراء آثار حناء ، وتحيط به شموع قليلة وزهور بلاستيكية وضعها بعض الزوار حول صاحب القبر إسحاق شيخ اليهود ، كما أسمته أمي التي تحب الدوران على المراقد . . هنا وهناك . . من السيد محمد وحتى السيد إدريس . . تقول عنه إنه واحد من الأضرحة ذات الصيت الجيد في الاستجابة لدعاء النسوة العواقر ، اللواتي يزرنه من أجل الولد ، ويقصدنه من منطقة قنبر علي وباقي مناطق بغداد . في بيت راشيل ، بعد أن دخلنا إليه ، وجدنا سيدة طاعنة في السن لا ترتدي الحجاب ، وتضع على كتفها شالاً شَكريّ اللون جالسة على كرسي متحرك . . سلمت عليها أمي وجاءت خادمتها وقالت إنها مصابة بالزهايمر ولم تعد تتذكر أي أحد . . المسكينة كادت أن تموت البارحة لأنها أرادت إطفاء الضوء المشتعل

على الجدار ، فرمت بالماء على النيون وحصل تماس كهربائي ، وكادت أن تحترق هذه المرة . . هذا يفسر فراغ الغرفة من كل شيء إلا سريرها الخشبي والمقعد الذي تجلس عليه . عندما خرجت الخادمة أعادت علي أمي الحكاية ، وقالت «إن بيبيتك صبيحة كانت فصلية عاشت مع زوجها في الكوت . . وبعد أن مات زوجها الذي هو جدك هربت بنا من بيت أهله وجاءت إلى محلتها القديمة في منطقة قنبر علي بشارع الكفاح ، ولكنها لم تذهب إلى بيت أهلها خوفاً من أن يستدل عليها أهل زوجها ، وانما اختبأت هنا في هذا البيت . . بيت راشيل التي كانت تخيط ملابسها عند جدتي أم صبيحة وتنضّد فرشها عند أبيها النداف . . فمحلة الدهانة التي يسكنونها كانت قريبة من محلة التوراة في قنبر علي ، وعندما تعرضتْ للفرهود هجرها سكانها الأصليون وفروا لأمريكا وأوربا وإسرائيل . . ولكن هذه السيدة لم تغادر منزلها المجاور للضريح ، فأخذتنا وخبّأتنا عندها في الطابق العلوي ، ولم تكن تعاملنا كخدم بل أحسنت معاملتنا وكأننا أهلها . . أذكر أنها كانت تطلب مني كل سبت أُنْ أشعل لها فانوساً تسميه بالمينورا ، لأن إشعال الفوانيس أو عمل أي شيء في ديانتهم لا يجوز في أيام السبت الذي يسمونه بالشبَاط . . الغريب أنه لم يأت أحد للبحث عنا . . لا أدري لماذا؟ . . بقينا عندها عاماً كاملاً إلى أن تُوفي جدي أبو صبيحة ؛ فعدنا إلى البيت الذي لم يتبق فيه سوى خالتي علية وأولادها . . . . لم أتوقع أن أجد راشيل لا زالت على قيد الحياة ، فقد كانت مدرّسة متقاعدة عملت في مدرسة اليهود بسوق حنون ، وبحكم معارفها عثرت لأمي صبيحة على عمل فرّاشة في مدرسة في دُور السكك ، وهناك استأجرت ببيبتك بيتاً في العطيفية ، بعد أن تقاسمت ميراث البيت

مع أختها علية ، وأصبح أخوالك رجالاً يساعدونها في توفير المعيشة . . كان هذا قبل أن يستشهد خالك سليم في حرب إيران ، وقبل أن أتزوج أنا أو يتزوج خالك رشيد أو يهاجر خالك سعيد» .

عندما وصلت أمي إلى هذه النقطة عرفتْ أن أبي سيضربنا عندما نعود . . عرفت أننا تأخرنا جداً كما كنا نتأخر عند بيت خالي رشيد ، فيفتعل الحجج لكي يصرخ بنا ويضربنا ، وينتهي اليوم بوجود أمي على عتبة البيت متشبثة ببابه حتى تدخل مرة أخرى . روت لي كل ذلك في دقائق . . دخل بعدها رجل ومعه مصور ترافقهما الخادمة ، وقال أحدهما إن اسمه يوسف ، وإنه يكتب تحقيقاً عن منطقة الكفاح ومرقد الكيلاني ، ففزّت أمي ونهضت من مكانها وقامت تقبّل راشيل ثم سحبتني معها . .استوقفها الصحفي وقال :

– هل تعرفين هذه السيدة من زمان؟

من خلف عين واحدة قالت :

– لولاها لما كنت على قيد الحياة الآن؟

– هل يمكنك التحدث عنها قليلاً .

استغربتْ من أن أمي استجابت له ومن خلف عينها الواحدة أعادت له بعض المعلومات التي قالتها لي قبل قليل ، دون أن تكشف له عن اسمها ، كما طلبت منه «أن لا يصورنا ولا يذكر من نكون ، ولكن الوفاء لها يجعلني أقول لك إنها لولا راشيل لما دخلت المدرسة وتعلمت القراءة والكتابة ، فهي التي سجلتني مع إخوتي في المدرسة . . . ثم تركناها بعد ثلاث سنوات بسبب حاجتنا إلى خبزة العيش .» .

– ولكن لماذا تصورونها؟

– لأنها واحدة من سبعة أشخاص هم آخر من تبقى من اليهود

العراقيين . وكذلك ليلى التي كانت ترقص في أبرز ملاهي العاصمة بغداد .

قالت له الخادمة :

- إنها لم تعد تتذكر شيئاً ولا تتعرف حتى على صديقتها ليلى ، لأنها مصابة بالزهايمر .

راشيل نطقت أخيراً وقالت :

- قلتو لصدقاني ما أغوح(*) .

قالت الخادمة إنها لم تعد تنطق بغير هذه الجملة في أوقات متباعدة . . عجوز وحيدة تسحب الخيوط من فراش الأريكة حتى لم يتبق فيها سوى القطن والخيش فوق الخشب . وقبل أن يسأل الصحفي سؤالاً آخر سحبتني أمي من باب آخر غير الذي دخلنا منه ، كأنها كانت تحفظ تفاصيل هذا البيت وتحتاط من وجود رجال آخرين في الخارج . ولما دخلنا ممراً مظلماً يؤدي إلى الحديقة . . توقفتْ لتخطف نظرة سريعة هناك ، فمرت على وجهها ابتسامة سرعان ما خبأتها خلف العباءة . . كنت أظن أمي أمية ، واستغربت قولها ليوسف أبو الدفتر إن راشيل كانت قد سجلتها في المدرسة التي داومت فيها ثلاث سنوات ، وعندما أصبحنا في أمان تنهدتْ وواصلت كلامها لي مرة أخرى ، قائلة إن راشيل في عيد العرازيل كانت تقيم عرزولة في حديقتها هذه ؛ وهي عريشة أو مظلة تحيط بها أعمدة الكلل(**) ، وتبقى ثمانية أيام تأكل وتشرب وتنام فيها ، حيث تؤمن بأن زخات المطر الأولى وقت الخريف

(*) قلتو لصدقاني ما أغوح : باللهجة العراقية لليهود تعني قلت لأصدقائي لن أذهب .

(**) الكُلّة : الناموسية .

تسقط فوق العرازيل في هذا العيد .

هه . . ماذا علي أن أفعل . . تركتني ماري مرة أخرى لإبراهيم وسافرت . . لماذا تترك بيتها وتهاجر؟ . . لماذا لا تتمسك ببيتها كما كنت تفعلين يازينب؟ . . ألأنّ الهجرة تمشي في دمها منذ جدها الأول بنكان ، الذي تركت صورته في البيت معلقةً أمامي ومعها صور ألين وياسمين وأدور وعبد الأحد وأمه صوفي؟ . . الأيام تمضي بطعم وبلا طعم . . بطيئة ومنفصلة بعضها عن بعض . . أصبحت ماري تتصل بي بين ساعة وأخرى وتنصحني بالسفر . . وتزورني بين فترة وأخرى طوال الأعوام الثلاثة التي قضتها في عمان . . ولكن عندما هاجرت إلى كندا تباعدت زياراتها وأصبحتُ أنتظر أنْ تحدث معجزة تجعلني أعود إلى دراسة الدكتوراه . . إششش . . لم أتم كلامي بعد . . هناك أكثر . فقد حدثت المعجزة بعد ولادة ابنتي . . سميتها زينب دون وعي مني . . طبعاً وبدون تفكير . . وهي في بطني كنت أناديها بزينب . . سمعت نبضات قلبها وهي في الشهر الثالث في بطني . . لم يصدقني أحد سوى الطبيبة . . وكنت أنتظر رفستها بعد استيقاظي كل صباح ، فإذا تأخرتْ وضعت يدي على بطني حتى تشعر بدفئها فتتحرك . . تتململ قليلاً ثم تغير مكانها فتتقلب . . تعطيني إشارة الحياة قبل أن أنهض من الفراش ، وإذا لم تحدث هذه الإشارة بعد الاستيقاظ ، أتحدث إليها وأحثها على مد رجليها المقرفصتين إلى أمام لكي ترتاح قليلاً . . غريب كيف أشتاق إليها عندما تكف عن الحركة وأحدثها وأقول لها أين أنت يا زينب؟ تحركي ياحبيبتي . . هيا يا حبيبتي . . تحركي ، فتتحرك وتجعلني أبكي من السعادة . . ومع كل شهر يمر كانت حركتها تزداد وتكبر وتصبح تقلباتها أعلى من الأول ، حتى إنها كانت

أحياناً تجعل جهة كاملة من بطني ترتفع إلى أعلى . . أرفع ثوبي وأتفرج على بطني لساعات طويلة ، فيسخر إبراهيم مني . . أشرب الحليب من أجلها وآكل الفاكهة من أجلها . . وعندما ولدتها تشبثت بها كما تشبثت يا زينب بباب البيت ، ولم أتركها لحظة واحدة بعيدة عن ناظري ، لكي لا يتكرر الخطأ . . ولدتها في البيت . . ولو كانت بيبي صبيحة موجودة لقامت هي بتوليد زينب الصغيرة . لا لا لا . . كنت أمزح معك طبعاً .

طلبت من جارتنا أم عامر أن تجد لي قابلة ممتازة في الجوار ، ولم يكن ذلك صعباً بعد أن تحول كل حي إلى مجمع طبي متكامل يعمل صباحاً وعصراً ؛ لكي يوفر على الساكنين مشقة التجوال والعذاب بين الشوارع إذا ما اضطروا إلى الخروج من مناطقهم ومعهم مريض . . . . . زوزو . . زنوبي . . زبيبية . . أنغا . . أنغا . . فتضحك في حضني وأنسى كل ما فات . . عندما أراقب أصابعها وشعرها الذي كان كثيفاً بشكل جميل ، أجد تحت الأظافر جلداً ورقياً متقشراً ، وتحت الشعر أذنان هشتان تتقشران على الدوام . . ثمة حزوز عميقة أعلى كفيها البضتين تجعلهما تبدوان وكأنهما يدا دمية . . كانت تتقشر هي الأخرى على الدوام عن جلد مبشور أبيض اللون يشبه ذرور طيب الرائحة . . وعندما أصحو من النوم وأجدها تلهو في مهدها أحملها وأحضنها وأشمها ؛ وأنا أكاد أبكي من شدة الفرح . . بعد الفطام أخذت أقيس طولها ووزنها كل يوم . . كان وزنها ثلاثة كيلوات عندما ولدت ، وكان يجب أن يتضاعف مرة كل ثلاثة أشهر . . ولكنها لم تكن تبلغ هذا الضعف إلا بشق الأنفس ، ولا تأكل البيض والموز والفواكه ، وتحب أن تشرب الكثير من الحليب فقط . . وعندما التهب إظفر قدمها الصغير وتورم بعد

أن غاص في اللحم الوردي الرقيق الذي يحيط به ، أحسست بشيء غريب ينغزني في إصبعي ويحفر فيه أنا أيضاً ، ثم انتفخ ذلك الإصبع بعد ذلك واحمر وأخذ ينبض في رجلي . . اكتشفت تلك اللحظة أن إصبعي المتورم يحكني . . وبدلاً من أن أقوم بحكه هرعت إلى إصبع زينب المتورم أحكه بلطف وأدور حوله بتمسيد خفيف . . كيف لم أنتبه لذلك؟ . . إنها قد تبكي إذن لأن هناك مكاناً في جسمها يحكّها دون أن تستطيع الوصول إليه أو حكه . . جعلني ذلك بين فترة وأخرى أقوم بحك ظهرها أو أطرافها براحة يدي . . أصبحت تعيش في حضني ولا أستطيع وضعها في مهدها إلا عندما تنام . . . تنام كثيراً بعد أن أدفئ لها المهد بكيس من الماء الحار ليصبح دافئاً كحضني . . ولما أراد أبوها أخذها ، بعد الطلاق ، لم يستطع إثبات شيء ينتقص من أمومتي . . تعرضت للاكتشاف مرة أخرى فاكتشفت للمرة الأولى أني عاقلة .

لأول مرة يحدث الشيء الصحيح في حياتي . . لأول مرة أخذتُ الحق بدون الحاجة إلى سلاح سوى الحق نفسه . . كان إبراهيم يريد أخذها مني بحجة أنني مصابة باكتئاب شديد واضطراب عقلي يمنعني من تربية البنت . . أحالتني المحكمة إلى الطبيب النفسي لكي يؤكد ذلك في تقرير للمحكمة ، ولكني عندما دخلت على الطبيب النفسي ، وجدت أن الدائرة التي مشيتها طوال عمري تنتهي هنا . . عرفت الراحة بعد العذاب . . عرفت السبب في كل محنة . . عرفت أن العدل موجود بعد كل امتحان . . تارا التي انتحرتُ أنا بعد حفلة خطبتها بسبب قلم كحل . . تارا التي سلبتُ منها ابنتها الجميلة رازان . . كانت هي طبيبتي النفسية . .

قالت تارا إنها شكّت بإصابتي بالاكتئاب أو التوحد عندما كنت

أبيت معهم أيام التسعينيات ، أو عندما كانت تبارك تروي لها ما أنا فيه من ألم . . أما الصرَع فصحيح أنه مرض عضوي ناتج عن تليّف بعض خلايا الجهاز العصبي ، كما تقول ، إلا أن تباعد نوباته لديك يدل على أنه عارض نفسي سببه الزعل الشديد وليس مرضاً مزمناً . . وهذا النوع يمكن معالجته فيشفى المريض نهائياً كما حدث معك . ولكنها الآن تعتقد أن نوعاً من الذهان ، الذي يترافق مع اضطرابات الهلع أو القلق ، قد تداخل عندي بعضه مع بعض ، وازدادت معه بعض الاضطرابات الجسمية والنفسية . . ورجحت أنني مصابة بالعصاب ، وهو اضطراب عصبي ترافقه الهواجس المختلفة في كثير من الأحيان . . وقد تكون الشخصية الفصامية إحدى علاماته ، حيث صاحب هذه الشخصية يميل إلى الخجل الشديد ، ولديه صعوبات في إقامة العلاقات الاجتماعية أو الحفاظ عليها ، وعندما يؤلمه شخص ما فإنه يفضل أن يتخشب ويموت عاطفياً بدلاً من إيذاء ذلك الشخص . . وبعض المرضى يبدو أنهم لا يشعرون بأية عواطف . لكن آخرين منهم يظهرون عواطف غير ملائمة ، مثل الضحك في مواقف حزينة ، والتحدث إلى أنفسهم أو إلى الأصوات التي يسمعونها دون غيرهم . هل تعلمين يازينب أني كنت أضحك في سري من تشخيصات تارا العجيبة . فأنا أعرف مابي . . هناك وقت لذيذ أتحدث به مع نفسي ؛ فأشعر بالراحة التامة كما أفعل الآن . . فكيف تسمي تارا ذلك بالعصاب أو الذهان أو الفصام؟

لربما ورثت ذلك عن أبي عبد الأحد الهادئ الأنيق . . ألم أره يناجي نفسه في الأرجوحة بعد انقضاء أول يوم ذهبت فيه إلى هناك . . قد أصبح الآن في تورنتو مع ماما ماري وأدور ، الذي حصل

على الدرجة العلمية الأولى بتفوق من كلية الطب في جراحة وطب الأطراف . . . أحدثه في بعض الأحيان ، وكلما تتصل بي ماري أوشك أن أوصيها بأن لا تترك النافذة مفتوحة وتخرج ، أخاف على أبي من البرد ، وكان هو الوحيد الذي أشتاقُ إليه وأبكي على فراقه . . يكون الكلام على طرف لساني ولكني أخجل عن الإفصاح عنه . . وكنت أعرف أنه قد تجمد هناك بعيداً عن الحديقة والأرجوحة التي يُحدّث فيها نفسه . . . . . لا ألتهي إلا بالحزن . . ولا أتذكر غناء تبارك بين الدروس إلا لأنه كان مرتبطاً بأوجاع عضلات رجلي بعد درس الرياضة . . إذا نظرت إلى الستارة تذكرتُ صانعها مصلوم الأذن ، وإذا نظرت إلى مهد زينب تذكرت بائعه مبتور الأصابع ، واذا نظرت إلى غرفة نومي تذكرت إبراهيم . . لا زالت جارتي أم عامر ، التي كادت أن تستدعي لي الشرطة في أول يوم رأتني فيه ، تعلمني كيف أحمم زينب وأداويها بالأعشاب . . تقول لي لا تضعيها في حضنك كثيراً ، فأقول لها انظري كم هي ضعيفة . . ولا تستطيع المشي ، فتقول إنها بخير وستكون بأحسن حال ، وتنصحني بالاستمرار بأكل التمر ليكون حليبي مغذياً لها ، فلا تتأذى أو تضطرب وأضطر إلى سقيها شراب اليانسون أو ماء الغريب .

لم تتمكن ماما ماري من المجيء سوى مرتين بعد أن أصبحت زينب في الثالثة ثم الثالثة والنصف . . كانت تجلب لها الكثير من علب الشكولاته واللُّعَب الغريبة الجميلة ، لم تكن زينب تحب منها سوى مهرج يُخرج رأسه من القمقم ، فتتحرك معه وتكرر تلك الحركة حتى بعد أن يتوقف المهرج من التحرك يميناً وشمالاً . كانت تنظر باستمرار إلى إبهامها ، وعندما أتحدث معها لا تنظر إلى عيوني مباشرة بل تشرد

بعيداً ثم تبدأ حركتها المتكررة إلى الأمام والخلف . . وبعد عامها الثاني وجدتُ أن كل حركة من حركاتها تتكرر ولا تتغير ، فأخذتها إلى الطبيب ، وأجريت لها تحاليل عدة ، كتخطيط المخ والأشعة الكهرومغناطيسية واختبارات السمع . كانت والحمد لله جميعها سليمة يا زينب . . لكنها لا تستعيد ما حفظته عندما أطلب منها ذلك ، بل حسب رغبتها هي ، كما وتنطق بعض الكلمات ولكن ليس بينها جملة واحدة كاملة . . وأحيانا تتكلم معي بكلام غير معروف وتندفع إلى الباب حين يأتي شخص غريب . . تفرح بقدوم ضيف ثرثار تفهم منه كل شيء وتقاطعه بطريقة مستمرة بكلمات متكررة . . وترهف السمع إلى كلامنا حتى عندما تشاهد الكارتون في التلفزيون ، وتقاطعنا بكلمات مبهمة تحتاج إلى ترجمة مني . . السيارة بيب بيب . . الكلب عوعو . . والطعام عم عم . . . فتقول (أسامي) لا تكلميها بلغتها الطفولية وحدثيها بكلمات صحيحة واجعليها تكررها على الدوام .

(أسامي) ، هي نفسها كاتبة المقالات العظيمة التي يقرؤها الجيران وأحيانا يطرونها أمامها ، وتسمع إطراءهم عندما تكون في الشارع ، فتبتسم في هدوء وتمد أصابعها السمراء الطويلة أمام عينيها كأنما لتشكرها لما تدعه تشعر به من رضا عميق . لم تزرني إلا بعد خمس سنوات من جيرتنا ، فعرفت أنها تكتب سبع ساعات يومياً على لابتوبها في الجريدة ، وعندما تعود إلى البيت تكتب عشر ساعات أخرى . . يعني ، كما تقول ، إذا توقفت أصابعي عن الكتابة فهذا يعني أنني مت أو نمت . . عندما تلومها أمها على ذلك الهوس الذي يؤذي صحتها ، تقول ما أحوجني إلى هذا الكيبورد الذي يرويني كالماء ، أما

الفائض من شؤون الماء الأخرى فتعتبرها السموم التي يجب أن تذهب إلى مكانها المحتوم في دورة المياه . ظلت تكتب طيلة عشرين عاماً من حياتها حتى بلغت الأربعين من عمرها دون أن تتزوج . هل تتذكرين ما أخبرتك به قبل قليل يازينب؟ أكان ذلك في العيد الماضي أم قبل قليل؟ عندما قلت لك إن أمها جاءت بها من بيت مجاور لبيت ماري ، وطلبت منها أن تتصل بالشرطة بعد أن رأتني هناك أول مرة ، فضحكت وقالت أية شرطة؟ ألا ترين أنها نسخة طبق الأصل من عبد الأحد . . عرفت بعد ذلك أنها تحب العزلة إلى درجة غريبة جعلتها تسكن في جناح منفصل متصل بأهلها . . وبعد ذلك لم أرها لعدة سنوات حتى سافرت ماري ، وشاءت الصدف أن تأتي لي أمها بمجموعة صحف ومجلات أتسلى بها ، فجاءت بالصحيفة نفسها التي تعمل فيها ، وفيها مقالة كتبتها (أسامي) عن زميل لها عاش بلا اسم ولا صفة . . أسمته (السيد سين) وكان يكتب مقالاته بأسماء مستعارة . . يسأله زملاؤه كيف يقبل أن يعتقد الناس أن ما يحبونه من موضوعات يكتبها أشخاص وهميون مثل سمر أو سامر أو سوزان ، فيقول لهم إن الظل بارد وجميل ، وإن المهم العمل لا العامل ، والقول لا القائل . . يقولون له : ولكن هدف التسلل لا يحتسب . فيقول : ومن يريد الأهداف؟ أريد فقط أن ألعب؟ وهكذا ظل السيد سين (يلعب) طيلة ثلاثين عاماً من حياته حتى بلغ الخامسة والستين من عمره ، فسقطت بغداد سقوطاً مريعاً بأيدي برابرة همج ، وطويت الأرض داخل قماط أسود يحمله منقار لقلق أمريكي أحمق ، فأُغلقت الصحيفة التي يعمل فيها وتشرّد الجميع بين بلاد الله الواسعة ، ولم تعد الأرصفة صالحة للسير ، ولا البيوت آمنة من القتل ، بل إن أسماء بعض زملائه قد ظهرت

مطلوبة علانيةً في مواقع شهيرة على الإنترنت ، فهاجر البعض منهم إلى تلفات الدنيا ، وبعضهم تطوع هو للسفر قبل أن يصله التهديد ، أما البعض الآخر فلزم بيته ولاذ بالصمت طلباً للأمان ، إلا صاحبنا سين الذي لم يظهر اسمه قط على أية قائمة للمطلوبين ، ولم يصله أي تهديد بالقتل ، وكيف يظهر اسم من كان بلا اسم أو صورة من كان بلا صورة أو لقب من كان بلا لقب؟

طرأت ببالي أفكار عدة بعد تلك المقالة التي قرأتها أكثر من مرة حتى حفظتها ، وأعجبني السيد سين الذي نجا من التهديد لأنه كان بلا اسم أو صورة أو لقب . . وفكرت بالموت للمرة الثالثة ، بعد مرة الكحل ومرة القارب ، وقلت يا لها من فكرة جميلة أن يكون الواحد منا بلا اسم ولا صفة . . يعني أن يموت بدلاً من أن يعيش . . . من كل شيء يتوارى . . من الشارع والضيوف . . ومن الكناس والشحاذ ، ومن الناس كلهم . . هذا كان ما يريده أبي محمد فكيف أجده جميلاً الآن . . شعرت للمرة الأولى برغبة شديدة في التحاور مع أحد . . وفي أن أطرح فكرة أنا التي توصلت إليها على أحد . تدربت على كلام مقبول ومجاملات رقيقة ثم تجرأت وزرتها للمرة الأولى بعد ذلك المقال ، وبعد قليل سألتها بشيء من الخجل : ماذا تقصد بما كتبت؟ وهل هذا الشخص الذي تتحدث عنه في مقالتها موجود فعلاً؟ . . قالت نعم إنه موجود وهو زميلها الوحيد الذي نجا من أهوال الحرب ، لأنه عاش بلا اسم ولا صورة ولا لقب ، وحتى بعد أن عثر على صحيفة جديدة يعمل فيها بعد الحرب تكون بلا شعارات رنّانة تصم الآذان ، وليس فيها امتيازات تجعله يشعر بالخوف أو القلق . فقد ظل يكتب ما يشاء ، ولكن بلا اسم ولا صورة ولا لقب . . وكل ما يكتبه

من زوايا وأبواب فيها تحت أسماء مستعارة ، كان هو الطريق الوحيد للدخول إلى الحلم الذي تبقى ، والذي ظل بالنسبة إليه ، يعني اسما طي الكتمان ، وصورة طي الكتمان ، وعقيدة طي الكتمان . . قالت إنه كان يردد دائماً ما قاله نوري ثابت في جريدة حبزبوز الهزلية (أحلف بالمسناية(*) مال خضر الياس آني حزب سز)(**) .

أخبرتها عن فكرتي ، فاستغربتْ وقالت إنها لم تقصد الموت بما كتبت . . ولكنها قصدت أن العمل هو المهم ، وليس من قام به ، والقول هو المهم وليس من قاله . إن الخلو من الصفات يجلو الجوهر ، لأن الإضافات هي آفة الآفات . قلت لها ليس من السهل أن يطرح الإنسان ثوبه جانباً من أجل أن يلبس ثوباً جديداً . ألم يربّنا أهلنا على مقاسات تلك الثياب؟ . . والشيء الوحيد الذي يخلصنا منها هو الموت . ضحكت أسامي وقالت :

– لا زلتِ شابة تحللين الأمور بالمثاليات . . وعندما تكبرين ستنظرين إلى الماضي بشكل مختلف . . أهم ما في الكهولة هو أنك تمتلكين الحق في أن تكوني على خطأ .

– ولكني أفكر بـــــــــ . . . . أفكر بشيء آخر . . . . . أنا أحببت الموت على طريقة السيد سين وليس على طريقة أهلي . .

(*) المسناية : موضع على شاطىء النهر ينزل اليه العابرون إلى الضفة الأخرى لكي يركنوا القارب أو (الكُفة) البغدادية التي امّحت من تاريخ بغداد ، وكان في بغداد آنذاك العديد من المسنايات ، لهذا فإن حبزبوز قد حلف هزلاً بالمسناية وليس بمرقد مثلاً .

(**) حزب سز : غير منتم إلى حزب .

أعجبني السيد سين لأنه عاش حياته بالموت . . أقصد أن فكرته لطيفة جداً لأنه فعل مايريد بطريقة آمنة هي التنكر . يعني هذا ما تمنيته أنا عندما تنكرت بثياب ياسمين جديدة . . تمنيت أن أفعل ما أريد بنفس مرتاحة وإحساس رائع . . ولكن ياسمين القديمة التي تخاف من كل شيء لم تمت . . لا أستطيع التنكر لها . . فكيف استطاع السيد سين أن يفعل ذلك؟

– همم . . يبدو أنني فعلاً أمام ياسمين جديدة تولد من جديد . . ما أجمل ذلك .

نظرتُ إليها خطفاً . . إلى بساطة ملابسها ، وإلى قَصّة شعرها القصيرة ، وإلى التعبير اللا مبالي في إيماءاتها اللطيفة ووجهها النحيف . . لولا ما روته لي تبارك عنها لبدت لي تلميذة شاطرة لم تعرف يوماً أي غم أو هم عدا دروسها وامتحاناتها . . كأني رأيتها من قبل ، ولكني لا أعرف أين؟ . . . . زارتني للمرة الثانية بعد أسبوع وهي تحمل لي عدة صحف فيها مقالاتها ومقالات أخرى . . كانت تحثني على القراءة بطريقة خفية بعد أن التقطتْ فكرتي عن الموت وأرادت ، كما يبدو ، تحويلها باتجاه آخر . . عُزلتُها تداخلت مع حكايتي فأرادت تدوينها بعد أن أثارت اهتمامها واستمتعت بالانصات إليها ، بالرغم من لا مبالاتها الظاهرية وشغفها بالعزلة . . وعندما اصطحبتني معها مرة إلى السوق ، وجدتها تلتقط الثمار كيفما اتفق ، ولا تدقق كثيراً في وزنها أو شكلها أو سعرها . . أنا التي كنت أعدها وأدقق فيها . . وطبعاً بيبي صبيحة هي السبب . طبعاً . . طبعاً . . طبعاً يازينب لأنك لا تعرفين أن أمك قد ماتت بسبب برتقالة .

في السيارة وضعت (أسامي) أغنية لفيروز . . فعرفت أين رأيتها :

كانت تشبه طالبة من أيام الثانوية اسمها نجاح ، وكانت تغني لنا في أوقات الدروس الشاغرة أغنية محددة لفيروز هي «بكْتب اسمك يا حبيبي على رمل الطريق وتكتب اسمي يا حبيبي على حور العتيق» . . ضحكتُ وقلت لها عن الشبه بينها وبين الطالبة التي كانت تغني لنا عن رمل الطريق ، فقالت لي أسامي هل تعرفين ماذا تعني تلك الكلمات؟ قلت لها :

– كلا .

– تعني أنها كتبت اسمه على شجرة الحور لكي يبقى محفوراً ولا يزول . . أما هو فقد كتب اسمها على الرمل الذي سيطيّره الهواء .

– ياااااااااااه . . . .

– . . . . . .

– معقول أن نسمع كلمات الأغنية ولا نفهم معانيها إلا بعد عشرين عاماً؟

– مثل الكثير مما نسمعه ولا نفهمه إلا بعد بسنوات . .

– أنت تعرفين الكثير .

– أنا أجهل الكثير .

ظننتها تقصد الزواج بهذا الكثير الذي تجهله . . وفكرت فعلاً أن أسامي تمتلك الحق في عدم الزواج ، وهي تكسب حريتها مع تقدم العمر . . . . فهي لا تنحرج مطلقا لا من سفورها ولا من بقائها بلا زواج أو سكنها في مشتمل منفصل عن أهلها ، بل تسخر من نفسها ومن عنوستها ، وتعدد بثقة بالغة سيئات الزواج في زمن القتل والخطف وهدم البيوت . . «هه . . أليس هذا أيضاً بعد ذلك راحة راس . . أن أكون امرأة عانساً بلا أولاد أقلق عليهم وبلا مناسبات . . لا

حمل ولا ولادة ولا أعياد ميلاد . . لا ملاعق يانسون ، ولا صراخ في الليل ، ولا قلق على غرام واحد من فرق الوزن أو سنتمتر واحد من فرق الطول . . وفي النهاية سيكون عنيداً مثلك يريد أن يموت بدلاً من أن يعيش . . أن لا يجرب أي شيء لكي لا يخطىء» .

بوم! . . صوت رهيب يشبه سقوط صاروخ من السماء ، انتبهتُ عليه من النافذة المغطاة بستارة من الخرز ، فوجدت النخلة العملاقة قد سقطت من زاويتها الركنية وتمددت هامدة على الأرض . . النخلة التي أكلتها الأرضة أصبحت خاوية . . نخرتها الديدان وأكلت لبها فتهاوت ممددة على أرض الحديقة . بعد ذلك الصوت المدوي حدث سكون شديد في البيت . . سكون مريح يبعث على الراحة . . لم أقلق نفسي حتى بالسؤال لماذا؟ أو بالقول حرامات . . لم يقلقني الفراغ الذي خلفته تلك النخلة الفارعة . . ولكن أفرحني أنها وفرت عليّ عناء استئجار من يقطعها ويحملها بعيداً عن البيت ، بعد أن قالت لي ماري بالهاتف إنها ملظومة بحشرة الأرضة . ذلك النهار كانت الغرفة قد عادت فارغة ، وكأنْ لم يدخل إليها أحد . . لا ماري ولا إبراهيم ولا عبد الأحد . . لا أعكّر صفو أحد ولا يعكر أحدٌ صفوي . . بهذه الغرفة أعيش في فراغ جميل تتشابه فيه الساعة مع ربع الساعة . . وهو الفراغ الذي تسميه (أسامي) بنقطة الصفر ، وتقول إنه يشير إلى انبثاق النظام من أقصى درجات الفوضى . انتبهت لحكايتي وذكرت لي اسم مؤرخ عبّر عن المعنى العلمي للاضطراب بشكل بليغ في قوله : «الاضطراب غالباً ما يولّد الحياة ، بينما النظام يولّد العادة» . . وهذا ، كما يقول ، ما يفسر أن حركة سوق الأسهم ليست عشوائية ، لكنها في الواقع فوضوية وتتبع نظاماً معيناً ينبثق من الفوضى . تقول أسامي إن هذا هو ما

يسمى عند علماء الطقس بتأثير الفراشة ، لأن حركة صغيرة جداً كخفقان جناح الفراشة في الهواء ، تكون آثارها كبيرة في حالة الطقس ، وقد تتسبب بإعصار قد يضرب منطقة في مكان ما في العالم .

كانت (أسامي) قد أصبحت تعطيني الجريدة كل يوم . . وفيها أقرأ المقالات والتحقيقات والأعمدة . . وبعد ذلك أعوز الاستفسار عن بعض التفاصيل فأسألها المزيد ، وقوفاً بالباب أثناء عودتها من العمل . . وجدت نفسي ذات لسان فصيح معها . . بدأت أفهم لماذا لا تزور أحداً ولا يزورها أحد . . فهي لا تملك الوقت الكثير لشيء غير الكتابة ، ولهذا كنت آخذ الصحيفة منها وأمضي إلى البيت ، وفي اليوم التالي أهاتفها أو نتحدث وقوفاً في الباب أيضاً عما أعجبني في الجريدة . . . . سألتها إذا كانت تصف نفسها بأنها امرأة بدون مناسبات كما تقول ، فهل هي نفسها السيد سين الذي كتبت عنه وقالت إنه يعيش بلا اسم ولا صورة ولا صفة؟ قالت : ليتني كذلك . . فأنا لا زلت أملك أوهاماً كثيرة . . وَهْمُ الشهرة ووهم الأمل ووهم تغيير العالم . . أوهام جميلة تجعلني أتجرع الحياة وترويني الماء وتمنع عني الجفاف . . ولكن قصدي من الكتابة عن السيد سين هو أنه يستطيع أن يكتب بمنتهى الحرية ما دام يكتب بدون اسم ، بل يستطيع حتى أن يؤلف كتاباً رهيباً يقول فيه كل الممنوعات ولن يحاسبه عليه أحد ما دام هذا الكتاب بدون اسم . . الظل بارد وبطيء ولا يسبب أي ألم . . هذا ما يقوله كاتبها الأعمى الذي تحبه وهو يصف العمى بأنه لا يسبب أيّ ألم . . إنه ينزلق فوق سفح ناعم . . . . . ويبدو كالأزل .

قالتْ لي «أنت قارئة ممتازة ياياسمين . . هل تعلمين أني كتبت

هذه المقالة بمسودات كثيرة ، ولكنك قرأت أفكاري بقراءة واحدة وفهمت حتى ما لم أفهمه أنا . . هذا يجعلني أنظر إلى الظل بإعجاب أكثر . . وأقول إن قراءتك تشبه ظل النار على زجاجة النافذة . . هذا الظل هو نار أيضاً ولكنه ممتع ولا يحرق الأصابع» . . . بدأتُ أحكي لها عن إبراهيم الذي كنت قد أوشكت على الطلاق منه ، لأنه خلع قناعه بعد الزواج . . قلت لها إنه لم يكن فقيراً ، فلماذا سقط قناعه؟ وهل هذا من بقايا الحرب؟ فأجابت : كلا إنه من بقايا البداوة . . لقد عاش الرجل في فلاة واسعة لا ماء فيها ولا خضرة . . في ذلك المجتمع كان عمل المرأة شبه معدوم ، ومن الأفضل لها أن تلزم بيتها أو خيمتها ، بينما الرجال يبحثون عن الغنائم والسبايا في غارات لا تنتهي . . وحتى عندما جاؤوا إلى بلاد الأنهر كمصر والعراق ، استمر الوضع على ما هو عليه . هذا كله ليس من عندي ، ولكنه مروي في كتب التراث ، حيث تعج بفضائح الجواري والغلمان التي أصبح مسكوتاً عنه الآن . . لا توجد في الكتب سوى الأمجاد والانتصارات ، أما السبي والغزو والنهب واقتناء الجواري وقتل الخلفاء لإخوتهم وأبناء عمومتهم ، فهذا كله ممحو من المنهج . . وبدلاً من أن نناقش هذا التراث ونمسح منه صلف الرجال وعنجهيتهم أصبح الرجال الفارغون المتجبرون ينتقون منه ما هو ضد المرأة فقط ، وبالتالي فإنه من الطبيعي فقط أن ينشأ الرجل وهو يضع فوق رأسه تاجاً من ورق ، ثم يبخس حقوق المرأة ، لأنه لا يتصور عقلاً راجحاً ينص عليها . فالجمود عندهم هو العقل . . والتفكير جريمة . . والجهل فضيلة . . والاختلاف خيانة . . والحاكم إله . . والمرأة حيوان . . والماضي خط أحمر . . والرأي أسود أو أبيض . . والسكوت من ذهب . .

أعطتني جريدة جديدة وتركتني مع تفسير آخر ساخر لمشكلة الرجل العربي مع المرأة قرأته لكاتب عراقي يعلق على محاضرة ألقاها في لندن بروفسور اسمه الدكتور عبد العظيم السبتي . كان العالم الفلكي يستبعد موضوع تأثير العناصر الكونية ، كالشمس والقمر والنجوم وأشعتها وتقلصها وتمددها ، في سلوك البشر أو أن يكون لأي ظاهرة كونية أو تغير فلكي خطير من تأثير فينا . بينما الكاتب الساخر الذي تعرض للندوة كان يقول العكس من ذلك . . نسيت اسمه ولكن تفسيره لخمول سكان دول الأرض الجنوبية يقوم على أثر الأشعة الشمسية ، التي تجعل الإنسان يميل إلى الراحة والكسل تحت نور الشمس وحرارتها . . وبدلاً من تدفق الهيموغلوبين والأوكسجين إلى الأعلى لتغذية المخ كما كان يفعل في زمن رمسيس وسنحاريب ، سيتدفق بفعل تغير الجاذبية إلى الأسفل . . . فيحل التلف بخلايا المخ بحيث لم يعد الرجل العربي يفكر بشيء آخر غير ذلك الجزء الأسفل . يقول إنه لا يستطيع حقا أن يجد أي تفسير آخر لمدى غباء وتفاهة وحيوانية الكثير من حكامنا الرجال . . . فكرة أخرى تستحق الكلام . . لأن عيونهم ستعمى في النهاية مثلما عميت عيون أبي محمد الذي كذب على أمي وخانها مع أختها . . هه . . بسبب أشعة الشمس أو جاذبية الأرض أو سرعة دورانها . . ياله من شيء غريب!

مرآة الجنة

أوشك الرجل في الأعالي على النزول من النخلة الثالثة ، بعد أن امتلأت كونيتا الولدين بالكرب ، ووضع أحدهما المصيدة في جيبه ، والثاني وضع قلماً ، عثر عليه ، خلف أذنه . . ليتهما يبتعدان عني . . لم أكمل حكاياتي بعد . . إنه عيد الأضحى وأنا الآن في الجنة يا أمي . . بينما ماري ، في غابات الزان والصنوبر قرب شلالات نياغارا وحدائقها ، تضع قبعة على رأسها وترسل لي بالإنترنت صورها في حديقة الحي العاشر . . عجوز تسقي الزهور وتعلن هيامها بالثلج والبرد والمطر والثلج الذي تشبّهه بحبات اللؤلؤ عندما يسقط . . وكلما تتصل بي تطلب مني بيع البيت ثم المجيء مع زينب الصغيرة ، فأقول لها : الله كريم ، وأتحدث أحياناً إلى أبي أو إلى ياسمين الأخرى .

- ألو .

- ياسمين .

- من؟

- أنا ياسمين .

أكاد أحياناً أن أناديها لأسألها من تكون؟ ولماذا تحمل اسمي بالذات؟ وأين يكون بيتها؟ ومن هما أبواها؟ زينب ومحمد عبد الواحد ، أم ماري وعبد الأحد؟ لو كان اسمي هو الذي تغير ، وليس أهلي ، هل كنت سأشعر بالغربة عندما ينادونني الناس بالاسم الجديد

بدلاً من اسمي الأول . . العيد عيدي أم عيدها؟ تقول إنها ستتصل بي بعد العشاء . . ولا تتصل بعد العشاء ، ولكن قرب الفجر . . بسبب فرق التوقيت . . قبل سبع ساعات من الآن ، وكذلك ماري في تورنتو ، ستتصل مرة أخرى بعد عشر ساعات من الآن . وفي المرة الأولى كنت في طريق العودة إلى البيت صامتة لا ألتفت إليها ، ولا أنتبه إلى ما تقول . . سؤال تلو سؤال ، متى تبيعين البيت وتأتين إلينا؟ متى تقررين؟ ياسمين تسمع واحداً وتتجاوز آخر حسب ما تعترض ذلك من أفكار شتى كانت تأخذها من زمان وتعود به إلى زمان آخر . . فالطريق لا يصبح طريقاً إلا عندما يتكرر . . هذا ما اكتشفته بنفسي أثناء تعلمي قيادة السيارة . فبعد شهور من سلوك الطريق نفسه ، فقدتُ حاجتي إلى الانتباه ، وأصبحت أسير أحياناً ، وأنا شاردة الذهن تماماً ، ومع ذلك فأنا أصل إلى المكان الصحيح . . فهل هذه هي غريزة الحشرات يا بيبي صبيحة؟ . . هل تهاجر وتتكاثر وتبني أعشاشها بهذه الطريقة؟ . . طريقة التكرار وحدها أو النظام الذي يولِّد العادة؟ . . انقلبت آذان بيبي صبيحة من كلامي هذا ، وفي لحظة أخرى انقلبت آذان أمي زينب وآذان ليلوة عبد العظيم . . وصارت ياسمين وحدها هي التي تستمع إلى كلامي . . أضحك معها وأقول لها . . غداً تستقبل ماري شلة النساء الأثريات حولها من جديد وتروح تؤسس معهم حوض السمك الملون الذي يعيش في المياه الصافية . . أما ياسمينة فقد تجمدت شهادتها هناك وراحت تعمل مترجمة للعراقيين في أوتاوا ، وترافق اللاجئين الذين يأتون إلى كندا من أجل إنجاز معاملاتهم على الإنترنت الذي لا يجيدونه ، بينما عبد الأحد متجمد بطريقة أخرى داخل شقته بعيداً عن حديقته والأرجوحة التي يحدث فيها نفسه .

أقول لتارا كيف حال روان؟ فتقول لي بشكل موارب إن اسمها رزان وليس روان . . أعرف أنها ذكية وتصحح لي بطريقة حذرة ، وأنها يجب أن لا تشعرني بأنني مريضة ، وتريد إيهامي بالصحة لجعلي أصح فعلاً . . وأنا أيضاً يجب أن أنتبه ولا أجعلها تفكر بأني مريضة . . لا أصارحها إلا بما أريد . . أي بما أظنه يُبعد عني شبهة المرض . . ولا أخبرها إلا بنصف الحقيقة عندما أدفع ياسمين ، وأمنعها عن التحدث ، وأجعل المشكلة تبدو للدكتورة تارا في ملجَة الحزن والاكتئاب الذي لا يفارقني . . أقول لها لماذا لا ألتهي إلا بالحزن؟ . . إذا نظرت إلى الستارة تذكرت صانعها مصلوم الأذن ، وإذا نظرت إلى مهد زينب تذكرت بائعه مبتور الأصابع ، وإذا نظرت إلى غرفة نومي تذكرت إبراهيم ، فتقول نحن لا نتذكر بقوة إلا الأحداث التي تترك فينا أعظم الألم ، لأن العذاب هو الذاكرة . . مثلي أنا . . نسيت كل مباهج حياتي ، ولم أعد أتذكر سوى ثلاثة أيام في حفرة الخاطفين . . وها أنا أحاول أن أفعل ما نصحتك به من تمارين الاسترخاء والتنفس بعمق بدلاً عن التنفس السطحي السريع .

ولكن ياسمين تنظر لي وتضحك في غفلة مني وتفعل ما تريد ، أو تتفوه بكلماتها هي عندما أتعب وأكف عن مراقبتها وإسكاتها بكلماتي . . ويبدو أن تارا تعرف ذلك وإلا لماذا تواصل علاجي وتقول إنه من المفيد العودة إلى الأصدقاء القدامى والاتصال بهم ؛ لمواجهة الناس بدلاً من الهروب منهم كما تقول تارا؟ كانت تعتمد علاجاً معرفياً يعتمد على تعديل أفكار المريض التلقائية ، ونمط التفكير السلبي الذي تعود عليه والمرتبط بجملة من الأفكار الخاطئة التي تساهم في تثبيت الخوف والهلع . وكانت تناقش معي هذه الأفكار وتحددها ، ومن ثم تعدلها من

خلال الحوار والجلسات العلاجية التي تركز فيها على التأمل الذاتي والاستبطان ، ونظريات سلوكية تحصر اهتمامها في الفعل ورد الفعل ، ولا تتبنى نظريات تؤمن بالحتمية البيولوجية للمرض . لماذا إذن لا أطيب؟ . . ولماذا لا يكون ما أنا فيه ليس جنوناً ، أو مرضاً ، بل هو عرض موجود في كل إنسان؟ . . ولم تكن ماري تعرف بكل ذلك وهي تتابع أخباري من خلال الهاتف والماسنجر ، وتراني مخطئة في بقائي لوحدي في البيت بعد طلاقي من إبراهيم ، وتعد الأيام من أجل انقضاء العام الأول الذي تستلزمه البطاقة الخضراء قبل مغادرة كندا مرة أخرى .

لا أخبرها بأن الجنة هنا . . أنا هنا في الجنة وحدي مع زينب الصغيرة . . وكل ما حدث لي فيما مضى توقف عند هذه النقطة؟ من أنا؟ وكيف سأربي زينب؟ . .مسلمة أم كلدانية أم أرمنية . . كل ما بدا لي من اختيارات متغيرة انتقلت بي من جلباب ووشاح إلى قميص وبنطلون ، لم تستطع أن تعرفني من أنا؟ . . هل أنا مسيحية تزوجت من مسلم ، أم مسلمة تحولت إلى مسيحية بسبب خطأ قديم؟ صحيح أنني أبكي طوال الوقت ، وأهرب من جلسات تارا العلاجية بحجج مختلفة ، ولكن لم يكن الخطأ القديم هو السبب ، وإنما إحساسي بأني واعية لتلك الجلسات أدخل وأخرج منها متى ما أشاء ، ومتأكدة من أنها لا تفعل شيئاً سوى تفاقم الذنب تجاه أخي مصطفى وأبي محمد . بعد خمسة عشر عاماً جاء الوقت لكي أعذر وأفهم وأسامح . . وأبكي أيضاً من الحنين إلى أمي زينب وبيبي صبيحة . . الآن فهمت لماذا كانت بيبي صبيحة تندب أولادها وقت الغروب . . الآن فهمت أن شيخوختها كانت تلخص العالم كله من بدايته وحتى نهايته . . وأنها كانت قد احتملت الكثير من البلاوي في الدنيا قبل أن تصفها بأنها لا تساوي

فلسين . . هذا كان يضعني في زاوية الندم والإحساس بالندم ، وليس في زاوية الحرية بالإحساس بالخطأ كما كانت (أسامي) تصف وتطري ميزات التقدم بالعمر .

لا زالت تبارك تزورني باستمرار . . تسحب الستائر فور دخولها المنزل وتقول : ما هذا الظلام؟ ماهذا الصمت الرهيب؟ لا زالت تبحث عن زوج ثان يتصرف على سجيته وتفكر ، بالهجرة إلى السويد من أجل ذلك ، بعد أن طلقت زوجها الأول آدم الذي عاشت معه عارية في الجنة . . لا يعجبها أحد يرتدي الكثير من الأقنعة ، ولا يعرف كيف هو الأصل ، ولا يشتاق إليه أو يفكر بالعودة إليه بين حين وآخر . . كل شيء عندها يتغير ولا يتكرر . أقول لها أين تذهب إذن؟ ولماذا تريد الابتعاد عن الأصل؟ فتقول إن الأصل عندها لا يعني المكان أو الديار ؛ فالعالم صغير في النهاية إذا ما ستطاعت العثور فيه على كيس بطاطا مملحة وبركة للسباحة ورجل مغامر يستطيع الجلوس معها على قمة جبل . . ولم أكن أدري أن العالم صغير فعلاً إلى هذا الحد . . فقد كانت تستطيع تبارك أن تحوله في ساعات لتحمل لي من مشاويرها الكثيرة بين الناس قصتين إحداهما أغرب من الأخرى . . واحدة روتها وهي تأكل الشكولاتة والثانية وهي تشرب كوكتيل المانجا والكيوي والأناناس . . انتظريني حتى النهاية . . لم تسكتين؟ هيا . لم يتبق شيء .

القصة التي روتها وهي تأكل الشكولاتة كانت صفحة مخفية من حياة إبراهيم الذي قالت إنها اكتشفت ، عن طريق أختها تمارا المهاجرة إلى السويد ، أنه كان متزوجاً هناك من امرأة سويدية طلقها بعد عودته فسلب لها القانون كل أمواله وابنته أيضاً . . إبراهيم ، الذي كان يريد أن

يضعني داخل جبة ويحبسني بالجب ، كان قد ارتضى لنفسه أن يتزوج امرأة لها صديق سابق ولا تضع أي حجاب بينها وبين الآخرين . . لم أصدق ما سمعت من تبارك ، وقلت لها لماذا فعل ذلك؟ فقالت تبارك إنه فعل ذلك للحصول على الجنسية . . وكل شيء يهون من أجلها . . يبدو أنك تحتاجين أخذ ازدواجية إبراهيم باعتبار أكثر ، وكيف كان قبل الزواج وبعده ، وهو طالب ألم يكن منطلقاً مع صديقاته وزميلاته ومعنا ياياسمين؟ وبعد الزواج بدأ يتصرف معك كمتخلف بينما تصرف كمتحضر مع السويدية ليتركها شبه عارية وحرة العلاقات . . أنظري كيف يريد هنا أن يحرمك من ابنتك وهناك يتخلى عن ابنته من السويدية مجبراً بقوة القانون .

أما (أسامي) فكانت بطلة قصة الكوكتيل الثانية التي لم تروها لي تبارك إلا بعد أن أعطتني دفتراً أسمته دفتر الأفلام وقالت اقرئيه . .

– ماهذا الدفتر ياتبارك؟

– شوفيه .

قلّبت الدفتر على عجل . . كان يحوي ملخصات لعشرات الأفلام العربية والأجنبية التي لا أعرف أكثرها ، وبعضها قديم جداً لم أشاهد منه سوى القليل ، كأفلام عبد الحليم حافظ وسعاد حسني . قلّبت الدفتر مرة أخرى من اليسار إلى اليمين ، وقبل أن أنتهي منه قلت لها ما هذا يا تبارك؟ . . ولمن هذا الدفتر؟ . . قالت إنه لأسير عراقي مات في السويد . . فاستقر به المطاف بيد كاوة زوج أختي تمارا . . إنه الأسير كافي الكيلاني قد كتب هذه الملخصات وهو في الأسر . . سألتها ومن هو كافي الكيلاني؟ قالت إنه خطيب أسامي الذي أنهى دراسته في كلية العلوم فرع الرياضيات في الثمانينيات ، ومباشرةً بعد ذلك ذهب

للجيش بصفة ضابط مجند بالصنف المدرع . . قضى ثماني سنوات ضابطاً في الجبهة أكثرها في قاطع البصرة . . لكن في آذار من العام ١٩٨٨ تحركت كتيبته للشمال ودخلت منطقة لا يعرفون أي شيء عنها . . وتبين لهم أنها منطقة حلبجة الكردية . . وفي أول صباح لهم في تلك المنطقة الوعرة قيل لهم إن المنطقة محاصرة من الأكراد والإيرانيين . . وتم ضرب المدينة بالأسلحة الكيمياوية . . دمرت كتيبتهم بدون معنى وبدون أن تؤدي أي دور يذكر نتيجة القيادة العسكرية الميدانية الفاشلة . . بقي من الكتيبة ثلاثة عشرة شخصاً ، وكان كافي الكيلاني من ضمنهم . . سقط جميعهم أسرى في أيدي الإيرانيين ، وظل معهم في معسكرات الأسر الإيرانية إحدى عشر سنة دون أي اتصال مع عائلته أو خطيبته أسامي ، وكلاهما لم يكن يعرف هل الآخر حي أم ميت؟ كانوا معزولين عن العالم لا يعرفون ما يدور خارج أسوار المعسكر ، ولا يجوز لهم أن يسمعوا الأخبار . . وحتى عندما دخل العراق الكويت سمعوا بذلك بعد شهر وعن طريق الصدفه البحتة . . كان المفروض بكافي الكيلاني أن يرجع إلى العراق في آذار ١٩٩٩ ، ولكنه تأخر سنتين إضافيتين قبل أن يعود ليجد أن أباه قد توفي ، وأخاه الصغير وأخته الصغرى متزوجان ولديهما أطفال لم يسبق له بالطبع رؤيتهم من قبل . . وضعه النفسي كان متعباً إلى درجة كبيرة . . ولم يستطع التأقلم مع الوضع الجديد بعد الاحتلال ، وكان يشكو من آلام في البطن ، فتوجه إلى السويد عام ٢٠٠٧ من أجل العلاج ، وعاش فيها هناك على أمل أن تتحسن صحته ثم يرسل بطلب خطيبته أسامي . . ولكن توفي هذا العام قبل شهر .

مات؟ نعم مات . . صاحب دفتر الأفلام وخطيب أسامي مات . .

وقد شاءت الأقدار أن أعرف قصته عن طريق تبارك ، التي تعرف من الأخبار ما لا يعرفه الكثير من الناس . بعد أن نامت زينب الصغيرة رحت أقرأ الدفتر بتمهل وأنا أفكر أن عمري كان أربع سنوات عندما أسر كافي الكيلاني ثم انتهى إلى المكان الخطأ وذاق أقسى أنواع العذاب . . ترك إخوته صغاراً وعاد ليجدهم كباراً متزوجين ولديهم أطفال يراهم للمرة الأولى . . لعبة جهنمية أمرّ وأدهى من لعبتي ، ولكنه استعان عليها بلعبة أخرى اخترعها وصدقها هي لعبة الدفتر ؛ فبقي على قيد الحياة . . لم يُمِته أسره في إيران ، ولكنه مات في غربته بالسويد بعد الندم على كل دقيقة قضاها في الجبهة التي ذهب إليها برجليه كما قال لزوج تمارا أخت تبارك . . ثماني سنوات في الجبهة وإحدى عشرة سنة في الأسر ، ومن حاصل جمعها تحول إلى حطام . . قالت تبارك إنه أتى إلى الجيش بملء إرادته بعد أن اندلعت الحرب ، وكان في بغداد ويستطيع مغادرتها بصورة رسمية لأنه كان مقيماً في الإمارات ، لكنه خجل من ذلك وقال كيف أسافر وأترك وطني يحارب ، فبقي في بغداد وذهب إلى الحرب لتتغير حياته إلى الأبد بل لتنتهي . . أمله ضاع بعد أن عاد إليها مرة أخرى فقتله الندم بعد أن لم يقتله الأسر . أما هذا الدفتر فكان مع زوج تمارا الذي طببه في مستشفى مالمو بالسويد ، فانظري كم هو صغير هذا العالم . . صغير يا تبارك؟ قولي إنه أصغر من خرم الأبرة . . ما هذا العذاب الرهيب؟ . . . .

الآن فهمت شيئاً غريباً حدث لي مع (أسامي) قبل عام . . دخلنا بسيارتها إلى الشوارع الأربعة باليرموك ، وإذا بي أرى أسامي تتوقف بالسيارة فجأة ثم تنزل منها لتقرأ لافتة سوداء تنعى اسم رجل توفي بداء عضال . . (أسامي) ظلت واقفة قرب اللافتة عدة دقائق . . قرأتها

أكثر من مرّة وهي تتلفت ، ثم حركت السيارة متراً للأمام وعادت إلى الخلف وبدت ذاهلة على نحو غريب . . وعندما سألتها مَن يكون هذا الشخص؟ قالت إنه كان زميلها قبل عشرين عاماً . . ولكني أدركت أنه كان شخصاً غير عادي في حياتها من الطريقة التي فقدتها بها عدة شهور . . ويبدو أنه قد تم إخفاء الخبر عنها لسبب ما أجهله . . كانت الشخص الثاني الذي أفقده في بضعة شهور بعد أبي عبد الأحد . . ضمت (أسامي) جناحها على نفسها . . ولم تعد المرأة الحكيمة التي كنت أراها ، ولكنها تحولت إلى مخلوقة لا تريد أن يراها أحد . . في الماضي كانت تقول لم يعد يهمها اعتلال العالم إلا من خلال الكتابة . . والآن لا يهمها أي شيء ولا حتى أن تستمع إليّ وأنا أقص عليها ما جرى لي في حياتي .

تعارفنا منذ خمس سنوات فقط ، ولكني مشيت معها عمري السابق كله عندما انحلت عقدة لساني معها وأصبحت أرويه لها قبل شهور قليلة . . اكتشفت أنها هادئة في الحزن كما هي هادئة في الفرح . وبعد حادثة اللافتة السوداء وجدت تفسيراً لما كانت (أسامي) تخفيه عني طيلة الوقت . . كانت تتصرف بطريقة لا مبالية ولا أعرف السبب . . وإذا فاتتنا الإشارة الخضراء تقول . . سواء ربحنا أم خسرنا ، سنصل في النهاية وسيخرج منها الجميع . . الأعز والأذل . .كأنها منذ سماع الخبر لم تعد (أسامي) نفسها التي كانت في الماضي . . هي واحدة أخرى . . . . والآن فهمت كل شيء . . كانت هي الأخرى لها قصة عذاب وذكريات مؤلمة ، وهي أيضاً مثل كافي الكيلاني بعد أسره ، قد تغيرت حياتها إلى الأبد . . . غريبة هي تبارك . . غريبة جداً . . لا تتغير حياتها لأي سبب . . أعطتني الدفتر لكي أعطيه

لأسامي دون أن تسألني عنها ، ولا ماذا تكتب؟ وأين تكتب؟ أو حتى دون أن تنتبه لاسمها الغريب الجميل . . إنما قالت لي فقط : عندك كريم أساس بيج فاتح اللون؟ فأنا معزومة إلى حفلة عرس .

لم يأت قارئ القرآن الأعمى لحد الآن . . كان كبيراً في السن ، فهل مات هو الآخر؟ تخيلت أني رأيته يتجول بعيداً قبل قليل . . التفتُّ إلى الولد أبو المصيادة مرة أخرى وهو يضحك . . هل لأني أضع الحجاب جانباً؟ أم كان يعتقد أنني أتحدث إلى نفسي طوال الوقت . . كان لا يرى سوى ياسمين واحدة فيعتقد أني أتحدث إلى نفسي . . الحمد لله أنه لا يعرفني وإلا كان علي أن أصمت ولا أُحدّث بيبي صبيحة أو أمي زينب أو مدحت شهاب الدين ، الذي قرأت له الفاتحة أول وصولي إلى المقبرة دون أن أعرف من يكون . . كان يجب أن لا يقلب أذنه ضجراً من صوتي الواطئ . . كان يجب أن يستمع إلى قصة عذاب لعمر أقصر من عمره هو عمر كافي الكيلاني . وأيضاً إلى قصة أخرى رويتها للجميع عن ولادة زينب الصغرى .

ولكن كيف أربّيها؟ بأية صورة ستكون؟ . . بصورة ماري ، أم بصورة زينب؟ . . وهل أستطيع أن أربيها كما أشاء؟ . . حتى وإن كان هذا بالضد مني . . من ياسمين القديمة . . لا زلت أنظر إلى كل شيء على أنه متاهة . . ولا أعرف ماذا ستفعل زينب عندما تكبر ، ولا أدري إلى أي مدى ستنظر إلى هذه المتاهة على أنها سلسلة من الغايات وليست غاية واحدة . . كأنها حفلة أزياء تنكرية ، وكل شيء فيها مزيف . . من ياسمين وحتى إبراهيم . . قال إنه لم يكن ليتزوجني أو يقبلني لو لم أكن مسيحية . . . هذا أهون عنده من أن أكون ابنة واحد من المخمورين والجهلاء . . بدا لي ذلك بسبب انفتاحه ورغبته في تغيير العالم كما

يقول . . ولكنه كان يحتاج إلى تغيير نفسه أولاً قبل أن يرجح نفسه على المختلفين والجهلاء . . كان خارجاً من الجب ، وبعد أن تمكن مني ألبسني الجبة دون أن أعلم بزواجه من أخرى تمشي في الشارع نصف عارية . . كنت بعد كل مشكلة أصالحه لكي لا يزعل ، إذ لم يعد لي أهل سواه ، ولكنه بعد الزواج بشهر واحد بدأ الكلام عن ترك دراستي العليا يتردد داخل البيت وخارجه ، وكل واحد من أهله يعطي رأيه في موضوع يخصني أنا وحدي ، عدا أخته هاجر التي وقفت معي وقالت له بأن ماري تركت البنت أمانة في عنقك ، وبأنها اشترطت عليك أن لا تترك جامعتها ، وأن تكمل دراستها العليا في البايولوبجي . . مثلي أنا .

يا له من تناقض . . حتى أخته لو لم تصبح في عصمة رجل آخر لتدخّل في حياتها أيضاً ، ولكن نجاحها من فشلها لم يعد يعنيه . . أنا فقط المعني بها . . لأني ملكيته الصرف كما قرأت في المقالة التي حدثتني عنها أسامي ، والتي يجب أن تكافح في كسب ود زوجها وتطيعه في كل الأشياء حتى لو سجنها تحت الأرض ، كما فعل أبي مع زينب . . لم تقتنع ياسمين بهذا الكلام وأنا صغيرة ، فكيف تقتنع به الآن؟ واصلتُ الدراسة رغماً عنه ، وكان بيت ماري الذي نعيش فيه هو الذي حماني من إلحاحه لترك فكرة دراسة الماجستير . . وبعد سنة من الدراسة حملت بزينب ، مما جعل الحجة جاهزة عنده لكي ألزم البيت . . . أصبح البيت يعني مرة أخرى أن أموت . . أن لا يكون رأسي قوياً . . أن لا أجرب أي شيء . . أن لا أعيش . . لا أقص شعري ولا أطيله . . لا أقف أمام الباب ولا خلفه . . لا أمشي في الشارع . . إذا فات الجيران أتوارى ، وإذا فات الكناس أتوارى ، وحتى إذا فات

الشحاذ أتوارى . . من كل شيء يجب أن أتوارى . . . كل ذلك كان يعود من جديد ويتكرر . . وكأنني سأصبح زينب المظلومة من جديد . . . الشيء الوحيد المختلف أنني كنت حاملاً في شهري الرابع وطالبة ماجستير ولدي بيت أملكه ولا يستطيع طردي منه . فهل تعرفين يا أمي أنني اكتشفت بعد يومين أو ثلاثة من زواجي ، وعندما جاء لي باليميز تواليت من جديد ، أنه يذكرني بميزي القديم . . ميز العروس .

نظرت إليه وإليها . . وفكرت كيف تحايل عليها حتى أوصل الفكرة ، بعد حب جارف ، إلى هذه النقطة ، وكاد أن يقنعها بأن مكانها هو البيت . . دق الباب . . فتحتُه . . نظر إلي بغرابة ، وسمحت له بالدخول . . ليس لديه أي كلام ، ولكن لديه شوارب غليظة . . .إنه هو! يخلع ملابسه ليجعلني ملكة في الفراش ، ولكن بعد أن يرتديها يهددني بأن يجعلني أذهب إلى الشارع ويستولي على هذا البيت . . لا أدري كيف أصبحت سريعاً أخاف منه كما كنت أخاف من أبي . . والمشاكل تستمر يوماً بعد آخر حتى أصبحت لا أطيق النظر إليه . . وأحاول إقناع نفسي بالتعود على الأجواء الجديدة والبقاء معه من أجل طفلتي زينب ، التي بعد أن ولدتها بعامين انفصلنا ، ولم يفكر بزيارتها وكأنه لا يعلم أي شيء عنها . . ما عرفها بعد ذلك إلا من خلال المحاكم مع أنه كان قد قاتل في سبيل انتزاعها مني . . إذن هو ما أرادها هي بل أراد إذلالي وقتلي بانتزاعها مني .

عندما ولدتها تشبثت بها كما تشبثت زينب بباب البيت . . لم أتركها لحظة واحدة بعيدة عن ناظري لكي لا يتكرر الخطأ . . ولدتها في البيت وهي في حضني ، . . وظلت في حضني ، وهي في القماط . .

تنام في حضني ، وتأكل في حضني وتلعب في حضني . . ولكن كيف أربيها؟ . . ليس في كندا . . هذا أكيد . . فقالت (أسامي) : ها أنت تعثرين على فكرة خاصة بك . . فكرة لم يُملِها أحد عليك ، لا أنا ولا ماري ولا زينب . . فكرة نتجت من استطاعتك الوصول إلى هدفك في النهاية . . وهي فكرة نتجت عن إصرارك المستمر على البقاء هنا لنيل الماجستير ثم الدكتوراه ، وعدم خلع صدرية المختبر حتى لو استمرت المشاكل في البيت .

فعلاً . . أكملت الدكتوراه وأنا أمها ومطلقة من أبيها ، وعند الانتهاء من المحاضرات أُسرع إليها وأنا أشفق عليها مع كل عام يمضي من عمرها . . كان الألم الذي أعاني منه كبيراً ، لكني كنت أضعه خلف ظهري ، مواصلةً المسير من أجلها هي فقط . . أنا سعيدة الآن بالرغم من كل شيء ، ولا هم عندي غير تربية ابنتي الصغيرة . . وعندما ظهر ياسين في حياتي فجأة مع أمه التي جاءت من أجل تحليل في المختبر ، التفتَ إلي قبل أن يخرج ، معيداً ولعاً قديماً لم يكن يُظهره أيام الكلية بسبب علاقتي مع إبراهيم . كان صديقاً لآدم الذي دخل مع تبارك عارياً إلى الجنة . . ولفيصل الذي تزوج هاجر أخت إبراهيم . . ويبدو أن قدومه منذ البداية إلى المختبر كان لأنه قد عرف بانفصالي عن إبراهيم . . فالسبب كان واهياً ، وهو مرض أمه التي وضعوا لها كاميرا داخل كبسولة ليصوروا لها القولون ، فجاء إلى بالتقرير حجةً من أجل الزيارة . . حلمت به بعد ذلك لثلاث سنوات دون أن أفصح له عن شيء . . وهو الآخر كان يعد العدة للسفر إلى أوهايو في أمريكا للالتحاق بأخيه هناك ، وأي لقاء بيني وبينه سيتحول إلى صدام في الأفكار . . في كل مرة يتحدث لي عن حلمه ذاك ، حاملاً وردة حمراء

بدلاً من التقرير ، كنت أفكر بشيء واحد هو أن أهرع إلى المدرسة لأني تأخرت على زينب . . أخذت نصيبي من الدنيا ولا أفكر بالزواج مرة ثانية أو السفر إلى أي مكان . . ولكن كيف سيكون نصيب زينب الصغرى من الدنيا؟ هل سيكون مثل نصيبي الآن ، أو قبل أن أكون ما عليه الآن؟ هذا السؤال كانت (أسامي) تساعدني في اكتشاف جوابه ، وتارا تنصب له الجلسات والكمائن ، قائلة إنه من الممكن اعتبار المعلومات الخلفية للقصة هي القصة ذاتها .

لا أتصل بياسمينة إذا لم تتصل هي بي . . كنت أصاب بالهلع من فكرة أن أحدهم قد مات أو تجمد هناك . . أو ان الفرحة لا يمكن لها أن تدوم . . كأن الطاسة في يدي . . طاسة بيبي صبيحة التي لم تجد نفعاً في إعادة ابنها سليم من الحرب . . وكنت أعرف أنها لن تُجدي نفعاً هذه المرة أيضاً ، ولكنها موجودة في الغرفة الوحيدة التي تحتلها ياسمين من العالم وأمامها المرآة . ولكن من هي ياسمين ، ومن تكون؟ هل هي ياسمين الدكتورة صاحبة المختبر ، أم ياسمين الطفلة الخائفة التي كنت عليها؟ . هذا السؤال كان يطرأ على بالي كل يوم ، ويجب أن أعثر له على جواب ، قبل أن أقرر كيف أُربّي ابنتي زينب . . (أسامي) كانت تقول لي أنت ما أنت عليه الآن ، بغض النظر عما كنت عليه قبل الآن . . فأنت كافحت لكي تكوني ما أنت عليه . . قلت لها ألست أنت من تقولين بفكرة وجود أكثر من عقل في دواخلنا؟ قالت نعم وضربت لي مثلاً بشعرها الذي قد تنساه مربوطاً وتنام ، وفي الليل يؤلمها رباط شعرها وتستيقظ لتتخلص منه؟ فمن الذي نسي الرباط؟ ومن الذي نبهها على نسيانه بالألم؟ هل هو العقل نفسه؟ قلت لها نعم . قالت كلا إنه أكثر من عقل ، ولك الحرية في الاختيار حتى وإن

بدا الأمر غير ممكن . . قلت لها في كل مرة أكون فيها مقتنعة بأن المظهر يأتي لاحقاً للمضمون ، أكتشف أن ياسمين الدكتورة القوية طارئة على ياسمين الضعيفة الخائفة . . سأحتاج إلى وقت طويل لكي أجعل الثانية لا تتدخل في شؤون الأولى أو تدفعها إلى الخجل . . . قالت هذا تطور جديد في نظرتك إلى الأمور . . تجرنا إلى اعتبار أنك معنية فقط بالجوهر ، وأن علاقتك الهشة بالمظهر لا تعود إليك ، وإنما إلى البيئة التي تربيت فيها .

(أسامي) كانت تمدني ببعض الثقة بنفسي عندما تطري آرائي وإن كانت تشاؤمية كما تقول . . وكم محيرة فكرتها حول أن العقل هو ليس ما عليه أنت الآن ، ولا ما كنت عليه . . وإنما هو ترتيب لما يجب أن تكوني عليه . للإنسان احتمالات من العقول كي تختاري الأفضل . . ولا يعترف بعقل واحد سوى لاعب كرة القدم أثناء اللعب ، وصباغ الأحذية الذي لا يرى أمامه سوى حذاء . . هذا لا يعني أنهما في الحضيض ، ولكن «تذكروا أن تنظروا إلى النجوم لا إلى أقدامكم . . حاولوا أن تجدوا معنى لما ترونه وتفكروا في ما يجعل الكون موجوداً . كونوا فضوليين» . هذا ليس كلامي ، تقول (أسامي) ، ولكن كلام عالم فيزياء معوق بمناسبة عيد ميلاده السبعين .

أكاد أتوصل إلى ما تريده (أسامي) ، وهو موجود في كلمة تتكرر ، وفي كل حركة تتكرر . . . . عقلنا موجود في الألم الذي نبهنا إلى رباط الشعر فيوقظنا للتخلص منه . . أما إذا نسيناه ، فالعقل قد غاب لأنه تعبان ويريد أن يدافع عن نفسه بالنسيان . . (أسامي) جعلت الفكرة تلد الأخرى ودون أن تشعر . . أجابتني عن سؤال شغل بالي طيلة أيام . . إذا كان العقل هو الذي يرتب لي الشكل الأفضل الذي

أكون عليه ، فكيف يمكن أن يحدث هذا وأنا أعيش في العراق؟ كيف سيضمن عقلي أنني سأحيا للشهر القادم لكي أنال درجة الدكتوراه ، أو لكي أقود سيارة جديدة ، أو حتى أن أرتدي فستاناً جديداً اشتريته هذا اليوم؟ أجابت (أسامي) دون كلام عن هذا السؤال ، بعد حادثة اللافتة السوداء التي غيرتها عدة شهور . وللمرة الأولى في حياتي طرأتْ على بالي فكرة خاصة بي قد تساعدني في فهم ما كانت (أسامي) ترمي إليه .

كان دفتر الأفلام لا يزال معي احتفظت به للوقت المناسب قبل أن أعطيه لها ، وفيه قرأت ملخصات لعشرات الأفلام القديمة كتبها خطيبها كافي الكيلاني في الأسر ، ولكني الآن أقرأ فيه شيئاً آخر . . إنه عقل الأسير الذي استعان على أسره بمثل هذا الدفتر ، فدافع عن نفسه بقصص الأفلام ، ونجا من الموت ولو إلى حين . . مثل هذه الأفكار لم تكن واردة في بيت زينب . . لا شيء هناك سوى أفكار كالحجارة . . مخيفة وثقيلة على النفس ، حيث لا يتحدثون خلسة إلا وهم ينظرون إلى جسمي أو عوراتي التي شملت حتى الكفين . . لم يطروا عقلي ولا جمالي ولا أدبي ، والخجلُ يمنعهم حتى من الابتسام أو النظر إلى عيوني ، ولا يوجد بيني وبينهم أفكار من هذا القبيل . . لم تكن لتخطر في بالي لولا (أسامي) التي قدمت لي الدليل على كلامها حتى وهي تنتقل من العقل إلى مكان آخر ، بعد حادثة اللافتة السوداء . . لم يعد عقلها يرتب لها ما سوف تكون عليه . . وتوقفت عن سماع قصتي أكثر من شهر بعد أن تخلى عقلها عن الترتيب ودخل مرحلة الذهول . . ولا زلت أنتظرها كي تعود . لم تطلع الشمس . . ولا تزال الدنيا تمطر خارج البيت .

الفكرة تبدأ خافتة كشمعة قبل أن تتحول إلى نور يضيء كياني كله ، ويمدني بالطاقة على مواصلة مشوار حياتي وكأنني في ربيع . . ولكن كيف لي أن أفكر هذه المرة بمواساة (أسامي) في محنتها ، أو أن أحمل لها الدفتر وأنا الخجل يمنعني حتى من الكلام في حضرة من هو أكبر مني وأكثر مني علماً؟ . . ألو . . كيف أنت يا أسامي؟ ألو . . أين أنت يا أسامي؟ ألو . . أين الجريدة يا أسامي . هذا كل ما فعلته خلال شهر ، وأنا أتظاهر بأن أكون طبيعية في سؤالي عنها . ومضى شهر على هذه الحال بعد حادثة اللافتة السوداء ، وأنا أقلّب الأمر على وجوه عدة حتى حل الربيع فعلاً هذه المرة ، وتصادفت عودتنا من الدوام في وقت واحد . . هي في باب وأنا في باب آخر . . ضحكنا . . لوحنا لبعضنا البعض . . اقتربت منها وقبلتها . . كانت شعيرات الشيب قد اختفت من رأسها ، فقلت إذن هي قد صبغته وعادت إلى الحياة مرة أخرى . . هذه علامة جيدة . . قالت لي : اتصلت بك اليوم ، فردت الخاتون الآلية وقالت : إن الرقم مشغول . . أين أنت؟ همسزين طلعت الشمس . . ضحكنا معاً وهذي علامة أخرى . . قلت : لها سأمر عليك عصراً هذا اليوم قبل أن أذهب لأجيء بزينب من المدرسة . . رحبت بي بحرارة لأنني كنت نادراً ما أزورها من تلقاء نفسي ، بل أنتظر عادةً أن تزورني هي أو تدعوني إلى بيتها . . ولم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى رويت لها الحكاية وأعطيتها الدفتر . . كنت أريد إزاحة هذا العبء عن كاهلي بأسرع وقت ممكن ، حتى إنني اعتذرت عن شرب الشاي ، متحججة باقتراب موعد انصراف زينب من المدرسة . . توقيت تعمدته لكي ينقذني من رؤية الحزن على وجهها بعد الحكاية ، ومنحني الفرصة لأتركها مع نفسها بعد ذلك .

مرآة الجمر

وحتى بعد ان أنهت تارا تقريرها للمحكمة وقضى حكمها بحقي في حضانة زينب ، كانت تواصل عملها معي كطبيبة نفسية للبحث عمن أكون . . . . في العيادة وجدت كيف يمكن لحادثة بسيطة أن تقلب حياة إنسان رأساً على عقب . . وليست السنة الكبيسة دائماً هي السبب . . فهناك في عيادة تارا كنت أرى في صالة الانتظار بعض النساء قد تحولن إلى كائنات مصفحة ، فأتذكر نظرية تبارك عن الأيائل التي تتماهى بغصونها مع أغصان الأشجار ، وكيف أن النسوة سيأتين إلى الدنيا مرتديات الجلابيب بعد ألف عام . بعض النسوة لا يخلعن الحجاب حتى مع النساء ، مع أن الجو لا يكون بارداً . . بعضهن يعشن في عالم من الخيال المهروس مع اليقظة . . منعزلات عن الواقع وعن بقية الناس من حوله . . أعرف تلك البرودة مع الفقر في إبداء العواطف الحارة تجاه الآخرين . . وأعرف عدم القدرة على الارتباط بحوار متصل ، أو عدم الترابط بين الأفكار أو الاستمرار في موضوع واحد ، حيث ينتقل اللسان من جملة إلى أخرى دون أي رابط بينهما ، وبالتالي لا يمكنه الإصابة فيما يقول . سوسن كانت حالتها شديدة ، وتدخل في تفصيلات تافهة ، وتحوم حول المعنى ولا تستطيع الدخول إليه . . . نرمين كان تفكيرها نفسه مضطرباً ، وهو من الأعراض التي لم أمر بها ، حيث تتوقف عن التفكير أثناء حديثها ، وتشعر وكأن مخها أصبح

خالياً من الأفكار مثل صفحة بيضاء ، وعندما يعود للتفكير تبدأ الحديث في موضوع آخر . . . أسماء تشكو من ضغط شديد بسبب ازدحام رأسها بالأفكار وتسابقها ، مما يسبب لها إزعاجاً شديداً ، وجميلة موهومة بأن ما تفكر فيه ليست أفكارها بل جاءت من قوة خارجية هي التي تدخل هذه الأفكار بغية التحكم بها . . . تعتقد أيضاً أن هذه المخلوقات تقوم بسحب أفكارها منها وبثها عبر التلفزيون . . قالت لي بهلع إن الناس تستطيع معرفة ما يدور في رأسها من أفكار . . «وسأجن من الخجل إذا أصبح ما يدور في رأسي من أفكار معروفاً للجميع . وووووي . . شكد عيب» . . تعابير الوجه تتغير . . نرمين تضحك دون سبب . . حركات متكررة وليس لها معنى . . آسيا تضرب بيدها اليسرى على رأسها وكتفها اليمنى . . سوسن تلبس ملابس شتوية في صيف شديد الحرارة . . جميلة تمد يدها للسلام وتبقيها على هذه الوضعية . . ونرمين كانت تحافظ على يدها مرفوعة ساعات بعد أن ترفعها الطبيبة ، وكانت أحياناً تتمدد على السدية ورأسها مرتفع في الهواء بدون وسادة .

يبدو أن فكرة الانتظار في الصالة كانت مقصودة من تارا لكي أجد نفسي داخل مجموعة أضعف مني ، فأسدي النصح لغيري من أجل القدرة على التكيف ، كنبذ التوتر الذي كانت عليه نرمين الوسواسية المترددة وكثيرة الخوف من الوقوع في الخطأ . . يعني مثلي . . غير قادرة على اتخاذ أي قرار بسهولة . . ويعني أنها عندما تتمكن من ذلك ، فإنها تظل في شك من قرارها . طلبتُ من نرمين أن لا تخاف ولا تتردد . . كأني أطلب ذلك من نفسي . . أنا التي كنت لا أعرف أن أختار شيئاً محدداً ، أو لا أعرف كيف يمكن أن يكون الوقت الصحيح

للخروج من البيت ، أحاول ترديد ما قالته تارا لياسمين عن ضرورة الاتصال بالأصدقاء القدامى والتنزه والسيطرة على الوساوس بالتنفس العميق . . تنفسنا بعمق أنا والمريضة نرمين سوياً . . وضحكنا عندما قطع تنفسَنا انفجارٌ رهيب وقع في مكان قريب ، فاهتزت له أركان العيادة وارتجت شبابيكها . . ضحكنا من شدة الخوف . . لأول مرة أجرب الضحك من الخوف ، فماذا يحدث لياسمين؟ قبل قليل كنت أنظر إليها تسدي النصح لنرمين وآسيا وجزائر وجميلة وسوسن وأسماء في صالة الانتظار . . والآن أشكو قلة حيلتي ومخاوفي وعذاباتي . . طلبتْ مني تارا التحدث عن المعلومات الخلفية للقصة . . عن ياسمين الأولى ابنة زينب الكبرى ، فقلت لها : أنا كنت وأنا صغيرة أخاف أن يتجسس عليّ أحد . . أضع الخرق في ثقوب الباب لكي لا يتجسس عليّ أحد . . لماذا؟ هل رأيت يوماً شيئاً من ثقب الباب؟ نعم ، رأيت الصورة معكوسة في ميز التواليت ، مرة مع أمي ، ومرة مع زمان ، وسمعت الصوت بأذني اليسرى ، وجعلني ذلك أهلع من ميز العروس الذي جاء به أبي . . وبعد أن تزوجتُ وانعكستْ صورتي عليه ، أصبح ابراهيم يطالبني بشرب الخمر ، فخفت منه . . كان الشرخ بين الصورتين كبيراً بشكل يصعب عليّ فهمه . . يريدني أن أكون أربع نساء لكي لا يتزوج عليّ : واحدة مطيعة ، والأخرى خادمة ، والثالثة تشرب الخمر في غرفة النوم ، والرابعة ترتدي الجبة خارج البيت . . شيء أكثر مما يحتمل . . كانت تارا تحثني على استذكار مسار حياتي ومدرستي وطفولتي في حي دور السود ، وتضحك أحياناً وتقول : يا سبحان الله! كان يجب جمعك مع أختي تبارك ثم قسمتكما على اثنين ، ومن ناتج القسمة سنعثر على أقل من تبارك وأكثر من ياسمين . . يعني أكثر من

واحدة وأقل من اثنين . . . لا شيء يبقى على حاله . . لا شئ يقلق في هذا . . ماذا تقولين يا زينب .

أستطيع الآن تذكر كل شيء بوضوح شديد ، لأن (أسامي) قررت أن تواصل سماع قصة حياتي ، وأن تزورني بين يوم وآخر . . توقعت ذلك . . توقعت أنها لن تفتح معي ثانيةً حكاية الدفتر ، وأنها اكتفت بما سمعته وقرأته ، وأنها فهمت كل شيء ولن تعرض حزنها مرة أخرى على الملأ . . توقعتُ أن امرأة مثلها كتمت حزنها طيلة تلك السنين ووقفت أمام اللافتة السوداء بدون عويل ، ستواصل عملها بعد نومة قصيرة أو طويلة ترتاح فيها من التعب . . كأنها دون أن تشعر تستكمل ما بدأت به الدكتورة تارا . . كأن القدر وضعني على خطين متوازيين بعد اللحظة التي جعلت زينب في حضانتي . . من الداخل تستخرج تارا عذاباتي ، ومن الخارج تستخرج أسامي ذكرياتي . .

أصوات الشارع أشطر من الاثنين . . قد أكون في منتصف الحديث مع (أسامي) ، فتمر سيارة الأزبال وأتذكر قراصتي البرتقالية اليابسة . . ربطتي البيضاء . . أبو الفلافل . . اللافتة السوداء . . قنينة بيرة . . سيارة الجيران . . حزام مصطفى . . قد أُلقي رأسي إلى الوراء فأرى ثقب المسمار أعلى الجدار ينمو إلى هوة كبيرة تفتح فمها وتتوسع حتى تتحول إلى بقعة كبيرة من الظلام . . قد أسمع أصوات خراف الراعي البدوي يأتي من بعيد ، فيقذفني إلى هناك كما يُرمى النائم إلى الحلم . . . خروف الراعي يذكرني أحياناً بطرمة البيت . . كنت واقفة أصلي فرأيت من الشباك أبي يقف قرب الخروف الذي تحول إلى ذبيحة . . رأسه المغطى بصوف بني اللون محزوز من العنق ، أصبح ملوّثاً بالدم ومرمياً حيث أجلس في الطرمة . . وبقيت أبكي طوال العيد وفخذُه

يواجهني كلما فتحت باب المجمدة . . عرقوبه إلى أعلى خارجاً من كيس البلاستك الأصفر ومكتوباً عليه أهلاً وسهلاً . . .

أحياناً ، وبعد أن يهش البدوي غنمه ، أشم رائحة حطب يشتعل ، فأتذكر قارباً يبتعد . .آلاء تنادي . . تكيدني بتكوير راحة يدها ثم فركها على راحة يدها الأخرى وهي تقول . .على عنادك . . حريق . . بكاء . . قلادة خرز . . نبيلة المخبلة . . . تُرى أين هي الآن؟ . عند هذا السؤال دعتني تارا إلى الذهاب إلى بيتنا القديم والتجول قربه ، ولا بأس من الدخول إليه مرة أخرى . . قالت لي : اذهبي وانظري كيف ترين الأشياء بعد هذه المسافة . . سألتها : وهل سيتغير المكان؟ قالت : كلا لن يتغير المكان ولا المنظار ، ولكن موقع حامل المنظار هو الذي تغير . . أنت الآن ياسمين الخريجة الدكتورة التي تسكن في مكان نظيف ، فاذهبي يا ياسمين واخبريني ماذا ستجدين؟

ما وجدته كان أسوأ مما توقعت . . البيت يبدو أخفض مما هو علي في ذاكرتي ، وبابه التي تقشط عنها الطلاء تبدو حديدية وليست من الخشب كما سبق وأن أخبرت (أسامي) بذلك . . قلت لها : إن زينب الكبرى كانت تتشبث بها كلما طردها أبي ، فكيف استبدلت ذاكرتي الحديد بالخشب؟ هل أوحت لي باب ماري ذات النقش والمطرقة بكل ذلك؟ كان الوقتُ وقتَ خروج المدارس فدخل ثلاثة توائم إلى البيت . . حدست فوراً أنهم أبناء أبي محمد من زمان . . تمشيت إلى بيت آلاء ثم إلى بيت نبيلة ، فكانت لا تزال تجلس قرب الباب وتضحك . . لم ترني منذ خمسة عشر عاماً ، ولكنها تعرفت عليّ فور أن رأتني ، ونهضت وجرتني من يدي إلى منتصف الشارع ، حيث كنا نلعب بالخرز . . هنا كان يتوقف جبار أبو الأزبري . . هنا كانت القطة تشرب

الماء فتعاف نفسها الماء الآسن . . هنا كان الطنطل يركض خلفنا مع زوجته ذات الشعر الطويل . . ولكن الأغرب من كل ما رأيته هناك كان أبا فالح الذي مر في زقاقنا بعربته . . ياعيني عليه . . بعد كل تلك الأعوام يبدو في صحة جيدة وقد تماثل للشفاء بعد الإطلاقة النارية التي أصابت ساقه . . لولا نقطة السيطرة في بدايته لبدا الزقاق على حاله الذي كان عليه منذ سنوات ، عرفت الزقاق ولم يتعرف علي . . مشيت فيه براحتي لأن مصطفى لم يكن هناك . . ولكني رأيته وعرفته عندما نهض من مكانه في نقطة السيطرة ، وقد أصبحت لحيته كالدغل في كثافتها . لم ينتبه مصطفى ، الذي أصبح يرتدي زي الحرس الوطني ، لوجودي قريبة منه وربما لم يعرفني . . لا أدري . . ولكنه كان يبدو بطريقة ما راضياً عن نفسه ، وقد أصبحت السيارات تمتثل لأمره وتتوقف بإشارة واحدة من يده .

قالت لي تارا إني كنت أدور حول الجرح دون أن أحكه ، فادخلي إلى بيت زينب ولا تخافي . . مر وقت طويل وأنا بعيدة عنهم ، فماذا سيقولون؟ قالت تارا سيفرحون ولن يقولوا أي شيء مزعج تخافينه . عدت مرة أخرى بعد يوم وتركت السيارة على مبعدة . . هذه المرة كانت خالتي زمان أخت زينب واقفة عند الباب ، فتعرفت عليّ وأخذتني بالأحضان . . دخلت من باب أخرى . . المطبخ يبدو أصغر مساحة ، وسقفه أكثر سواداً ، ورائحتُه هي خليط من دهن القلي ودواء المفاصل ووخمة مجرى الماء .

قطرات من القيمر والدبس . . هناك فوق الخبز الحار . . تذوب في فمي بعد أن أستيقظَ من النوم . . هنا رائحة الخبز الذي يُشوى لتوه في التنور . تنهدت وانتابني إحساس غامر بالحياد ، وبالرغبة في تناسي

النار التي احترقت بها في هذا البيت وتساءلتُ : ماذا حدث؟ . . . أهو غناء البـلابل ، أم رائحـة الخـبـز ، أم أن هذا الإحـسـاس المريح الذي فاجأني بعد الدخول ، هو مما يؤكد حكايات ماري التي لا تنتهي عن رائحة الخبز وقدرتها على إطابة النفس حتى وهي في أسوأ حال؟ . . رفع أبي رأسه في الهواء كما يفعل رجل أعمى يتشمم رائحة أليفة يتعرف عليها . . شعرت للمرة الأولى بأنني قد اشتقت إليه فعلاً . . ضحكت له . . لم أفعل ذلك من قبل ، لا في مثل هذا الحال ولا في أحوال أخرى . .

- شلونك يابه؟

- هله بنتي هله .

تَعرّفُهُ السريع علي جعل الخجل يتملكني مما كنت أرتديه من ملابس . . كأنني عندما رآني فقط بعيينه الكليلتين شعرت بطفولتي تعود من جديد ، وبأن عليَّ أن أتفحص ملابسي وأعدّل الوشاح فوق رأسي ، وأخجل من نفسي ومن جسمي ومن حياتي . . من قريب كان يبدو داخل دشداشته البيضاء أنحف من ذي قبل . قرفصت قربه ، ثم احتضنته للمرة الأولى في حياتي . . سال نهر من الدمع على خده وخدي ، ونهر آخر على وجه مصطفى الذي كان يقف بعيداً . . قالت لي تارا :

- كنتم بحاجة إلى هذه الدموع ، لكي تغسلوا هموماً وتتحقق الراحة نسبياً . .

قلت لها :

- كأنه كان يحضنني ويحضن ابنته الحقيقية من خلالي . . ولحظتئذ طرأ على بالي السؤال الذي لم أعثر له على جواب؟ كيف فرط

أبي بتلك الابنة؟

- تحتاجين الذهاب مرة أخرى وتنظري جيداً لتعرفي السبب .

في المرة الثالثة استأذنت زمان بالصعود إلى غرفتي ، ففرحتْ ودعتني للصعود والدخول إليها . . كانت ، ويالِلمفارقة ، قد أصبحت غرفةً بلا زجاج هي الأخرى . . يغطيها النايلون من جميع الجهات . . وثمة عظاية مقطوعة الذيل لابثة على حائط الغرفة ، التي أصبحت لأولادها التوأم الثلاثة حسام وهمام وسلام . . يتحلقون حول كتاب القراءة . . الميز تواليت لا يزال في مكانه . . نظرت إلى مرآته ، فرأيتها تجلس هناك بين الحيطان الرطبة والمليئة بالفطور . . كانت ترتدي نظارات شمسية وتنظر إلى جناح المرآة المقوس . . . . . مرت سنوات طويلة على شكة أول دبوس للحجاب ولا زالت تجلس هناك ، قلت لها في سري من أنت؟ فخلعت نظارتها الشمسية وأزاحت وشاحها وعادت تنظر إلي بشكل مستمر . خفت منها ، وكدت أن أخرج بسرعة ، فقالت كلا . . تعالي . . تعالي . . تعالي . . لا تخافي . . سأفتح لك علبة الصور . . .سأفتح لك كل العلب حالاً . . فوراً . . في هذه اللحظة . . . تبدو من بعيد أنيقة مثلي أنا الآن . . عدت إليها فنهضتْ لتدب خلفي في أرجاء الغرفة . . نسج العنكبوت خيوطاً فوق أماكن لم يعتد الإقامة فيها من قبل ، مثل حافات النوافذ وسقف الغرفة وظهر الميز تواليت . وعندما فتحتْ لي باب الخزانة وجدتُ عنكبوتاً سوداء تشبه المظلة تتأرجح في الفراغ الواقع بين رفين من رفوف الخزانة ؛ وهي متكورة على نفسها لا تستطيع أن تحسم أمرها في العودة إلى الرف العلوي أو المضي إلى أسفل ، حيث يمدها خيطها الأمين بالطول الكافي لبلوغ الهاوية . شعرت بلزوجة ذلك الخيط على يدي

وأنا أدفعها خارج الخزانة ، ثم رأيتها تسرع هاربة تحت قاعدة الخزانة ، حيث تنضم لبعض الحشرات العمياء التي عادة ما تستدل على ضحاياها عن طريق اللوامس فقط . هل الغرفة بشعة إلى هذا الحد ، أم أنها تبدو أكثر بشاعة ؛ لأن عيوني اعتادت بيتاً آخر يبدو بلا زجاج من شدة النظافة؟ الآن فقط أتذكر أنه لم تكن توجد حشرة واحدة في منزل ماري . . لا صراصر في الحمام ، ولا أوزاغ على الحيطان ، ولا عناكب في السقوف . . فهل هذا ما تريدني تارا أن أراه؟ الفقر والجوع والرطوبة والبرد ورائحة عفن تشبه رائحة الماشية . . لماذا تأتي الحكمة متأخرة عن صاحبها بسنوات ، كما تقول أسامي وهي تشير إلى حوض ماري للأسماك الملونة . . سمكاته أنيقة زاهية اللون ، لأنها تسبح في مياه صافية وفي حوض نظيف ، ولكنها ستصبح باهتة داكنة اللون عندما تعيش في الأعماق السحيقة والكهوف المائية المظلمة . . ولكن ليس هناك ظلام بلا نجوم في عُرف أسامي . فحتى هذه الأغوار السحيقة لا تعدم وجود بلورات مضيئة ينتجها الزلال المهضوم في الخلايا ، فتجعل لون بطون الأسماك فضياً ، أو تعكس ضوْءاً ترسله بعض الكائنات الحية من أجسامها ، فيصبح وجود السمك الملون في تلك الأعماق ممكناً .

نداء خفي آخر جرني إلى الخزانة ، وجاءني من العلبة المعدنية المليئة بالصور . . في بيت ماري يسمونها بعلبة الماكنتوش ، وهي هنا مليئة بالصور بدلاً من النستلة . . ولعل زينب كانت قد غنمتها من زمان قبل أن تغنم زوجها وتنتهي هنا خلف صرير باب البيت . التفتُّ إليها وأخرجتها من خزانة الملابس ووضعتها في حضني . . استغربت لَمَ لَمْ آخذها معي إلى بيت ماري؟ . . كيف تركتها ورائي بدون

ندم؟ . . انفتحتْ عن صور قليلة جداً لعشرات البنات في رحلات مدرسية ، أو في حفلات خطوبة . الصور كانت جميلة وتعبر عن فرح بنات في ميعة الصبا ، ولكن ما كان يحدث بعدها لم يكن كذلك لياسمين . . في هذه الصورة أبوها قد ضربها ؛ لأنها تأخرت في تلك الرحلة . . وفي هذه الصورة أمها دفعتها إلى الانتحار لأنها وضعت الكحل في عينيها . . . بعضها راح يوجعها كنصل السكين ، لأنها اكتشفت أنها كانت غريبة الشكل والمظهر إلى حد بعيد . . أُمّ العيون الخضر كانت تبدو خائفة وأقل من غيرها ذكاء وأكثر رثاثة . . الآن تعرف لماذا تركت تلك الصور وراءها . فهذه الناحلة الطويلة الفقيرة هي ياسمين التي تريد أن تفارقها ولا تستطيع؟ وهي أيضاً التي علمتها النظر ببلاهة إلى كل الأشياء التي تسمع عنها أو تراها ، ولكن لا تستطيع أن تلمسها أو تقترب منها ، بالإضافة إلى كونها لا تستطيع حفظ أسمائها . . فياسمين قليلة الكلام . . والأم مريضة ، والأب سكّير ظالم .

جرس الباب هو الآخر قرع في تلك اللحظة العجيبة . . انتفضت ياسمين وهلعت . . ضاعت يدها فوق رأسها في بحثها عن الربطة . . عادت عيناها في المرآة مبعثرتين إلى أكثر من اتجاه . . من تكون؟ أيهما هي؟ أرجعت الصور إلى مكانها؟ . تركتها جميعا وهربت ، حيث تبدلت الدرجات من سيء إلى أسوأ . . مثلومة ثم مكسورة ثم لا شيء . . هنا وصل الخروف وتزحلقت قوائمه بخربشات مسموعة قبل أن يتوقف . . ضحكت تارا . . ضحكت أنا . . وهنا كانت بيبي صبيحة تندب أولادها الصغار ، بينما وصوصة العصافير تزداد مع نواحها وقت الغروب . . ضحكت تارا . . ضحكت أنا . . هنا قامت ياسمين إلى

النافذة وقالت لها هص ؛ فسكتت العصافير بهبة واحدة ولم تسكت ببيبي صبيحة . . ضحكت تارا . . ضحكت أنا . .

آخر شيء رأيته كان بضع نساء يرقصن على شاشة التلفزيون ، القناة خليجية والمغنيات عاريات يتلوين مع مغن محفوف الحواجب ، يواصل بلا انقطاع عناق تلك المرأة التي أيقظته من النوم . عجباً! من تكون تلك المرأة؟ ليست زوجته الحقيقية بكل تأكيد . . فهو لن يقبل أن يراها العالم إلا من خلف عين واحدة . مذيعة الأخبار جميلة هي الأخرى ، ولكن يتوارى خلفها رجال ونساء يعتصمون في ساحات ترفع فيها صور حكام رجال يجب أن يرحلوا . حان وقت الرحيل . . رن جرس الباب مرة أخرى ، وبعدها لم تعرف ياسمين ماذا تفعل؟ . . كان له صوت تغريد بلبل يصفه مصطفى بالمريض لأنه متقطع وضعيف . . ضحكت تارا . . ضحكت أنا . . وتخيلته هو الآخر محبوساً في قفص البيت مثلها . . إنه ينادي . . وهذه المرة نهضت ياسمين لتفتح الباب قبل أن تغادرها . . طلب منها أبوها محمد أن تفعل ذلك بعد أن تأخرت زمان في الحمام . . أصبحت ياسمين واقفة عند الباب التي كانت تتشبث بها زينب فيما مضى . . . واقفة لا تتوارى . . تشعر بأنها تولد من جديد . . أهم من كل ذلك هو إحساسها بأنها ضيفة مبهرة .

أسامي قد أصرت على مرافقتي للمقبرة لكي تستمع إلى فصل آخر من القصة هناك ولكنها ، كما توقعتُ ، تأخرتْ فرحتُ أروي القصة لزينب وياسمين وبيبي صبيحة . . طوال حياتي وأنا لا أعرف لماذا أنا موجودة في هذه الدنيا؟ . . وأدعو الله أن لا يلمسني أحد ، وأغسل يدي باستمرار حتى وإن كانت نظيفة . . . وعندما كنت صغيرة لم أكن أقبل أن تقودني أمي من يدي ، ولا أقبل أن يحضنني أبي أو

أمي ، ولكني مادمت أعرف كل هذا عن نفسي فإني لست مريضة كما تقول تارا . . تارا ذكية وتعرف أني أراوغها . . وأنني لا أخبرها بأني أتكلم مع نفسي وأتخيل وجود أشخاص معي ، ولكني لست مجنونة ، وإنما أشعر بسعادة غامرة عندما أتخيل شخصاً يجلس أمامي وأحدثه عن نفسي كما لو كنت أتحدث معه ، وبسعادة أكبر عندما أنظر إلى الناس وأطيل التحديق بهم ، دون أن أستطيع أن أقول ما يقولون أو أفعل ما يفعلون . . عندما أحدث نفسي فإني أخبرها بكل ما خجلت عن فعله في الحياة ، كأنني أمثل فيلماً أنا بطلته الوحيدة التي يحبها الجميع . ينطلق لساني وأصبح كاللبلبان ، بينما هو في الحقيقة معقود وحائر حتى مع تبارك صديقتي الوحيدة بعد آلاء ، التي احترقت وهي لا تعرف الكثير عني . . كان تحدس فقط أنني منعزلة وانطوائية ، ولكنها لا تعرف أنني أحدث نفسي عندما أكون وحدي ، وأقوم بكل الحركات التي تعجبني وعجزت عن الإتيان بها ، فلا يصعب عليّ حينئذ تقليد ما تفعله البنات من حركات جميلة وتعبيرات مرحة يغرم بها الناس . . كان أبي أحياناً يكتشفني جالسة أفعل ذلك ، فيعتقدني مجنونة أكلم النمل والحشرات والخرفان ، ولكن تارا تقول إنك لست مجنونة ، وما عندك هو بعض أعراض التوحد أو الاكتئاب العصابي ، وكثير من الناس مصابون به وهم لا يعلمون . . أصحابه يشعرون بأنهم غرباء عن هذا العالم . . طريقة تفكيرهم مختلفة . . لا يحبون الاندماج والاختلاط مع الآخرين . . كثيراً ما يصفهم الناس بالسذاجة وقلة الخبرة . . ومن السهل التلاعب بهم إلى درجة أنهم يتعرضون إلى تهكم الآخرين وسخريتهم . . يهتمون بمواضيع أو أمور محددة ويبدعون فيها بشكل كبير . . لهم أحيانا حركات متكررة . . ولديهم مشاكل

لغـوية . . الحـواس لـديهم حـادة . . يتـأذون من الصـوت العـالي أو من اللمس المباشر . . أما بالنسبة للنظر فقد يكون هناك ضعف فى التواصل مع الآخرين ، بحيث لا يحبون النظر إلى من يحدثهم ، أو على العكس يطيلون النظر إليهم . الشيء الوحيد الذي لم تقله تارا هو إن الهروب من الظلم قد جعل آلاء تحترق منذ سنوات عدة . . ليست شجرة لكي تنمو من جديد خلال شهر واحد . . ولكنها بشر مثلي لم تستطع الحصول على ما تريد . . القصة ذاتها تتكرر . . هي احترقت وأنا انشطرت إلى نصفين لكي تتحقق راحتي . . إذن إنني أدافع عن نفسي . . ياله من أمر مزعج جداً .

وصل أبي إلى المقبرة يقوده مصطفى . . وهذا ما توقعته بعد زيارتي لهم يوم عرفات . . جلسنا نحن الثلاثة نقرأ الفاتحة على روح أمي زينب وبيبي صبيحة وخالي سليم . . جعله ذلك يتذكر ابنته الحقيقية التي ذهبت مع ماري إلى كندا ، ثم انكسرت يدها وتفاقم عليها مرض السكر ، وأصبح بقاؤها هناك ضرورياً . . كانت تتصل به على الدوام . . وأصبحت ترسل له النقود . . ويقول : إنها تريدنا أن نهاجر معها ، ولكننا لا نستطيع ترك البيت . . وصلت (أسامي) بعدهما ، وكانت تريد أن ترى أهلي الذين عشت معهم طفولتي . . . . كان ذلك هو الفصل الأخير من تحقيق طويل ستنشره في أجزاء بدون الإشارة إلى اسمي . . نظرت إليها ملياً وقررت أن أسألها السؤال الذي أسأله مع نفسي فقط . . أسامي . . وماذا عن قصتك؟ كيف تركت قصة عذاب حقيقية وانشغلت عنها بقصة عذاب على الورق؟ كنت أخجل من سؤالها حول ذلك فيما مضى ، ولكني في المقبرة سألتها ذلك السؤال لأول مرة ، فقالت لي وهي ترفع يدها إلى عينيها : هل جربت متعة

النظر إلى أرض بكر جديدة ملكتها وتخيلت الدار التي ستبنى عليها؟ . . قلت لها : كلا . . قالت : أنت إذن لم تجربي متعة الحلم الذي يسبق الحقيقة . . أنا كنت أنظر إلى أرضي طوال الوقت ، فأشعر بالراحة العميقة . . إنه أمر ممتع استعادة أول نداء للحلم قبل أن يتحول إلى كيان . . لأن الدار إذا بنيت ستكون أدنى قليلاً من ذلك الحلم . وكذلك فإن أي أثاث نضعه فيها بعد ذلك ، لن يكون بروعة دخولك إلى بيت جديد تصيبك رائحته بالدوار ويردد فراغه صدى صوتك لأنه غير مؤثث . . تلك المشاعر الأولى لن تستعاد مهما كان البيت جميلاً .

يا لها من وردة . . مثلي أنا عندما أزور المقبرة وأحكي لها ما أشاء ، فلا تجيبني سوى بالصمت . . لم يقلل ذلك من راحتي أبداً بل جعلها طيبة المذاق مثل منظر قطعة الأرض لأسامي . . وعندما علمت بأني أزور المقبرة كل عيد ضربتْ موعداً لي هناك ، فكانت أمي موجودة معنا ميتة كما كانت ميتة في الحياة . . حولها قبور لأفراد من عوائل أحمد عبد الوهاب وذنون يونس وليلوة عبد العظيم ومدحت شهاب الدين وعليّة الدباس . . كل واحد منهم يتشابه مع أمي ، ويدير ظهره للنافذة . . . . . كانت تقلق جداً إذا تأخر أبي ، خصوصاً في أيام القتل والخطف التي تلت الحرب . . تظل واقفة قرب النافذة تنتظر قدومه ، ولكنها ما إن تراه قادماً من بعيد حتى تدير ظهرها إليه وتعود إلى مكانها من جديد . لا تفصح له عن قلق ولا عن حب ولا عن أي شيء ، وكأنها تدير ظهرها للدنيا كلها .

ولكن هل من جملة أخيرة أختم بها هذه السيرة؟ قالت لي أسامي؟ التفتُّ إلى المنظر الذي تلقفته قبل قليل ، ونبهت أسامي

إليه . . لقد نزل الرجل من النخلة وغادر المقبرة يتبعه الولدان الأبيض والأسمر . . انتهت القصة . تنفست أسامي بعمق وامتدت أصابع يديها لتتشابك مع بعضها بعد أن وضعت القلم جانباً ، ثم حركت رأسها قليلا وابتسمت كمن يشاور نفسه . . أفكاري لا تزال تسبح داخل تلك الحياة المدفونة على مبعدة أمتار من أقدامنا . . وأسامي قرأت لي سطوراً قليلة مما كتبته من سيرتي في صفحة من الدفتر تقول :

«في البداية كان الحجاب ثقيلاً ونشازاً على رأسي وبأي مكان أكون فيه ، يسألونني : لماذا ترتدين الحجاب؟ كنت مختلفة عن غيري من البنات ، وكأنني أضع على رأسي علامة استفهام . . . ثم ما لبثت علامة الاستفهام أن اختفت من فوق رأسي بعد الحرب . . ويوماً بعد آخر وجدت الراحة في انتشاره على رؤوس البنات في مدرستنا . . انتهى الوقت الذي أصبحت فيه علامات الاستفهام تنكتب فقط فوق رؤوس اليتامى والفقراء والمساكين ، وبقليل من (الحرية) التي عن على بالنا أن تأتي بعد نهاية الخوف ، لبِسَتْه حتى أم تارا وتبارك وطيبة ابنة المديرة ، وآينور ابنة الدكتور جميل طبيب المفاصل والعظام . . حدث هذا بعد الحرب التي انقطعنا فيها عن المدرسة عدة شهور ، فانتهى زمان وبدأ زمان آخر زارنا فيه الجندي الأمريكي ، الذي حك مكان القرط في أذنه وأصر على التجول في المدرسة التي كنا قد انقطعنا عنها لفترة طويلة بسبب الحرب . بدا بكل عدته وملابسه الثقيلة مستعداً للتخفي خلف ابتسامة عريضة من أجل التخفيف من معاناتنا كما قال . وعندما صفّقنا له ونحن نضحك من شدة الانفعال ، جاءنا جنود آخرون بيدهم ألعاب كثيرة وهدايا أشكالاً وألواناً . . طلبت منا المعلمة أن نكتب موضوعاً عن الأمريكان ، فلم أعرف ماذا أكتب ، أو كيف أبدأ

الموضوع ، أو كيف أنهيه؟ المحاة تصغر لحظة بعد أخرى ، والقلم يقصر . . في النهاية كتبت لها إن الأمريكي جاء والثقوب في أذنيه ليفتش بيتنا فأكله الذباب . كأني استبقت خوفي منهم لأنهم سرقوا من زينب لحظة أوكسجين واحدة بعد الولادة . . لاحظ الجميع أنها طفلة ذكية وجميلة ، ولكن عند بلوغها السنة والنصف من العمر ، انتبهت إلى شيء غريب . . إنها تتكلم كلاماً مبهماً وغير مفهوم ، ولا تلتفت لسماع صراخ أو سقوط شيء على الأرض ولا ترد على أحد عندما يناديها ، ولا تنظر إلى وجهي عندما أخاطبها ، ولا تفرح بوجودي عندما تراني . . كانت تكرر بعض حركات يديها ورأسها ، ولا تأكل جميع أنواع الأطعمة ، ولا تنتبه إلى ما أقول . . بدأ الناس يتساءلون هل لديها صرع؟ أو هل هي صماء؟ أنا متأكدة من أنها تسمع جيداً ، وليست مصابة بالصرع ، وفسرتُ حركاتها العصبية على أنها تتضايق وتتوتر لعدم قدرتها على التعبير عن نفسها بالكلام . ولاحظت أنها كثيرة الحركة والقفز ، ولا تستوعب أي تأنيب أُوجّهه لها ، ولكنها تميز أنني أمها ، لأنها تقبلني عندما تكون سعيدة ، وخصوصاً عند وجودها في متجر فيه أغراض كثيرة وألعاب ملونة . . كانت تحب الخروج من البيت كثيراً وتسحبني من يدي إلى الباب للخروج ، وإلى المطبخ لشرب الماء ، أو إلى الصالة لمشاهدة التلفزيون . . ولكنها أصبحت تقلدني في كل شيء ، وتكرر كل شي أفعله وتسألني عن كل شيء . . ومع ذلك تتعثر في الكلام ، ومن الممكن أنها كانت مهتمة بالسماع أكثر من الكلام . . وبالسكون أكثر من الحركة . . وقال الأطباء بعد عدة أعوام إن الأوكسجين قد انقطع عن دماغها بضع ثوانٍ أثناء الولادة . .

عندما كنت حاملاً في الشهر التاسع شعرت ذات يوم بآلام

المخاض بوقت أبكر مما هو متوقع ، وطلبت من زوجي إبراهيم أن يأتي بالقابلة . . قابلة شابة تمارس المهنة للمرة الأولى ، بعد أن انتعشت المهنة من جديد بسبب سوء الأحوال الأمنية . . لها بيت في القادسية ، وأم عامر خابرَتْها وقالت لها إنها تريد شيئاً منها . رفض زوجي في البداية وأراد أخذي إلى المستشفى ، ولكني عندما ألححت عليه خرج يبحث عنها في المنطقة التي دلّته عليها أم عامر . . وبينما هو في الخارج ، قُرع جرس الباب وجاء الأمريكان من أجل التفتيش فهلعت وارتعبت . . ازداد اهتزاز الباب حتى كادت أن تتحطم ، ثم قبل أن يأتي الجيران لتبين حقيقة ما يحدث كنت من شدة خوفي وخجلي أحاول ان أمنع زينب من الخروج إلى الدنيا ، وأعيدها بيدي إلى الرحم حتى سقطتُ مغشياً عليّ فوق الأرض وزينب في بطني» .

اكتشفت أن أسامي قد أرادت ، من خلالي ، أن تروي قصة زينب الصغيرة وليست قصتي . . إذن هي ستبدأ من حيث انتهيت أنا ، وستكتب ما سوف يحدث بعد ما حدث لي أنا . . عدنا إلى البيت سوية وبعد نهاية العيد بيوم واحد قررت أن تزور زينب في مدرستها . . شاورتني في الأمر ، ولكني حذرتها من الذهاب إلى حيث تعيش زينب الصغيرة ، وإلا فإن التعب سيلحق بها لأن الطريق بعيد وطويل ، ومع ذلك فقد أصرت أسامي على الذهاب وبدأتْ رحلتها معي من باب البيت حتى وصلنا إلى المدرسة ، وقبل أن نقطع مسافة طويلة بين باب السيارة وباب المدرسة ، التقتنا زينب جالسة تنتظرنا على جانب الطريق ، وفي يدها قدح عصير برتقال . . نَمتْ النباتات البرية والحشائش والأدغال في حديقة المدرسة ، ثم امتدت إلى بلاطات المرآب وغطته في عدة أماكن حتى وصلت الحافات . طلب المدير من

أسامي أن تجلس قربه ، وسيساعدها في وضع تقرير عن حالة زينب التي يضعها فوق رأسه . وبعد أن فعلت أسامي ذلك ، سكبت زينب العصير فوقها ، ولكن أسامي لم تتذمر ، بل ذهبت إلى الحمام واغتسلت . كررت زينب ما فعلته ثلاث مرات ، وأسامي لا تعترض أو تتذمر . وعندما اقتربت من باب غرفة المدير للخروج منها ، رأت ولداً هارباً يضع ممحاة في فمه ، فأمسكتْ به وكاد أن يقطع قلادتها . كان ذلك الولد مريضاً آخر بالتوحد يعيش في المصحة التي تسمى بالمدرسة الخاصة بذوي الإعاقات الذهنية والاحتياجات الخاصة .

خارج غرفة المدير وقفت أنتظر أسامي . . نظرت إلى الأطفال عبر السياج المشبّك للحديقة ، فكان هناك من يرفرف بيده أو يدور حول نفسه أو يرمي أي شيء يراه من مكان عال . . كان هناك أيضاً من ينظر مباشرة إلى الشمس وهو يغمض عينيه . . وعندما اتجهت إلى السيارة مع انصراف المدرسة نظرت أسامي إلي بصمت ، ثم استدارت إلى براد الماء لتملأ قدحاً بلاستيكيا تشرب منه . . . . كانت زينب تحمل صندوقاً فيه ملاعق وشوكات بشكل مختلط ، وهو الذي تتدرب عليه من أجل الفرز ومطابقة الصور مع الأشياء . . مثل صورة ملعقة مع ملعقة حقيقية . . صورة فرشة أسنان مع فرشة أسنان حقيقية . . صورة كرة مع كرة حقيقية . كل شيء هو شبيه للشيء وليس هو نفسه .

الطفل الأشعث الهارب ، الذي كاد أن يقطع قلادة أسامي ، لا يزال واقفاً ينظر إلينا من باب المدرسة الموارب ، وعيناه تواصلان التحديق إلى أعلى رغم الحر الشديد والعرق الغزير الذي كان يتصبب من جبهته ، ويصب أحياناً في فتحتي عينيه . . كان يغمض عينيه ويفتحهما مراراً وتكراراً وكأنه يلعب لعبة ما مع ضوء الشمس . .

تحدثت إليه أسامي طويلاً قبل قليل ولم يرد . ولكننا عندما ابتسمنا له قبل الانصراف ، استغربت أن يرد على ابتسامتنا بمثلها وهو الذي لم ينطق على مدى وقت طويل بغير كلمات معدودة كان يمليها عليه المدير . كان المصح يقع على أطراف بغداد ، وعند نهاية طريق يبدأ من الرمال ويفضي إلى الرمال ، ولا شيء على مدى البصر سوى أفق رمادي مفتوح وفارغ اختبأت خلفه الشمس وشابت له الأرض بتراب يابس تحول عشبه الأخضر إلى ملح أبيض . . الأشجار محترقة من العطش ، ويباس التراب من حولها يدل على أنها لم تُسقَ من زمن طويل .

انطلقت بالسيارة ببطء ثم سرعان ما أبطأت أكثر ؛ وأكثر لأن حواجز الطريق السريع من الجانبين والوسط لا زالت محطمة في مواضع عدة . استسلمت أسامي مرة أخرى للصمت ، بينما كانت زينب في المقعد الخلفي من السيارة تتلفت إلى الخلف وتنظر من نافذة السيارة العريضة وهي تحرك جسمها إلى الأمام والخلف . . . فجأة بدأت تتمتم ببضع كلمات انتبهت لها أسامي قبلي ونبهتني إليها ؛ فنظرتُ في المرآة لأجد المدير يتحدث مع الصبي الأشعث ويعطيه شيئاً ما . . طلبتُ من أسامي أن تلتفت إلى الخلف لترى ماذا يحدث . . ولما التفتت إلى الخلف ، وجدت الطفل الأشعث يركض خلف السيارة فقالت لي أسامي :

- توقفي .

الصبي من خلف السيارة . . اقترب . . ثم أسرع من مشيه وهو يرفع يده في الهواء ليلوح لنا بإشارب أبيض اللون يمسكه بقوة لكي لا يطير منه إلى الهواء . . أصبح يصرخ خلفنا لكي يلفت نظرنا بعد أن

توقف وخاب أمله للحاق بنا في السيارة ، ضحكت له زينب من المقعد الخلفي ، ولكنه لم يبتسم ، إنما صرخ من بعيد وقال :

- المدير أعطاني هذا . . لقد نسيتم حجاب زينب .

- توقفي يا ياسمين .

ولكن لم أتوقف .

القصص والروايات المنشورة

* **ماما تور بابا تور** ، **قصص خيال علمي إلكترونية** ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت ٢٠١٢ .
* **الليالي الهادئة** ، قصص ، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ٢٠١١ .
* **حفيد البي بي سي** ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٢٠١١ .
* **شاي العروس** ، رواية ، دار الشروق ، عمان ٢٠١٠ .
* **حلم وردي فاتح اللون** ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٢٠٠٩ .
* **نبوءة فرعون** ، رواية ، المؤسسة العربية للدرسات والنشر ، بيروت ٢٠٠٧ . دار أوثر للنشر لندن ٢٠١١ .
* **الحدود البرية** ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٢٠٠٤ .
* **العيون السود** ، رواية ، دار الشروق ، عمّان ٢٠٠٢ . المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٢٠١٠ .
* **يواقيت الأرض** ، رواية ، دار الشروق ، عمّان ٢٠٠١ .
* **رومانس** ، مجموعة قصصية ، الإتحاد العام للكتاب العرب ، دمشق ٢٠٠٠ .
* **لا تنظر إلى الساعة** ، مجموعة قصصية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٩٩ .

* **العالم ناقصاً واحد** ، رواية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٩٦ ، دار أسامة للنشر ، عمّان ١٩٩٩ .
* **رجل خلف الباب** ، مجموعة قصصية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٩٤ .
* **أشياء لم تحدث** ، مجموعة قصصية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٢ .
* **الفراشة** ، مجموعة قصصية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٨٦ .
* **الشخص الثالث** ، مجموعة قصصية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٨٥ .

الفهرس

الفصل الأول : مرآة الجن	5
الفصل الثاني : مرآة الجندي	30
الفصل الثالث : مرآة الجدة	37
الفصل الرابع : مرآة الجمال	38
الفصل الخامس : مرآة الجنينة	64
الفصل السادس : مرآة الجميع	83
الفصل السابع : مرآة الجسر	98
الفصل الثامن : مرآة الجنون	109
الفصل التاسع : مرآة الجريدة	135
الفصل العاشر : مرآة الجنة	166
الفصل الحادي عشر : مرآة الجمر	183

زينب وماري وياسمين

توقّف المطر فجأة كما بدأ فجأة، فتغيّر المكان من ربعة الحوش في منزل زينب إلى صالون كبير يغنّي فيه هيثم يوسف أغنية حزينة .. الجدران تغطّيها لوحات وتحفيّات .. والسقف تتدلّى منه ثريّا كبيرة جعلتني أشعر بالحرارة من شدّة الوهج الّذي تبعثه مصابيحها الصفر .. أحسست أنّ الدفء قد قهر وجهي وجعله ذهبيًّا وربّما أحمر اللون، وأنّ الساعة الّتي تتكتك بانتظام تراقبني من مكانها على الجدار، وشجرة الصبّار كذلك تراقبني. لكنّ المرأة الّتي ترتدي تنّورة قصيرة ولا تضع حجابًا على شعرها دخلت وقالت لي:

ـ أين كنت يا ابنتي؟ ما أحلاك! تعالي .. تعالي.

ـ دقيقة.

ـ ماذا تفعلين؟ لا تعدّلي حجابك. هذا أبوك وأنا أمّك.

◆◆◆

ISBN 978-614-419-149-1

9 786144 191491